179:A84aA:c.1
عساف ،مخائيل (المطران)
الاخلاق المسيحية
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01002112

JAFET LIB.
13 JUN 2008

179
A84aA

9 Dec 69

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

الاخلاق المسيحية

179
A84aA
C.1

الأخلاق المسيحية

بقلم
المطران مخائيل عسّاف
رئيس اساقفة بترا وفيلدلفيا وسائر شرقي الأردن

المطبعة المخلصيّة
دير المخلص – صيدا (لبنان)
سنة ١٩٤٨

Cat. 10 Mar. 53

الحقوق محفوظة للآباء المخلصيين

توطئة

متى تكلم الفم من فيض ما في القلب دخل الكلام الى قرارة النفس وجعل فيها ذلك الارتياح والهناء والاقتناع .

واذا كان القلم ترجماناً صادقاً ابقى للنفس اثراً حياً يحيي فيها عاطفة اللذة الفائقة ، واولاها من الحزم ما تقدم به على عظائم الامور .

كذلك هذه الصفحات التي يقدمها لنا سيادة الحبر الجليل المطران ميخائيل عساف رئيس اساقفة بترا وفيلدلفيا وسائر شرقي الاردن، وقد كتبها اذ كان كاهناً يتنقل في خدمة النفوس ويتعرف على احوالها وحاجاتها ، فوضع لها اولاً كتابه الثمين في سير القديسين الذين تكرمهم كنيستنا الشرقية . ثم عمد الى درس الاعمال والفضائل التي قادتهم الى القداسة فوضع هذا الكتاب في الفضائل المسيحية الادبية والالهية ، بقالب متين جذاب ، وأيد نصه بآيات الكتاب المقدس ، وبشهادات الآباء القديسين ، والمعلمين الروحيين ، ومبادئ اللاهوتيين ؛ وزاد فاضاف ، بعد كل موضوع ، حوادث تاريخية مما يستهوي القارئ ويرغبه في السعي الى تهذيب اخلاقه وتقويم حياته ، توصلاً الى تلك الحياة المثلى ، من اي طبقة كان من المجتمع البشري ، وعلى اي درجة وجد من حالة الكمال .

فالى النفوس التواقة الى التهذيب الخلقي او الادبي والديني نقدم هذا الكتاب لتلجأ اليه في فترات الايام ، فتجدد ، بقراءة نبذة منه ، نشاط الروح ، وتجد التعزية النفسية التي هي فوق كل تعزية بشرية ، وتسلك في انوار النعمة التي هي فوق كل الانوار العقلية .

« المطبعة المخلصية »

مصادر الكتاب

الكتاب المقدس : طبعة المرسلين اليسوعيين ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية .

الاقتداء بالمسيح : ترجمة الاب فرنسيس ماريا القرّاء الحلبي الفرنسيسي ، الطبعة الثالثة ، اورشليم ، مطبعة الارض المقدسة ، ١٩٣١ .

معلوف (الاب لويس) : رياضة روحية للكهنة حسب طريقة القديس اغناطيوس ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٣٧ .

برتيه (الاب) : كتاب سلم السعادة . ترجمه الى العربية بتلخيص القس الياس البكيفاوي ، بيروت ، مطبعة الاجتهاد ، ١٩٢٦ .

ARREGUI (Ant. M.) : *Summarium theologiae moralis*, Bilbao, 1930.

BOSSUET : *Elévations sur les Mystères*, Desclée, 1923.

CATHERINE DE SIENNE (Ste) : *Le Dialogue*. Trad. du *P. Hurtaud*, Paris, Lethielleux, 1913.

CHAUTARD (Dom J. B.) : *L'Ame de tout apostolat*, 9e éd., P. Téqui, Paris, 1920.

DE SMEDT (Ch.) : *Notre vie surnaturelle*, Bruxelles, 1913.

DESURMONT (P. A.) : *La charité sacerdotale*, Paris 1899.

EYMIEU (A.) : *Le gouvernement de soi-même*, 3 vol., Paris, Perrin, 1911-1921.

FRANÇOIS DE SALES (S.) : *Introduction à la vie dévote*, édit. d'Annecy.

— : *Traité de l'amour de Dieu*, Bruxelles, 1923.

FROGET (B.) : *De l'habitation du Saint - Esprit dans les âmes justes*, Paris, Lethielleux, 1900.

GARRIGOU-LAGRANGE (P. Rég.) : *Perfection chrétienne et contemplation*, 2 vol., Paris, Desclée, 1923.

GARRIGOU-LAGRANGE (P. Rég.): *Les trois âges de la vie intérieure*, 2 vol., Editions du Cerf, Paris, 1938.

GAY (Mgr. Ch.): *De la vie et des vertus chrétiennes*, 2 vol., 19e éd., Tours, Mame.

HAMON (A.-J.-M.): *Méditations à l'usage du Clergé et des Fidèles*, Paris, Gabalda.

Histoire de Sainte Thérèse, d'après les Bollandistes etc., 2 vol., Paris, Lethielleux.

HOORNAERT (P. G.): *A propos de l'Evangile*, Louvain.

LACORDAIRE (H.): *Lettres à un jeune homme sur la vie chrétienne.*

LEJEUNE (Mgr): *Manuel de théologie mystique*, Paris, Lethielleux, 1897.

LELONG (Mgr): *Le Saint Prêtre*, Téqui, 1901.

LIGUORI (S. Alphonse de): *Pratique de l'amour envers Jésus-Christ*, Paris, Ed. Casterman, 1859.

— : *De l'importance de la prière*, Paris, Lecoffre, 1898.

MARMION (D. Columba): *Le Christ, Vie de l'âme*, Paris, Desclée, 1930.

— : *Le Christ, Idéal du moine*, Desclée, 1932.

MASSOULIÉ (A.): *Traité de l'amour de Dieu*, Paris, Lethielleux.

MERCIER (Card.): *La vie intérieure*, Bruxelles, 1919.

MEYNARD (A. M.): *Traité de la vie intérieure*, Paris, 1889.

NOBLE (H.-D.): *L'amitié avec Dieu*, Paris, Desclée, 1932.

OLIER (J.-J.): *Introduction à la vie et aux vertus chrétiennes*, Gabalda.

PINY (A.): *La clef du pur amour*, Lethielleux.

RODRIGUEZ (Alph.): *La pratique de la perfection chrétienne*, 4 vol., Paris, Lecoffre, 1921.

SAUDREAU (A.): *Les degrés de la vie spirituelle*, Paris, 1920.

SCHRYVERS (Jos.): *Les principes de la vie spirituelle*, Bruxelles, 1922.

SCUPOLI (L.): *Le Combat spirituel*, Beauchesne, 1911.

SURIN J.-J.: *Les fondements de la vie spirituelle*, Editions Spes, Paris, 1930.

SYLVAIN (P. Adr.): *Le livre des Professes*, 30e éd., Avignon Aubanel.

TANQUEREY (Ad.): *Précis de théologie ascétique et mystique*, Paris, Desclée, 1924.

THÉRÈSE DE L'ENFANT-JESUS (Ste): *Histoire d'une âme*, Office Central de Lisieux (Calvados).

THOMAS D'AQUIN (S.): *Somme Théologique*, Editions de la Revue des Jeunes, Desclée, Paris (texte latin et traduction française).

VALENSIN (P. Alb.): *Une grande Retraite*, 4 vol., Beyrouth, Imprimerie Catholique, 1941.

مقدّمة

« ليكن فيكم من الافكار والاخلاق ما هو في المسيح يسوع » .
(فيلبي ٢ : ٥)

لقد افاض الكتبة اللاهوتيون والمعلمون الروحيون في الكلام عن الكمال المسيحي ، وسمو مراميه ، وجزيل منافعه ؛ ووضعوا في ذلك المؤلفات العديدة ؛ وبينوا بفصاحتهم وعلمهم ، وعلى الاخص بجمال سيرتهم وقداسة حياتهم ، ماهيته ومعانيه ورسومه وطرقه ؛ فخلفوا بذلك لنا كنوزاً عظيمة نغترف منها بمل، قلوبنا ، ومناهل فائضة نردها فنستقي منها « ماء الحياة الدائمة »[1] التي وعد بها المعلم الالهي كل من طلبها وسعى الى نيلها .

وقد قسم اللاهوتيون الروحيون حالات الكمال المسيحي الى درجات ثلاث : فخصّوا الدرجة الاولى بالمبتدئين ، والثانية بالمتقدمين المنوَّرين ، والثالثة بالخُشَّع الكاملين . وجعلوا لكل فئة من هؤلاء رسوماً واحكاماً ؛ ووصفوهم بميزات تعرف بهم . وبذلك اناروا الطريق للمؤمنين ، وبالاكثر للكهنة المرشدين ، ليكون الاولون على بينة من امرهم ، والآخرون على ثقة من تعليمهم وارشادهم .

وان اول من تفرد بهذه الطريقة المثلى المنظمة هو القديس توما الاكويني ملاك المدارس ؛ وتبعه فيها جمهور من الكتبة والمعلمين ، ابرزهم اساتذة « الكلية الفرنسية » في الجيل السابع عشر ، والمنسنيور غي[2] (Mgr Gay)

---

(١) يوحنا ٤ : ١٤

(2) *De la vie et des vertus chrétiennes.*

والاب اليسوعي دي شميد[1] (Ch. De Smedt)، وسودرو[2] (Saudreau)، واشيل دي سورمون[3] (A. Desurmont)، وتنكري[4] (Ad. Tanqueray)، وغيرهم .

فالدرجة الاولى تشمل طغمة المؤمنين الذين يجاهدون لكي يتحرروا من قيود الخطايا الثقيلة بواسطة التكفير المؤسس على الصلاة العقلية والشفهية ، وعلى الصبر في الشدائد ، ومقاومة الشهوات الرديئة ، وردع الاميال الخبيثة .

فاذا ما نجحوا فيما هم ذاهبون فيه دخلوا في الرحلة الثانية ، او الدرجة الثانية من الكمال المسيحي ؛ فأقبلوا على درس حياة المسيح واقواله واعماله ، بعاطفة صادقة ، وعزم ثابت المحبة ، لكي يعملوا على التشبه به واتباع تعاليمه ؛ فاندفعوا يمارسون الفضائل المسيحية تمثلاً به وتقرباً الى ابيه واليه . « انا نور العالم : من تبعني فلا يمشي في الظلام بل يكون له نور الحياة »[5] .

اما الدرجة الثالثة فهي درجة الكاملين من المسيحيين الذين اضحت حياتهم كلها لله ، حياة تجرد كامل عن الارضيات ، حياة هذيذ دائم في السماويات ، حياة اتحاد تام مع الله بفضيلة المحبة الالهية السامية ، حياة صمت داخلي ، وهدوء قلبي ، وسكون عميق روحي ، رغم ما يعترضهم من ضوضاء الحياة ، ومصاعبها ، وشدائدها ، بحيث يمكنهم ان يهتفوا مع الرسول بولس : « انا حيٌّ ، لا انا ، بل انما المسيح حيٌّ فيَّ »[6] .

---

(1) *Notre vie surnaturelle.*
(2) *Les degrés de la vie spirituelle.*
(3) *Charité sacerdotale.*
(4) *Précis de théologie ascétique et mystique.*

(٥) يوحنا ٨ : ١٢ (٦) غلاطية ٢ : ٢٠

الا ان بحثنا الآن لا يتناول سوى الكلام عن الفضائل المسيحية الالهية والادبية ، اعني ما يدخل تحت لواء الدرجة الثانية من الكمال المسيحي [1] تاركين ما سواه لغيرنا ، او لبحث غير هذا البحث . لان كمال الحياة الروحية يعود اكثره الى القيام بافعال الفضائل المسيحية ، وهذا ما طلبناه الآن في هذا الكتاب خدمة للنفوس المؤمنة التقية . والخطة هذه هي الخطة العملية التي اعتمدها الكثيرون من كبار الكتبة الروحيين ، نظير كاسيانوس ، والقديس يوحنا كاتب سلم الفضائل ، في الاجيال الغابرة ؛ ورودريكوس [2] (Rodriguez) واوليه [3] (J. J. Olier) والمنسنيور لولونج [4] (Mgr. Le long) وغيرهم في القرون الادنى الينا ؛ فهي اقرب منالاً ، واسهل على عامة المؤمنين سبيلاً .

اما الخطة الثانية التي سار عليها الا كثرون من الآباء القديسين ومن كبار المعلمين اللاهوتيين، نظير القديسين باسيليوس والذهبي الفم وامبروسيوس واغسطينوس وانسلموس وبرنردوس وتوما الاكويني وبنونتورا وفرنسيس السالسي ومنصور دي پول ، والقديسة تريزيا ، وجرسون والكردينال دي بيرول وسواهم من قريبين من عصرنا ومن بعيدين عنا [5] ، فهي التي ، وان كانت اكثر منطقاً واكمل بياناً ، الا انها اطول مسافة ، واكثر مشقة على الاكثرين من جمهور المؤمنين . وذلك لانها تبدأ فتستعرض المبادئ اللاهوتية اولاً ، ثم بعدها وعلى نورها تتطرق الى بحث الحالات الروحية ومظاهرها وسبلها ، وتدرس انواع الفضائل المتممة لها . وهذا يلزمه ، كما لا يخفى ، ثقافة

---

(1) Ad. Tanqueray: *Précis..., pp.* 397 - 407.
(2) *Pratique de la perfection chrétienne.*
(3) *Introduction à la vie et aux vertus chrétiennes.*
(4) *Le saint prêtre.*
(5) Ad Tanqueray: *Précis..., pp.* 22 - 30.

عالية لاهوتية ، لا شأن لنا بها في كتابنا هذا .

فنحن نعتمد اذاً الطريقة الاولى ، ونبحث في الفضائل المسيحية وكيفية القيام بها ، لنصل الى ما نبغيه من الكمال المسيحي بممارستها .

***

وقد دعونا كتابنا هذا كتاب « الاخلاق المسيحية » لانه يحوي خلاصة الآداب المسيحية . فهو موجز للتعاليم الانجيلية والوصايا الكنسية . فمن رغب في معرفة ما دعا اليه الفادي الالهي من جميل الاخلاق ، وما تعلمه الكنيسة من روائع الآداب ، فليتصفح هذا الكتاب ، فانه يجد فيه صورة مصغرة ، ولكنها صادقة كاملة ، للآداب المسيحية بما فيها من معانٍ سامية ، واغراض نبيلة ، ومرامٍ شريفة . ويرى ان في اتباعها عظمةَ وسعادةَ الدنيا والآخرة . فان كل ما فيها هو فلسفة حقة عميقة ، وعلمٌ رائعٌ للألوهة كما هي بفخامتها وجلالها وحنانها ورحمتها ، وبيان صادق للبشرية بطبائعها ونزعاتها ، وضعفها وقوتها ، ونقائصها وكمالاتها ، وما يُطلب منها لتصل الى الغاية القصوى السماوية التي وضعها الله لها ، ورفعها بجوده ِ وفضلهِ الى سموّها وبهائها . فيقف بذلك على ما يترتب عليه من واجبات ، وعلى ما له من حقوق في علاقاته مع خالقهِ ومخلصهِ ، وفي معاملتهِ مع قريبهِ وفي سلوكهِ مع نفسهِ ، ويعلم ان الطريق السويّ هو المسيح الذي « هو الطريق والحق والحياة »[1] .

فالمسيحي يجد في هذا الكتاب التعليم الصحيح للفضائل المسيحية . فيبدو له بوضوح ان هذه الفضائل هي زينة حياته وبهجتها ، وانه لا معنى للحياة البشرية الا بها ، وانما هي له ولذويه وللمحيط الذي يعيش فيه مجلبة

(١) يوحنا ١٤ : ٦

الغبطة في دنياه، وستضحي له سبب السعادة السماوية الدائمة في الآخرة .

والكاهن يستعيد الى ذاكرتهِ والى قلبه ، لدى مطالعتهِ لهذا الكتاب ما سبق له ان تعلّمه وحفظه ومارسه من الثقافة اللاهوتية الادبية والعلوم الروحية ؛ فينعش به الشيء الكثير من معارفه الكهنوتية ومن عواطفهِ التقوية . ويكون له هذا المؤلف الصغير المعين الكبير ، في خصوصياتهِ ، وفي مواعظه ، وفي ارشاد النفوس الموكولة الى عنايتهِ .

ولا بأس لغير المسيحي ان يتصفحه . فانه يستعرض في طياتهِ اجمل مجموعة من المبادئ الانجيلية ، والفرائض المسيحية . فيتحقق من سموّ تعاليمنا وما احدثته فلسفتنا الروحية والادبية من التأثير العظيم ، على ممر العصور ، في حياة وتاريخ البشرية .

وقبل ان نبدأ، لا بد لنا من ان نصدر الكلام ببعض ابحاث تمهيدية تسهّل فهم الموضوع وحسن الالمام به ، والله الموفق الى الصواب .

في ٨ ايلول ١٩٦٣ الارشمندريت ميشال عساف

بحوث تمهيدية

البحث الاول

نظرة عامة في اصحاب الفضائل المبتجة

ان القديسة تريزيا الافيلية ، من حملة الاعلام العليا في التعاليم الروحية ، تصف حالة المؤمنين المتقدمين في الفضيلة فتقول : « انهم يحرصون الحرص كله على ان يمتنعوا عن كل ما من شأنه ان يهين العزة الالهية ؛ لا بل يحاذرون ان يستسلموا حتى للخطايا الخفيفة ؛ ويرغبون في انواع التكفير وطرقه ؛ ولهم اوقات معينة يحافظون فيها على الصمت ، ويتفرغون للتأمل ؛ وهم لا يضيعون شيئاً من اوقاتهم ؛ ويعكفون على ممارسة اعمال الرحمة نحو الناس ؛ ويسيرون بانتظام دقيق في حياتهم بكل ما هو من حديثهم ولبوسهم وادارة بيوتهم ، اذا كانوا من ارباب البيوت »[1] .

فما تقدم يظهر باجلى بيان ان الذين يرغبون في اقتفاء اثر السيد المسيح ، والاسترشاد بتعاليمه ومثله ، عليهم ان يمارسوا الفضائل التي أوصى بها ، ودعا اليها ، وكان هو المثل الاعلى لها . لذلك كان لا بد لهم :

اولاً : من الحصول على شيء من نقاوة القلب ليستسهلوا بها عادة اتحادهم مع السيد المسيح . وهذا لا يمكنهم الوصول اليه الا بافعال الفضائل التي يدعو اليها هذا المعلم الالهي . فالنفس التي ما زالت مرضة للسقوط من حين الى حين ،

---

(1) *Château de l'âme: troisième dem., ch. I, p. 80.*

بل ربما تستسلم للخطايا الثقيلة ايضاً ، عليها بادئ بدء ان تبذل الجهود الكافية لتتحرر من هذه الخطايا ، وان تبتعد عن اسبابها ، وان تقاوم ميول الطبيعة الخبيثة الساقطة، وان تصمد للتجارب المتنوعة . وعندما تكون قد فرغت من هذا كله واستتبت لها عادة الامان والاطمئنان ، يسوغ لها ان تتفرغ اذ ذاك للجهة الايجابية في الحياة الروحية ، اعني لاعمال الفضائل المسيحية . ثم لا بد لها فوق ذلك من مقاومة عادة الخطايا العرضية التي تستسلم اليها برضاها واختيارها . لان ذلك مما يعوق سيرها وتقدمها .

ثانياً : لا بد لهم ايضاً من ان يكونوا قد تشبعوا من التعاليم الانجيلية ، وملأوا اذهانهم من حقائق العقائد المسيحية ، فيستسهلون عادة التأمل العقلي المحلى بالعواطف الروحية ، ويتعاطون بارتياح الصلاة القلبية ، فيكون لهم ذلك من انجع الوسائل لممارسة اعمال الفضائل المسيحية .

ولكن ماذا نبغي ، يا ترى ، من وراء ممارسة هذه الفضائل ؟ ان رغبتنا الكبرى في حياتنا يجب ان تكون السعي الحثيث للتشبه بالسيد المسيح ، لنطبع حياتنا بطابع حياته الالهية ، فيصبح هو محور افكارنا واعمالنا وعواطفنا .

ولذلك نقبل على قراءة الانجيل بتؤدة وشغف ، ونستوعب معانيه الالهية ، ونملأ اذهاننا من رسومه وتعاليمه وفلسفته ، فنجد فيه الطريق والحق والحياة ، اعني السيد المسيح كاملاً بعظمته وتواضعه ، وجماله وسخائه ، وعذوبته وحنانه ؛ فنتخذه معلماً ومثالاً وقائداً وصديقاً ومدبراً ومحسناً ؛ ونحيا بحياته ، ونتحلى بكمالاته ، على قدر ما تمكننا طبيعتنا الناقصة الساقطة من اللحاق به ؛ وعلى قدر ما يجود هو به علينا من نعم لنزداد اندفاعاً في سبيل مرضاته .

وبقدر ما تتوفر فينا معرفة هذا المعلم الالهي والصديق الوفي ، تضطرم فينا عواطف الشغف به وبشخصه وبتعاليمه وبفضائله ، فنهتف اليه مع الرسل على

الجبل : « حسن يا رب ان نكون ههنا » (١) . فعندما تمتلئ عقولنا وقلوبنا من حقيقة محبته لنا وشغفه بنا ، ونعلم علم اليقين النيّر انه هو الذي بادأنا بالمحبة فبذل ذاته الالهية حبًّا لنا ، تضطرم فينا عواطف الحب نحوه ، ولا نلبث ان نذوب في محبته ، وان نكون على تمام الاهبة لبذل دمائنا بفرح وشكر محبةً له . لان الحب ينادي الحب ، والحبيب يتوق الى التمثل بحبيبه .

اما طريقة الوصول الى هذه النهاية السامية والاعمال الشريفة فتكون اولاً بالصلاة والتضرع ؛ ثم بالتأمل الروحي ، ولا سيما بالتأمل المشبَع بالعاطفة القلبية ؛ واخيراً بممارسة افعال الفضائل المسيحية الالهية والادبية . الا ان بحثنا الآن لا يتناول سوى الكلام عن الفضائل ، بصرف النظر عمّا سواها من الوسائل . لكننا سوف نذيّله بكلمة موجزة عن الصلاة وعن مفاعيلها العجيبة .

* * *

وقبل ان نبدأ بالكلام عن كلٍّ من هذه الفضائل الالهية والادبية بمفردها ، لا بدّ لنا من بعض البيان المجمل عنها . فنقول :

ان الفضائل الالهية والفضائل الادبية تسير دائماً معاً جنباً الى جنب . مثال ذلك انه لا يمكننا ان نمارس الفطنة المسيحية من غير ان نجعل لها فضيلة الايمان اساساً ونبراساً . كما ان فضيلتي الايمان والرجاء يعسر عليهما ان تنمُوا في نفوسنا اذا ما كانت الفطنة مشايعة لهما ، تسير في ركابهما .

ولا بد للمبتدئين في الحياة الروحية من ان يروضوا نفوسهم اولاً على افعال الفضائل الادبية ، نظير القناعة والشجاعة اللتين من شأنهما ان تهاجما الدّ اعدائنا فتكاً بنا ومضرةً لنا ، اعني العُجب والصلف والشهوة وما اليها . فاذا ما اتيح لهم الظفر على هذه الرذائل ، وقمع جماحها واخضاعها للفضائل الادبية المقابلة

(١) لوقا ٩ : ٣٣

لها ، تسنى حينئذٍ لهم ان يلتفتوا الى الفضائل الالهية ويتخذوها قاعدة لحياتهم واعمالهم .

ولكي ندرك بجلاء معنى ما تقدم ، ينبغي ان نبين بماذا تفترق الفضائل الالهية عن الفضائل الادبية ، بعد ان سبق لنا وقلنا كيف تتصل هذه بتلك وتسير كلها معاً صفوفاً متحدة .

ان موضوع الفضائل الالهية هو الله ذاته ، وان الغاية التي تنشدها هي احدى صفاته تعالى الالهية . مثال ذلك اني أومن بالله لانه هو الحق الازلي الكامل ، واحبه لانه كامل الجمال والحنان . فبهذه الافعال ارفع عقلي وقلبي مباشرة الى الله عزَّ وجلَّ ، واكرّم بالايمان صدقه ، وبالمحبة جماله وحنانه ورحمته .

اما موضوع الفضائل الادبية فهو بنفسه خير زمني ، وغايتها هو الشيء الصالح الحسن . خذ لكَ مثلاً فضيلة العدل : فان موضوعها هو المساواة بين البشر ، فنعطي كل ذي حقٍ حقه . وغايتها هي ما في هذه المساواة من حُسنٍ وصلاح . الا اننا اذا ما مارسنا العدل اطاعة لاوامر الله ، تصبح لنا فضيلة العدل درجة من سلّم الفضائل الادبية ، نرتقي بها الى الله . وهكذا نسعى وراء العدل لان الله يأمر به ، ولانه هو تعالى العادل الاول الاكبر الذي ليس عنده محاباة للوجوه . — وهكذا ايضاً نبغي الفطنة لانه هو تعالى مصدر كل غبطة ، وينبوع كل خير ولذة .

فلما كانت الفضائل الادبية هي طريق الفضائل الالهية فاننا نبدأ كلامنا بها ، وبعدها نبحث في الفضائل الالهية ، وان تكن هذه افضل من تلك ، واسمى واكمل .

***

وختاماً لهذا البحث الاول نقول كلمة فيما نرى من الفرق ما بين النفوس التقية العاديَّة والنفوس التقية الحارة .

فالنفوس التقية العادية هي التي لا تنقصها الاستعدادات الحسنة، ولا الجهود الصادقة في محاربة الاهواء، وفي الهرب من الخطايا المفعولة بانتباه ورضى، الا انها لا تزال تستسلم لكثير من النقائص من ضعف عزم وقلة نشاط . فهي لا تبرح تعتمد على قوتها ومضاء عزيمتها، ولا تأنف من العجب بنفسها ومن التمسك بشيء من التيه والخيلاء ، وتنفر من التوكل الكامل الشامل على الله ، ومن تسليم مقاليد امورها بين يديه . وتتأفف من مصاعب الحياة ، وتتراخى امام الشدائد، وتتردد ما بين الصبر والتذمر . وهي وان عزمت عزماً صادقاً على خوض معارك الحياة الروحية بنشاط وثبات، الا انها لا تلبث ان تتقاعس ، وتنسى مقاصدها ، وتترك ما وعدت به ، او لا تقوم الا باتمام بعضه . فمثل هذه النفوس لا يكون سيرها في طريق الكمال المسيحي الا بطيئاً . ولكي تتحرر من هذا التواني ، وتبعث في صميمها روح الايمان والنشاط ، عليها بالاقبال على الفضائل التي من شأنها ان تثير قواها وتثبتها ، نظير الشجاعة والتواضع .

اما النفوس الحارة فهي التي تمتاز بتواضع اكثر وسخاء اكرم . لا تعتمد على مؤهلاتها بل على الله الذي منه كل نعمة وكل قوة وكل خير وبركة . وهي قد تعودت ان تكفر بذاتها ، وان تصبر على المكاره ، وان تصمد امام الشدائد ، وان تثبت وقت التجربة . الا انها لم تصل بعد الى درجة الكمال في التجرد والتصبر والاحتمال . تصبو بلهف الى الكمال ، الا ان همتها ضعيفة بسبب ما ينقصها بعد من عادة حمل الصليب . وهي تستسيغ العذوبات الروحية بافراط وتؤثرها على الصبر وقمع النفس والتلذذ بالبلوى . تبدأ يومها بالصلاة والتأمل ، وتعاهد الله بان تكون له بكليتها نهارها كله ، مهما تقلبت عليها ظروف الزمان وصروفه ، لكنها لا تلبث ان تستسلم للوهن، لان جهودها لا تزال قليلة ناقصة، تحب الله محبة صادقة ، ولاجل حبها له تعالى تحاذر ان تتعرض المواقف الخطرة ، لكنها تتساهل في التلذذ بكل ما تسمح به الوصايا الالهية والكنسية،

وبما لا يقودها الى الخطيئة . فتحب الاهل مثلاً حباً مفرطاً ، وتأبى ان تضحي بشيء من مظاهر حبها لهم ؛ او تتملق باصدقائها وتغالي في تعلقها بهم ؛ او تسارع وراء العذوبات الروحية ولا تريد عنها بديلاً . فهذا وما شابهه ، وان كان لا يخرج عن حدود الناموس والشريعة ، فهو دليل على ضعف التجرد ، ويعيق كثيراً تلك النفوس في اتحادها الكامل مع الله .

وفي بحثنا الآتي عن الفضائل سوف لا نفرق بين هذه الطغمة وتلك من النفوس التقية الحارة والنفوس التقية العاديَّة . فعلى المرشد الفطن ان يتنبه الى احوال النفوس الموكولة الى عنايته ، ويهديها الى ما ينفعها من الفضائل المسيحية في مختلف حالاتها النفسية .

البحث الثاني

في الفضائل المبجعة الموهوبة [1]

اي الفائقة الطبيعة والمفاضة من الله في نفوسنا

لما كان الله بفضله وعطفه قد رفعنا الى حالة روحية تسمو على حالتنا الطبيعية ، وأرادنا للسماويات بدل ان نبقى للارضيات ، ودعانا الى متعةٍ وغبطةٍ في ملكوته لا تقاس سمواً وكمالاً وعلىً بما تستطيع طبيعتنا ورغائبنا البشرية ان تصبو اليه ، كان لا بدَّ له من ان يهيِّئ لنا قوى تتناسب مع هذه الحالة الفائقة الطبيعة التي ارادها لنا ودعانا اليها . وكما ان دعوته لنا الى الحالة السماوية الفائقة الطبيعة هي مجانية وصادرة عن محض ارادته وجودهِ وحنانه ، من غير ان يكون لنا حق طبيعي في مطالبته بها ، كانت القوى الفائقة الطبيعة التي ترفعنا اليه هي ايضاً صادرة منه ومن فضلهِ وتنازله . لذلك يدعوها اللاهوتيون « موهوبة » (*Vertus infuses*) .

والمجمع التريدنتيني يعلم انه من المؤكد ان الله جلّت حكمته عندما يفيض النعمة المبررة في نفوسنا يهبنا معها الفضائل الالهية الثلاث : الايمان والرجاء والمحبة . اما فيما يختص بالفضائل الادبية « الموهوبة » ، اعني الفطنة والعدل والشجاعة والقناعة وما اليها ، فان الاعتقاد العام المقبول في الكنيسة هو ان الله يجود بها علينا ايضاً ويفيضها في نفوسنا مع النعمة المبررة نظير الفضائل الالهية .

واما عن كيفية فعل هذه الفضائل في نفوسنا فان علم اللاهوت يقول [2] : ان الفضائل الثلاث الاولى تدعى « الهية » لان الله تعالى هو موضوعها ، ولان

---

(1) *Vertus infuses*: St. Thomas, *Iª IIæ q. 55-67*, *IIª IIæ*, *q. 48-170*
(2) Tanqueray: *Précis ...* , *p* 83, nº 121-122.

احدى صفاتهِ عزّ وجلّ هي غاية كل واحدة منها . فبالايمان نتحد بالله بصفتهِ هو الحق السامي الذي لا يغلط ابداً ولا يمكنه ان يضلنا ، وبكونه ينحدر الينا فينير اذهاننا لننظر الى الامور ونحكم فيها على ضوء انواره الالهية . — وبالرجاء نتحد ايضاً بالله بصفتهِ ينبوع كل خير ومصدر كل صلاح ، ولانه على استعداد دائم ليمنحنا كل نعمة وكل موهبة ، ولكونه فوق ذلك يحملنا بعذوبة على الاتكال عليه اتكال الطفل على حنان ابيه . — اما بالمحبة فاننا نصعد الى الله ونتحد به بصفته كامل الاوصاف المحبوبة ، وفائقاً في ذاته كل كمال وكل جمال . وهو الذي يحملنا على الاغتباط لكمالاته كما لو كانت ملكاً لنا ، وعلى الرغبة في ان تكون معروفة ومكرمة في الدنيا كلها . فنتحد به برباط الحب البنوي ، ونتشبه به كل يوم اكثر فأكثر بفعل هذا الشوق القلبي . — فالفضائل الالهية هي لنا حقاً واسطة الاتحاد المباشر بالله عز وجلّ .

اما الفضائل الادبية فان موضوعها هو الشيء الحسن المليح . وغايتها هي الخير والصلاح . وهي تساعدنا على توجيه حياتنا الى الله والاتحاد به تعالى ، لانه هو الغاية الاخيرة لكل عمل من اعمالنا رغم ما يعترضنا من مصاعب لبلوغ هذه الغاية .

فالفطنة تحملنا على اتخاذ انجع الوسائل التي توصلنا الى غايتنا القصوى السماوية . — والعدل يدفعنا الى تقديس حقوق الناس اكراماً لله المشترع العادل الاول . — والشجاعة تجعل في قلوبنا ما يلزمنا من القوة لمجابهة المصاعب والاخطار ، وتسلحنا بالصبر وقت البلوى ، وتدفعنا الى القيام بواجباتنا مهما صعبت ، وبسائر الافعال الحسنة مهما تنوعت ، رغبة منا في تمجيد الله واكرامه والانقياد لاوامره وإلهاماته . — والقناعة تلجم اميالنا المتطرفة عن الاسترسال في طلب الملذات ، وتحفظنا في دائرة الواجب المقرر لها .

فالفضائل الادبية تزيل المصاعب من طريقنا وتسهل لنا سبيل الوصول الى

الله خالقنا وموضوع امانينا . فما هي هذه الفضائل الادبية ، وما علاقة الفضائل المسيحية ببعضها ؟

٥ – الفضائل الادبية الطبيعية والفضائل الادبية الفائقة الطبيعة او الموهوبة .

ان الفضائل الادبية هي على نوعين : طبيعية وموهوبة . فالاولى مصدرها الطبيعة ، وغايتها الفعل الحسن بقطع النظر عن التطلع الى السماء وابتغاء وجه الله . مثال ذلك من يحسن الى البائس لانه اخوه بالبشرية ؛ ومن يصبر على المكاره لانه عار عليه ان يكون جباناً ؛ ومن يقنع بالكفاف من الاكل والشرب لان في ذلك صحة البدن . فمثل هذه الافعال هي افعال فضائل طبيعية لا شأن لها مع الخير الادبي السماوي . واذا تكررت هذه الافعال فانها تنشىء في المرء عادات حسنة وملكات راسخة طيبة ، يسهل بواسطتها السير في طريق الخير .

اما الفضائل الموهوبة فهي التي يفيضها الله بنعمته في قلوبنا فتحملنا على طلب وجهه الكريم في اعمالنا وعواطفنا ، فتصبح غايتنا اسمى بما لا حد له من الغاية التي ترمي اليها الفضائل الطبيعية . فالبون شاسع ما بين القناعة التي يدعو اليها ارسطو مثلاً ، مستنداً في ذلك الى انوار العقل والمنطق الفلسفي ، سعياً وراء خير بشري زمني ، وبين القناعة المسيحية التي تستمد نورها من الايمان المسيحي ، وتستوحي في نظامها وطرقها ومرادها التعليم الانجيلي ، وتسمى وراء خير سماوي الهي ابدي .

ولا يتنافى مع طبيعة الفضائل « الموهوبة » ، ان تنشأ فينا بتكرار افعالها عادات تصبح مكتسبة وملكات راسخة ، يصير العمل بسببها سهلاً ، لا بل مستحباً ولذيذاً . ولاجل ذلك فهي لا تضمحل مع اضمحلال النعمة المبررة ، كما هو حال الفضائل الموهوبة . لان هذه تواكب النعمة المبررة ، فتغدو معها وتروح معها . اما الفضائل المكتسبة فانها تبقى ملازمة لنا حتى في حال الخطيئة

المميتة ، ولا يبيدها الا افضاؤنا عنها واهمالنا ممارسة الافعال المناسبة لها .

ولكي ندرك بوضوح كيفية ذلك نورد لكلامنا مثلاً قريب المأخذ : اعتاد القاضي يوحنا ان يقدس العدل وان يعطي لكل ذي حق حقه، حتى صارت له فضيلة العدل طبيعة ثانية لا يحيد عنها . فاذا كانت نفسه في حالة البرارة كانت فضيلة العدل فيه موهوبة ومكتسبة معاً . فهي موهوبة لانها ثمرة النعمة المبررة التي تزين نفسه ، ولانها تسهل له سبيله الى الله بواسطة افعالها التي يمارسها حباً له تعالى ، ولانها تصبح له ذات اجور سماوية . وهي مكتسبة لان افعالها تصدر عنه بسهولة وارتياح العادة وبدافع العادة او الملكة الراسخة فيه . « ونحن نعلم ان الذين يحبون الله كل شيء يعاونهم للخير »[1] .

اما اذا سقط من النعمة بسبب الخطيئة المميتة فقد سقط من المحبة ، وايضاً من فضيلة العدل الموهوبة . اما فضيلة العدل المكتسبة فانها تبقى ثابتة فيه ولو الى حين . الا انه لا يبقى لافعالها حق في الاجور السماوية ، لان النعمة المبررة هي التي تكيف افعال الفضائل الادبية وتكسبها ميزتها الفائقة الطبيعة ، وتمكنها من كسب الاجور العلوية .

٢ – علاقة الفضائل المسيحية ببعضها .

ان الفضائل المسيحية، الهية وادبية ، تواكب النعمة المبررة في حلها وترحالها وتعمل معها ، ولا يمكن ان تستقلّ الواحدة عن الاخرى في كيانها ولا في عملها . والقول المأثور هو ان الفضائل كلها مرتبطة ببعضها ، فلا تعمل الواحدة منها عملاً قيماً الا وتكون سائر الفضائل في خدمتها ومساعدتها . ولما كانت فضيلة المحبة هي ملكة الفضائل كلها ، فان هذه تتبعها بانتظام كجوار لها . فهي كالشمس

(١) رومية ٨ : ٢٨

مع سياراتها اينما سارت اسرعن من حولها . ولزيادة الايضاح نقول :

اولاً : لا ينكر احد ان فضيلة المحبة تشمل الفضائل كلها ، الهية وادبية معاً . وكم ابدع القديس بولس في بيان ذلك اذ يقول في رسالته الى اهل كورنثس : « لو كنت انطق بالسنة الناس والملائكة ولم تكن فيَّ المحبة فانما انا نحاس يطن او صنج يرن . ولو كان لي الايمان كله حتى انقل الجبال ولم تكن فيَّ المحبة فلست بشيء . ولو بذلت جميع اموالي لاطعام المساكين واسلمت جسدي لاحرق ولم تكن فيَّ المحبة فلا انتفع شيئاً . المحبة تتأنى وترفق . المحبة لا تحسد ولا تتباهى ولا تنتفخ ولا تأتي قباحة ولا تلتمس ما هو لها ولا تحتد ولا تظن السوء . ولا تفرح بالظلم بل تفرح بالحق وتحتمل كل شيء . وتصدق كل شيء . وترجو كل شيء . وتصبر على كل شيء . . المحبة لا تسقط ابداً »[1] .

فهذا معناه ان من طلب الله قبل كل شيء . وفوق كل شيء ، وأحبَّ الناس لاجله تعالى ، فقد هيأ نفسه للقيام بافعال كل فضيلة من الفضائل محبة لله . لان من خاصة فضيلة المحبة ان توجه اعمالنا كلها اليه تعالى لكونه غايتنا القصوى السنية . وما هذه الاعمال سوى ممارسة الفضائل التابعة لها . ولقد جاء في كتاب حياة القديسة تريزيا الافيلية في هذا المعنى ما نصه : « بقي علينا ان ننظر الى فضائلها الاخرى ، فانها كانت شهباً مباركة متقدة بلهيب نار واحدة ، يؤججها سعير واحد ، وهذا السعير هو حبها لله . فهذا الحب هو الذي بدأ فجردها من ذاتها ، واذلها بالتواضع ، وذبحها بافعال التكفير ، وصبَّ الغبطة في قلبها بالصبر عند اشد الشدائد ، وحملها على تضحية حياتها وكيانها في سبيل القريب ، وجعلها حقاً « ذبيحة فضيلة المحبة » ، كما تترنم الكنيسة المقدسة في اكرامها لها »[2] .

الا ان فضيلة المحبة هذه ، ولو كانت ملكة الفضائل كلها ، ولو انها دفعت

---

(١) ١ كور ١٣ : ١ — ٨

(2) *Histoire de Ste. Thérèse: t. II, p. 369.*

ارادتنا الى ممارسة الافعال المختصة بكل منها وسهلت لها طريقها ، الا انها لا تكسبنا كمال وتأصل هذه الفضائل من غير جهودنا ؛ فلا تملكنا هذه الفضائل الادبية ولا تصبح عادات متأصلة فينا الا اذا عدنا مراراً وتكراراً الى ممارسة الافعال المختصة بكل واحدة منها . لان فضيلة الفطنة مثلاً ، او التواضع ، او الوداعة ، او العفاف ، او الطاعة ، الموهوبة لنا من الله مع النعمة المبررة لا تصبح فضائل مكتسبة وعادات سهلة لذيذة مستحبة الا اذا اندفعنا كل يوم وكل آن في ممارسة افعالها .

ثانياً : لما كانت فضيلة المحبة اساساً لسائر الفضائل الالهية الادبية فانه لا يبقى لهذه ميزة ولا قوام الا بها . فاذا ما فقدنا المحبة فقدنا معها فعل الفضائل كلها . ومعنى ذلك انه لا يبقى ولا لواحدة منها حق في الاجور السماوية ، حتى ولا لفضيلتي الايمان والرجاء . بل تصبح اعمالها اعمالاً طبيعية بشرية ارضية . لان من ارتد عن محبة الله بالخطيئة المميتة لا يعيده شيء الى الله الا المحبة . فاذا ما هذه عادت ، عادت معها سائر الفضائل ، وتكيفت بها ، واستمدت منها صفتها الفائقة الطبيعة ، واستحقت اجورها .

ثالثاً : ان الفضائل الادبية المكتسبة المحلاة بطابع المحبة الالهية ، لا يمكننا ان نمتاز بافعال واحدة منها الا ان نعتمد على اخواتها مستعينين بها . مثال ذلك ان فضيلة الفطنة لا يمكنها ان تلمع في نفسنا وتشرق في حياتنا ، من غير مراكبة الشجاعة والعدل والقناعة لها . وهكذا فضيلة العدل ايضاً فانها لا تبرز وتجيد عملها الا ان تكون الشجاعة والقناعة رفيقات لها .

اما اذا كانت الفضائل الادبية فينا عادية ، لا اشراق لها ، ولا قوة لظهورها ولا دوام لعملها ، فيمكنها اذ ذاك ان تتفرق عن بعضها ، وان تتفرد كل منها بعملها . فان من الناس من يكون متواضعاً ولا يكون رحيماً ، او يكون كريماً ولا يكون عادلاً ، وذلك اذا كانت هذه الفضيلة فيه عادية ، وكانت حالته الروحية ضئيلة فاترة .

البحث الثالث

عمل المسيح في حياتنا الروحية

نظر يسوع بعينه العطفى الى الدنيا المتألمة الباكية ، نظر الى القلوب الكثيرة الكسيرة المتفجرة بالدموع ، فرقّ لها ورقّ لحالها . وكما تحنن يوماً على الجموع التي كانت تتبعه في القفار المطلة على بحيرة طبريا وأشبعها خبزاً ، تحنن ايضاً على النفوس العطشى الى مياه الحقيقة والقوة والتعزية فأرواها من معين قلبه ودعاها اليه وقال :

« تعالوا اليّ يا جميع المتعبين والمثقلين وانا اريحكم . احملوا نيري عليكم وتعلموا مني أني وديع ومتواضع القلب ، فتجدوا راحة لانفسكم . فان نيري لين وحملي خفيف »[1] .

تعليم سام ، كلام الهي سماوي ، دواء شافٍ . هل جسر احد قبل يسوع او بعده ان يقول هذا القول ، او يعلم هذا التعليم !

المسيح وحده استطاع ان يدعو البشرية بشعوبها وعصورها الى هذه الدعوة الرائعة ، لانه الكلمة ، ابن الله ، المعلم السماوي ، الذي كلمته ليست قولاً يطنّ في الآذان فحسب ويضمحل ، بل هي ايضاً فعل الهي يحقق ما يقول . فهو المعلم الاكبر ، وهو العامل الاكبر في حياتنا الروحية ، وفي ممارستنا للفضائل المسيحية والكمالات الانجيلية .

هذا وان ما اردنا ان نبيّنه بوجيز الكلام قبل ان نشرع بدرس هذه الفضائل وهذه الكمالات هو[2] :

المسيح يوحّد جهودنا الروحية وينظمها .

---

(١) متى ١١ : ٢٨ — ٢٩

(2) *Cf.* G. Hoornaert, S. J.: *A Propos de l'Evangile, pp. 187-203.*

المسيح يجذبنا اليه بسحر تعاليمه وجمال مثلهِ .
المسيح هو لنا مثل اعلى نصبو اليه ونلحق بهِ صُعُداً .

اولاً – المسيح يوحّد جهودنا الروحية وينظمها .

كثيراً ما يخامر الانفس التقية المتعبدة شيء من الخوف والقلق ، ينتهي بها احياناً الى حد القنوط ، عندما تستعرض مجموعة الفضائل المسيحية والاعمال التقوية المفروضة عليها ممارستها . فتخور قواها وتتلاشى عزيمتها امام تلك الواجبات العديدة المتنوعة .

ولكنها اذا ما تأملت في حياة يسوع ، وتشبعت من تعاليم يسوع ، وشُغفت بشخصيته الفريدة الفذة الحبيبة ، هان عليها كل امر . فيصبح يسوع لها محور الحياة ، وهدف الجهاد . وهو المبدأ والمرجع . فيوحّد لها في شخصهِ وفي حبهِ ، كل عمل روحي ، وكل جهاد سماوي .

حب يسوع هو خلاصة الفضائل المسيحية والاعمال التقوية والاخلاق الانجيلية . هو روح الحياة الروحية :

فما الفضيلة سوى التشبه بيسوع .

وما الانجيل سوى تعاليم يسوع وحياة يسوع .

وما عبادة قلب يسوع سوى اكرامنا لمحبة يسوع ممثلة في قلبهِ الانساني الحبيب .

وما القداس الالهي سوى ذبيحة يسوع مكررة ذبيحة الصليب .

وما التناول سوى تغذية نفوسنا بجسد ودم يسوع .

وما السماء سوى التمتع الابدي بيسوع .

فيسوع هو كل شيء . هو الكل في الكل . الحياة الروحية كلها ليست سوى يسوع : « مهما اخذتم فيه من قول او فعل فليكن باسم الرب

يسوع المسيح »(١) .

وما احلى ما قال احد الكتبة الروحيين من الآباء اليسوعيين : « ما الحياة الدنيا الا طلبنا ليسوع . وما الحياة الاخرى الا حظوتنا بيسوع » .

فالديانة والتقوى والعبادة ليست قطعاً مفككة مبعثرة ، يُضاف بعضها الى بعض لتكوّن مجموعة عديدة اجزاؤها ، مستقلة عن بعضها ، بل هي حلقة واحدة تدور حول محور واحد وهو يسوع المسيح .

من عادة العلماء ، بعد ان يتناولوا موضوعاً بالدرس والتنقيب ، ان يضعوا له قاعدة موجزة تلخصه وتعبّر عنه . فلتكن قاعدتنا ، نحن المسيحيين ، التي تجمع لنا المعاني الروحية كلها ، سيدنا يسوع المسيح .

ثانياً المسيح يجذبنا اليه بسحر تعاليمه ومثله .

فالتقوى لا تتوحد بالمسيح يسوع فحسب ، بل تصبح بهِ جذابة خلابة « وانا اذا ارتفعت عن الارض جذبت اليَّ الجميع »(٢) .

في عرف المعلمين الروحيين طريقتان تسميان الى التقوى والعبادة : الاولى تدعو الى الصبر والتواضع والرحمة والمحبة . وهي طريقة عقلية قلما تثير حماستنا وتضرم شواعرنا . — اما الثانية فانها ترينا يسوع صبوراً ، متواضعاً رحيماً ، وديعاً ، وتقول لنا : هكذا كان يسوع فاعملوا على مثالهِ . « تعلموا مني اني وديع ومتواضع القلب » . فتصبح الفضيلة شيئاً محسوساً ملموساً بعد ان كانت فكراً عقلياً مجرداً . وقلما اثار الفكر المجرد عاطفة . اما شخصية يسوع فتثير كامن العواطف .

قال پسكال المفكر الفرنسي الكبير : « لا عمل كبيراً الا من رغبة

---

(١) كولسي ٣ : ١٧ (٢) يوحنا ١٢ : ٣٢

كبرى». وقال ايضاً موريس باريس الشهير: «القوة الصحيحة في الرغبة المنظمة».

فاذا ما نظرنا الى يسوع، الى يسوع الانسان، يحيا ويصلي ويأكل ويشرب ويتعب ويصبر، ويضحي بكل ما لديه في سبيل غيره، ويسمو فوق المطامع، ويتنزه عن الصغائر، ويرأف بالضعفاء، ويشبع الفقراء، ويشفي اصحاب العلل الروحية والزمنية، يضطرم قلبنا شغفاً به، ونؤخذ بسحره فنتقدم على عظائم الامور حباً له.

– « ان حبك اطيب من الخمر.
ادهانك طيبة العرف.
واسمك دهن مهراق.
فلذلك احبتك العذارى »[1].

– « اجذبني وراءك فنجري.
فنبتهج بك ونفرح.
ذاكرين حبك الذي هو اطيب من الخمر »[2].

– « اجعلني كخاتم... على قلبك
فان المحبة قوية كالموت »[3].

وهكذا لا تبدو الديانة المسيحية باردة عبوساً، دأبها ان تأمر وتنهى بل تتراءى لنا طيبة خلابة جذابة، في شخص كله سحر ولطف ووداعة وايناس.

لذا قال بولس الرسول: « ليحل المسيح بالايمان في قلوبكم حتى اذا تأصلتم في المحبة تستطيعون ان تدركوا مع جميع القديسين ما العرض والطول والعلو والعمق وان تعرفوا محبة المسيح التي تفوق المعرفة. الى ان ننتهي جميعاً الى

(١) نشيد ١ : ١و٢ (٢) نشيد ١ : ٣ (٣) نشيد ٨ : ٦

وحدة الايمان ومعرفة ابن الله الى انسان كامل الى مقدار قامة ملء المسيح»[١].

وهذا ما حمل بولس الرسول على ان يضطرم حباً ليسوع، لشخصية يسوع الفريدة الخلابة حتى قال عنه فم الذهب: «قلب بولس قلب يسوع. اليس هو القائل: «اعد كل شيء خسراناً لاجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي الذي لاجله خسرت الاشياء كلها وأعدّها اقذاراً لاربح المسيح. الذي جُعلت انا خادمه على حسب موهبة نعمة الله المعطاة لي بعمل قوته. لي انا اصغر القديسين جميعاً اعطيت هذه النعمة ان ابشر في الامم بغنى المسيح الذي لا يستقصى»[٢].

وهكذا أخذ القديسون بحب يسوع واستسهلوا في سبيله كل صعب. قال القديس برنردوس: «اني وجدت قلب ملكي واخي وصديقي»[٣]. وقال ايضاً: «مهما كتبتم فلا لذة لي في قراءته الا ان اقرأ فيه اسم يسوع. يسوع هو العسل في الفم، هو النغم العذب في الاذن، هو الغبطة في القلب»[٤].

وان هذا التعلق بشخصية يسوع ليس وقفاً على اولياء الله من الرسل والقديسين، بل هو نصيب الالوف من النفوس والقلوب المسيحية نساء ورجالاً. فهذا احد الباريسيين يترنم باسم يسوع ويثمل بذكر يسوع ويقول وقد اخذته النشوة: «انتم، يا فلاسفة الدنيا، لا يمكنكم ان تفقهوا مقدار حبنا له، ولا ان تعرفوا من هو بالنسبة لنا. اننا نراه دائماً حاضراً امامنا، كأنّ يده على كتفنا. هو رفيقنا وقت العمل وسميرنا وقت الراحة. يصعد

(١) افسس ٣: ١٧-١٩ و ٤: ١٣

(٢) فيلبي ٣: ٨ وافسس ٣: ٧

(٣) ق. برنردوس: العظة ٣ في الآلام.

(٤) ق. برنردوس: العظة ١٥ على سفر النشيد.

معنا على المنابر ، ويقيم معنا في المخازن ، ويجلس معنا على المائدة ، ويحرسنا في اسرتنا . لان كل من آمن بالمسيح يحيا مع المسيح ويعيش بحضرة المسيح . بدون المسيح اين هي وما هي شياطين الشعراء ، والهامات الادباء والخطباء ، ونفائس ولذائذ الحياة! سيري سيري واذهبي ! وانتِ انتِ ايضاً ، يا لواعج الغرام البريء المقدس ، تواري . فلا الشعر ولا الحب ولا الجمال يقدر ان يثير فينا ما تثيره عواطف الحب الحقيقي القلبي لشخص يسوع المسيح »[1] .

وهذا بول فيغال ، الاديب الفرنسي الكبير ، يكتب هذه السطور الرائعة بعد ان تاب ورجع الى الله : « يا يسوع المخلص ، ايها الرسول الدائم العمل ، اني اشكرك . اضم يديّ واشكرك . بل ها انا امسك عن الكتابة وارتمي امام صورة قلبك ، والعيون ملأى بدموع ثمينة ، لأسجد لك يا مخلصي ، يا مخلصي الالهي . يا يسوع المصلوب ، يا يسوع الناهض من الاموات ، يا يسوع ابنَ مريم ، يا ملكي ، يا سيدي ، يا ابي ، يا الهي ، يا كل شيء لي ، اني احبك » .

وكتب الخطيب الشهير لاكوردير يقول: « يسوع هو اله وانسان معاً . فهو كاله لا حد لسلطانه ، وكانسان لا مثيل للطفه . فالإله يؤله الانسان ، والانسان يؤنِّس الاله . والاتحاد بينهما وثيق لا ينفصل . فلذلك نعبده عبادة لم ينلها سواه ، عبادة عذبة ، عبادة نقية ، عبادة عميقة ، لا يستطيع احد ان يسبر غورها . فهو الذي قرن العظمة بالوداعة ، والقوة باللين ، فاخرج منها رحيقاً كنا نصبو اليه ونحن نجهله . وكل من ذاق هذه الكاس ولو مرة في الحياة ، ايام الرجولة ، يعلم اني اقول الحق ، وان هذه الكاس نشوة ليس بعدها نشوة »[2] .

---

(1) Cochin: *Espérance chrétienne*, p. 339.
(2) Lacordaire: *Lettres à un jeune homme*.

ويختم الكاتب المعروف لويس ڤويو كتابه « من هنا ومن هناك »[1].
بعد ان استعرض جميع الفضائل والكمالات بقوله : « ان هذه الكمالات كلها لبست جسداً وصارت قريبة منا ، وظهرت رائعة البهاء ، ودُعيت : يسوع المسيح » .

– والانسان في كل حقبة من سني حياته يجد في شخص المسيح يسوع، جمالاً خاصاً يأسر لبّه وينعش قلبه :

فالطفل يفرح ، وهو على ذراعي والدته بان يبدأ فيتلفظ باسم يسوع . ويعمل على ارضاء يسوع . وغبطته الكبرى ، على ايام عيد الميلاد ، في ان ينصب المغارة احتفاء بولادة يسوع .

والشاب ينظر الى يسوع شاباً وينضم اليه . ويعلم ان يسوع يحب الشباب . فانه لقيَ يوماً شاباً كريماً فأحبه .

اما الرجل فيعجبه في يسوع قدرته وسلطانه ، وقوة اخلاقه ، وتأثيره على الجموع ، وعطفه على الضعفاء ، وعظمته المتواضعة القريبة من القلوب والعقول .

والشيخ الهرم يجد هو ايضاً في يسوع عكازه وآماله والركن الثابت الذي يلجأ اليه بعد ان خانته الاركان وتلاشت الدنيا ، او كادت ، من امام عينيه .

« يا اله سريري ، كن اله قبري ومصيري »[2] .

فالمسيح هو صديق الكل ، ورفيق الكل ، وفرح الكل ، واليه يجذب الكل . وهو مثال الكل . لا بل هو المثل الاعلى للكل .

---

(1) Louis Veuillot: *Çà et là*
(2) *O Dieu de mon berceau sois celui de ma tombe.* (Lamartine).

ثالثاً المسيح هو المثل الاعلى للكل .

المثل الاعلى هو اسمى ما نراه او نتخيله فنصبو اليه في الحياة . الا انه غالباً ما يكون خيالاً بعيداً لا ندري ما هي حقيقته وشأنه وكمالاته .

اما يسوع فهو المثل الاعلى، الحق المكمل الكامل، القريب من الناس، الظاهر للعيان بلحمهِ ودمهِ وكلامهِ وعملهِ . فما الفضيلة الا التشبه به . وما الكمال الانساني والكمال الروحاني الا العمل على الصعود اليه في قمته .

ان ابدع كتاب خرج من قلم انسان يُسمَّى :«كتاب الاقتداء بالمسيح». فما القداسة الا تعليم يسوع واعمال يسوع ، وما القديسون والأولياء الا من تتلمذ ليسوع . وما ابدع ما جاهر به يوماً الكاتب الكبير رينه بازان (René Bazin) في الندوة الادبية الفرنسية لما خطب في الجائزة المخصصة للفضيلة، وتكلم عن الذين شرفوا البشرية بحياتهم اذ قال : « في اعماق كل واحد من هؤلاء ارى صورة تارة واضحة وتارة باهتة ، الا انها دائماً معروفة الا وهي صورة الرب المعلم ، هذا المعلم الذي ادعوه ، وقلبي يطفح بهجة وحبوراً ، ويدعوه معي الملايين من الاحياء والربوات من الاموات : سيدنا يسوع المسيح » .

المسيح هو اروع صورة للجمال الادبي الكامل . فالقرب منه بهاء وكمال وعلوٌ في المكارم ، وعظمة نفس ، وسموٌ دائم . والابتعاد عنه انحطاط وتقهقر وانانية ومطامع ومفاسد .

فالحياة الاثيمة هي التي تخلو من يسوع .

والحياة العاديَّة هي التي فيها القليل من يسوع .

والحياة السامية هي الملأى من يسوع. « ومن امتلائهِ اخذنا نعمة »[1].

انه لا بد لنا من مثل اعلى . لان الحياة انما هي جهاد واستشهاد . وما مثلنا الاعلى الا يسوع المسيح . فهذا بولس الرسول الذي امتلأ من يسوع المسيح لا يقول فقط تشبهوا بيسوع المسيح، بل « البسوا الرب يسوع المسيح »[2] ، ولاهل فيلبي يقول: « ليكن فيكم من الافكار والاخلاق ما هو في المسيح يسوع »[3] .

فاذا ما لبس الانسان المسيح وتحلّى باخلاق المسيح تسنَّى له ان يقول على مثال بولس الرسول : « انا حيٌّ ، لا انا ، بل انما المسيح حيٌّ فيَّ »[4] .

ولماذا كل هذا ؟ لان الرب يسوع هو ، كانسان ، اسمى رجل ظهر على وجه البسيطة . هو فريد بين الانام كلهم ولا مثيل له في تاريخ البشرية[5] .

قال هارناك : « لقد اضحى المسيح الاساس الوحيد لكل مدنية ادبية . وبقدر ما تتجلّى في دنيانا صورة المسيح او تختفي ، تتقدم المدنية الادبية في الشعوب او تتأخر »[6] .

وقال جوته الفيلسوف الالماني الشهير : « ان المسيح هو المثال للناس كلهم »[7] .

— ولكن هل بوسعنا ان نحقق في حياتنا هذا المثل الاعلى ؟

نعم . بل لا بد لنا من ان نسعى الى تحقيقه .

« اني اعطيتكم قدوة حتى انكم كما صنعت انا بكم تصنعون

(١) يوحنا ١ : ١٦

(٢) رومية ١٣ : ١٤ (٣) فيلبي ٢ : ٥ (٤) غلاطية ٢ : ٢٠

(5) Strauss: *Vie de Jésus*, t. II, p. 729.
(6) Harnach: *Das Wesen des Christentums*, édit. 1908, pp. 1, 11, 78.
(7) Goeth: *Entretiens avec Eeckerman*, III[e] V., p. 371.

انتم ايضاً »[١] .

« اعطيكم وصية جديدة ان يحب بعضكم بعضاً وان يكون حبكم بعضكم لبعض كما احببتكم انا »[٢] .

فالمسيح هو مثالنا ويريد منا ان نسير في اثره :

هو مثالنا في الصلاة .

هو مثالنا في الطاعة .

هو مثالنا في احتمال الآلام وفي استقبال الموت .

هو مثال العمال ، كان عاملاً .

هو مثال الرسل ، كان رسولاً .

هو مثال الكهنة ، فهو الكاهن الاعظم .

هو مثال التعبين والثقيلي الحمل : حمل صليب الحياة الشاقة وصليب الجلجلة .

هو مثال المنتصرين الناجحين ، فهو الناهض مظفراً من القبر .

— ولكن ما هي الكمالات التي يجب ان يتحلى بها المثل الاعلى ليكون حقاً مثلاً اعلى ؟

لا بد المثل الاعلى من كمالات اربعة :

كمال العقل ،

وكمال القلب ،

وكمال الارادة ،

وكمال القداسة .

ولقد جمع يسوع في شخصه هذه الكمالات الاربعة كلها الى حدٍّ يفوق كل بغية بل كل تصوّر .

١ً — اما عقله فهو النور النقي الساطع الضياء . لا ظل فيه ولا ظلام ،

(١) يوحنا ١٣ : ١٥ (٢) يوحنا ١٣ : ٣٤

ولا تردد ولا تناقص ، ولا تخمين ولا تراجع . بل ضياء كامل شامل وثقة تامة بنفسه وبمعارفه وبتعاليمه : « وكان يعلمهم كمن له سلطان وليس ككتبتهم » (١) .

تسمعه فيسحرك تعليمه ولكنه لا يبهرك ، بل يملأك نوراً ونشوة وارتياحاً ببساطته الطبيعية رغم سموه . ان الدنيا لم تشاهد ولم تسمع معلماً ، ولا فيلسوفاً ، ولا رسولاً واثقاً من نفسه كالمسيح ، سامياً في تعليمه كالمسيح ، بسيطاً في كلامه كالمسيح بتلك البساطة الصافية التي تحمل طابع الالوهة . يعرف القلب البشري كما هو لانه هو صنعه . وينظر بعين هادئة سماوية عالية الى مقدرات البشرية والى حياة الامم والدول فيتحدث عنها كما يتحدث العامل عن عمله ، والقائم على قمة جبل عما يراه من حوله . يرى اورشليم وقد احاطت بها الاعداء ، فيبكي عليها كأنّ الجيوش الرومانية قد احاطت بها وبدأت تهاجمها . يرى الشعوب تثور على بعضها ، والدنيا تتلاشى ، والبشرية تجتمع عند قدميه في مشهد رائع عظيم مخيف لتسمع حكمه النهائي عليها بالسعادة او بالشقاء الى الابد . فيصف ذلك بكلام جمع الروعة العميقة الى البساطة النادرة .

٢ً — اما القلب ، قلب يسوع ، فهو الطيِّب الذي يعطر الدنيا ويملأها حناناً ورحمة . لا يأنف من القلوب القذرة وهو النقاوة السماوية ، ولا يشمئز من النفوس العاديّة وهو ينبوع النبل والسخاء والشرف ، ولا يستحقر الهمم الضعيفة وهو الرفيع القوي . عاش مع الخطأة ولم يستطع ألدُّ اعدائه ان يدلوا عليه بهفوة . لقد هاجموه في كل شيء الا في نقاوة قلبه وطهارة حياته .

وهذا القلب المثالي كم صنع قلوباً شبيهةً به . هو الذي ابدع قلوب العذارى النقية ، وقلوب الرهبان والراهبات الملائكية ، وقلوب الملايين من

(١) مرقس ١ : ٢٢

المسيحيين والمسيحيات الذين بنقاوة سيرتهم وبهاء حياتهم ، كانوا وبقوا شرفاً ومجداً للبشرية .

٣ – واذا ذكرنا الارادة في يسوع تراءت لنا تلك القوة الجبارة التي لا يعتريها وهن ولا ضعف ولا تقلقل ولا تلوّن . فهي القوية الوديعة . تبقى هادئة امام الانتصار ، امام حماسة وهتاف الجماهير يوم الشعانين ، ويوم ارادوا ان ينادوا به ملكاً عليهم . وهي الصبور على النقائص والمطامع في تلاميذه ، وعلى الشراسة والاحقاد في اعدائه . وهي الصامتة الكريمة الجليدة امام الوثاق والبصاق واللطم والسياط ، واكليل الشوك والقصبة ، والسخرية والشتيمة ، والمسامير والصليب ، والتهكم وهزّ الرؤوس ، وقهقهة التشفي وكبرياء الانتصار .

فالبشرية لم تسجّل في تاريخها ارادة جبارة وديعة ، قوية هادئة ، صافية رائعة مثل ارادة يسوع .

فيسوع هو حقاً الانسان المثالي ، الأوحد البهي الجمال ، الفائق النقاء ، الكامل الكمالات ، اجمل زهرة واشهى ثمرة خرجت من جذع البشرية . بل هو الريحانة الوحيدة والزنبقة الفريدة الكاملة الحسن والبهاء .

٤ – واذا ما تأملنا قداسته ، قداسة حياته ، وقداسة تعليمه ، وقداسة اعماله ، نراه القدوس الذي عنده تنتهي كل نقاوة وكل طهارة وكل كمال للنفس ، وكل اشراق الفضيلة ، الهية وادبية .

من يستطيع ان يضاهيه او ان يقاربه في قداسته . انك لا تجد قديساً ولا نبياً ولا رسولاً ولا عذراء – ما عدا مريم البتول – الا وقد اخطأ امام العلي . اليس ان بولس الرسول ذاته يقول عن نفسه انه اول الخطأة ، وهو النار المتقدة غيرة رسولية . اما يسوع المسيح فانه يتحدّى اعداءه ويقول :

« من منكم يقدر ان يثبت عليَّ خطيئة » [1] .

سنين عديدة قضاها يسوع في الناصرة ، وحضر العرس في قانا الجليل ، وطاف في كل المدن والقرى حتى تخوم صور وصيدا ، وجالس الخطأة واكل معهم ، وترك المجدلية تقبل قدميه ودموع الندامة والحب تفيض من عينيها ومن شعرها ، وجلس على البئر يحادث السامرية ، ودافع عن الزانية ، ودعا الاولاد اليه وقام يعانقهم ويقبلهم ، ورغم ذلك كله استطاع ان يتحدى اعداءه ويقول لهم : « من منكم يقدر ان يثبت عليَّ خطيئة » . وما ذلك الا لانه القدوس ، ينبوع كل طهر ، بل القداسة المتجسدة ذاتها .

وهذه القداسة اعطاها مثالاً للدنيا لتنسج على منوالها . هل ذكر التاريخ يوماً رجلاً جعل قداسته اساساً للديانة التي يبشر بها ؟ يسوع المسيح هو وحده هذا الرجل .

وقداسة المسيح ليست سلبية، بل هي القداسة الايجابية العملية الكبرى. هي مجموعة الفضائل والاخلاق الكاملة السماوية والارضية . فهو سماء فسيحة كل فضيلة نجمة متألقة فيها . فلا تزاحم فضيلةٌ فضيلةً ، ولا تتنافى معها ، ولو كانت من اضدادها . كان يسوع رصيناً وكان حنوناً . كان متقشفاً صواماً وكان يحضر الولائم والاعراس . كان العفاف المشرق وكان يجالس الخطأة بل يسعى وراءهم ليشفي نفوسهم واجسادهم .

هذا هو يسوع . هذا هو الاله . هذا هو الانسان ، مثال البشرية ، ومجد البشرية ، ومخلص البشرية .

وهذا هو عمله في النفوس : عمل توحيد الجهود ، عمل جذب القلوب ، عمل اعطاء المثل الاعلى في الكمالات والفضائل والاخلاق .

(١) يوحنا ٨ : ٤٦

الباب الاول

في الفضائل المسيحية الادبية

الفصل الاول

في فضيلة الفطنة

سيتناول بحثنا :

اولاً – ماهية فضيلة الفطنة وقوامها .

ثانياً – ضرورة ممارسة افعالها .

ثالثاً – الوسائل التي من شأنها ان تزيدها نمواً وكمالاً .

البحث الاول

ماهية فضيلة الفطنة وقوامها

١ – بيانها . – الفطنة هي فضيلة ادبية مسيحية ، فائقة الطبيعة ، تحمل قوانا العقلية في مختلف ظروف الحياة على اختيار افضل الوسائل للوصول الى ما نرغب فيه من المطالب الحسنة ، جاعلين هدفنا الاكبر تمجيد الله لكونه غايتنا القصوى السامية .

فالفطنة المسيحية هي غير فطنة الجسد الدنيوية الدنيئة ، فطنة الخبث والمطامع الارضية ؛ كما ان الفطنة المسيحية ايضاً هي غير الفطنة المحضة البشرية ، فطنة الانانية والمصلحة الذاتية .

فان فطنة الجسد تبحث بكل قواها عن الوسائل التي توصلها الى مطامعها و كبريائها وملذاتها واهوائها لكي تشبعها . فهي عدوة الله والناس معاً . « فان فطنة الجسد موت وفطنة الروح حياة وسلام . لان فطنة الجسد عداوة لله »[١] .

والفطنة المحضة البشرية هي ايضاً غير الفطنة المسيحية ، لان هدفها خير ارضي مجرد عن الغاية السماوية . فالصانع الفطن مثلاً يتبصر في امور صناعته كيف يحذقها ؛ والتاجر ينظر في طرق تجارته كيف يستغلها ؛ والفنان الشاعر او الرسام او الموسيقي يسعى في اعمال فكرته كيف يصل بفنه وعبقريته الى الشهرة ومكاسبها وامجادها . فكل واحد من هؤلاء ينشد غاية زمنية بشرية ، ويسعى اليها بكل ما اوتيه من ذكاء وقوة ، ولا يفطن الى الغاية الصحيحة الكبرى السماوية . ففطنة هؤلاء هي فطنة بشرية ارضية حقيرة ، وهي غير الفطنة المسيحية . والسواد الاعظم من الناس يرمي اليها متناسين او غير مدركين قول الرب ان « ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه »[٢] .

(١) رومية ٨ : ٦ و ٧ (٢) متى ١٦ : ٢٦

اما الفطنة المسيحية فهي التي تستنير بانوار الايمان ، وتعتمد على تعاليم الانجيل في البحث عن الوسائل التي توصلها الى ما تريده من الرغائب ، وتجعل الله غايتها الاخيرة في كل ما تصبو اليه وتستخدمه من المطالب والوسائط ، إن في امور الدين او في امور الدنيا . فتدير نحو الله دفة افكارنا وعواطفنا ورغباتنا واعمالنا وتجارتنا وصناعتنا ، ومعاملتنا مع الناس ، وحياتنا في بيتنا . وتبحث في الانجيل عما رسمه السيد المسيح من منهاج الحياة فتتبعهُ ، وتجعل خطاب المعلم الالهي على الجبل دستور الحياة العملي لكل يوم ولكل حالة ، فتسير على ضوئه . ثم تنظر في حياة القديسين والانام الصالحين كيف استعملوا الدنيا ، فتنسج على منوالهم ؛ وتصغي الى تعاليم الكنيسة وارشاداتها ، فتعمل بها . وهكذا لا يمكن ان تعثر ولا ان تضلَّ . وفوق ذلك فهي تدفعنا الى استعمال الصلاة وقبول الاسرار فيكون الفَلاح حليفنا في دنيانا وفي آخرتنا .

٢ – قوامها . – تقوم الفطنة المسيحية بامور ثلاثة : بتفكير رصين ، وتقرير قويم ، وتنفيذ حازم .

فالانسان المسيحي الفطن يفكر برصانةٍ تفكيراً جدياً في اموره وطرقه و كيفية تطبيق تعاليم المسيح في حياتهِ . فيستفيد اولاً من خبرة الاجيال السالفة ، ثم من خبرتهِ الذاتية . فيحذر

السقوط في اخطاء واغلاط من سبقوه ، ويتنبّه الى ما استسلم هو ايضاً اليه من الشطط والزلل باندفاعهِ وتهوره . ثم ينظر بعين ثاقبة الى المستقبل فيزن قوّته ومؤهلاتهِ بميزان التواضع والثقة بالله ، ويأخذ الحيطة لنفسهِ من اهوائه الذاتية واميالهِ المنحرفة ؛ واذا تمّ له ذلك يقرر خطته في اعمالهِ واشغاله ومختلف اطوار حياتهِ .

فاذا ما اردت ان تستعمل الفطنة في ممارسة فضيلة الطهارة مثلاً ، فاذكر ما استخدمه القديسون والانام الصالحون من شتى الوسائل لحفظ نضارة زنبقتها ؛ واعد الى فكرك ذكر الاخطار التي استهدفوا لها ، والتجارب التي هاجمتهم وكيف صمدوا لها او لماذا لم يصمدوا لها ؛ وانظر فيما يُحيط بك من ظروف الزمان والمكان والانسان ، فتأخذ الحيطة لنفسك لكي تحافظ على جوهرة طهارتك وتحميها من العدوان ، فتبقى نقية بهية في كل حين .

ويساعدنا على التفكير الرصين استشاراتنا رؤساءنا ومعلمينا واصدقاءنا واهلنا اذا كانوا من رجال الخير والصلاح . وربما وجدنا نصيحةً حسنةً احياناً لدى من هم دوننا سناً وثقافة وقدراً ومكانة اجتماعية ، فلا نأنف من ان نقتبسها من افواههم وقلوبهم بوداعةٍ وتواضع ، فانها كثيراً ما تفيدنا في مواقف الحياة ، وتخدمنا في

حلّ العقد المستعصية، والمشاكل الخطيرة. ولا يسهو عن بالنا ان المشورة من الروح القدس.

اما خير الوسائط الفعالة التي تعيننا في حسن تفكيرنا، قبل ان نُقْدِمَ على عمل من اعمالنا فهي الصلاة والابتهال الى الروح القدس، روح المعرفة والفهم، روح الحكمة والتعزية؛ ثم النظر الى يسوع والى امهِ الطاهرة، والتوسل اليهما لكي يلهمانا الى ما به خيرنا وصلاحنا وتمجيد الله في حياتنا واعمالنا. اليس هو الكلمة الازلية؟ اليست امه هي «خزانة حكمة الله»[1]؟ فان الصلاة مراراً كثيرة تبعث للحال في عقولنا ضياء يعسر علينا ان نصل اليه ولو بعد ساعات طويلة من التفكير.

وبعد التفكير الرصين المؤسّس على التامل والمشورة والصلاة، يأتي دور الاعتماد على رأي صائب، اي تقرير ما ينبغي عمله. ولكي ننجو من الغلط علينا ان نحذر الاستسلام الى أهوائنا وعواطفنا ومطامعنا، بل نرفع انظارنا وقلوبنا الى السيد المسيح ونذكر عواقبنا الاخيرة؛ وعلى ضوء هذه الشموس النيرة نقرر منهاج عملنا بلا تردد ولا وجل، لاسيا في الامور الكبيرة والمواقف الخطيرة. هكذا كان يفعل رجال الله القديسون ويقولون: « Quid hoc ad æternitatem » «ما نفع هذا للابدية»؟ ولا ريب

(١) اكاثسطون، بيت ١٧

انهم دَنوا من ائمَّة الناس عقلاً وثقافة ومنطقاً وفطنة. وعلى مثالهم نسائل ذواتنا : الى اين يقودنا هذا العمل او ذاك ، أإلى الله ام الى خدمة ذواتنا وشهواتنا .

فاذا فعلنا هذا لا نضل ، وان ضللنا لا نؤاخذ ، لاننا نكون قد اعتمدنا في تفكيرنا وفي تقريرنا على افضل الوسائط الالهية والبشرية معاً ؛ فلا لوم علينا امام الله ولا امام الناس ، ولا امام انفسنا .

علينا اخيراً بالتنفيذ لانه هو المطلوب ، وهو ثمرة التفكير والتقرير ، فبعد التفكير الرصين المشبع بروح الايمان ، وبعد الاعتماد على خطةٍ للعمل ، يلزم ان لا نتردد في التنفيذ ، ولكن بتؤدة ورزانة وحكمة ، بلا تهوّر ولا عنف ولا تصلُّب ولا عناد . لانه لا بد من المرونة في تسيير الامور البشرية التي غالباً ما تكون عرضة للمفاجآت الغير المنتظرة ، وللمصاعب الغير المعهودة . ولكن حتى في مثل هذه الظروف الاستثنائية الحرجة يبقى طريق النجاة من التهور مفتوحاً امامنا ، وذلك بواسطة الصلاة والاستشارة والصبر والثبات .

٣ — انواعها . — الفطنة انواع منوعة حسب الغاية التي ترمي اليها . فهي شخصية حينما تنظر في امور الناس كل بمفرده ، وهي اجتماعية عندما يكون هدفها مقدرات الجماعات الكبيرة

او الصغيرة ، نظير العائلة والمدينة والمقاطعة والدولة ، او الجماعات الدينية والادبية والخيرية والثقافية والتجارية وما يشابهها . فعلى كل انسان مسيحي في خصوصياته ، وكل رب عائلة في عائلته ، وكل رئيس في رئاسته ان يستعمل الفطنة المسيحية في حياته وفي قيادته ، فهي المصباح الذي يقي من المعاثر ، ويقود بامان في الطريق القويم . اما الطيش والتهور والخفة فهي طريق الدمار المنحدرة الى الجحيم .

البحث الثاني

ضرورة فضيلة الفطنة

ان افتقارنا الى فضيلة الفطنة لهو حقاً من الامور الضرورية ، ان في حياتنا الفردية ، وان في حياتنا الاجتماعية .

اما في حياتنا الفردية فان الفطنة المسيحية تنير اذهاننا فترينا مخاطر المعاصي لنبتعد عنها وفوائد الفضائل لنُقدم على ممارستها .

اما المعاصي فان اجتنابها والانتصار على التجارب الداعية اليها لا يتمُّ لنا الا اذا عرفنا اسبابها ومواقعها واضرارها وادواءها . فليس كالفطنة ترشدنا الى مثل ذلك ، فتنير عقولنا وترينا شرها ، فنسارع الى اتقائها .

واما الفضائل فالفطنة هي لها بمثابة القائد للجيش المحارب . فهي العين الساهرة ، والرقيبة المتطلعة الى آفاق حياتنا ، فترى وترينا خير السبيل ؛ وهكذا تسهّل لنا المصاعب فندرأ عنا وطأتها ؛ وترفع امامنا الستار عن جمال الفضائل ومنافعها فنقدم على ممارستها . فلا قوام لفضيلة من الفضائل الالهية والادبية الا بها .

فهي التي تنظر فيما يهدد فضيلة الايمان من الاخطار فتحملنا على درئها والهرب منها ؛ وهي التي تسهر على حفظ التوازن ما بين ما يحق لنا من الثقة بالله وما يتوجب علينا من الخوف من احكامهِ الرهيبة ؛ وهي التي تقودنا في الطريق الوسط ما بين الطمع برحمتهِ تعالى واليأس من خلاصنا ؛ وهي التي بنوع اخص تنظم فينا اعمال فضيلة المحبة وافعال الرحمة فتقف حائلًا دون الافراط والتفريط في كل مناسبة من مناسبات حياتنا .

ونشعر بالاكثر بضرورتها في القيام باعمال بعض الفضائل التي تتراءى لنا كأنها في خلاف مع بعضها : نظير العدل مع الرحمة ، والقوة مع الوداعة ، ومباشرة التقشف مع واجب حفظ الصحة ، والمروءة في خدمتنا للقريب مع صون عفاف قلوبنا واجسامنا ، وتعاطي اعمال الحياة الداخلية الروحية مع الانهماك بشتى الاشغال الخارجية . فالفطنة هي التي تنظم التوفيق بين اعمال هذه الفضائل فلا تعارض بعضها بعضاً ، ولا تزاحم بعضها بعضاً .

واما في حياتنا الاجتماعية فالفطنة يجب ان يكون لها المقام الرفيع الاول . فهي رئيسة الفضائل وفضيلة الرؤساء : «ان كثرة الحكماء خلاص العالم ، والملك الفطن ثبات الشعب»[١]. ولما تجلى الرب للملك سليمان في جبعون في الحلم[٢] ، وخيّره في ان يطلب من المواهب ما يريد ، اجابه سليمان وقال : « ايها الرب الهي انت ملّكتَ عبدكَ مكان داود ابي ، وانا غلام صغير السن لا أعرف ان أخرُج وادخل . وعبدُكَ فيما بين شعبك الذي اخترته شعبٍ عظيم لا يحصى ولا يُعدّ لكثرتهِ . فهَبْ عبدكَ قلباً فَهِماً ليحكم بين شعبك ويميّزَ بين الخير والشر . . . فحسن الكلام في عيني الرب . . . فقال له الله بما : انك سألت هذا الامر ولم تسأل اياماً كثيرة، ولا سألت لنفسك الغنى ، ولم تطلب نفوس اعدائك ، بل سألت لنفسك تمييزاً لتفقه الحكم ، فهاءنذا قد فعلت بحسب كلامك . هاءنذا قد اعطيتُك قلباً حكيماً فهِماً . . . وايضاً ما لم تسله قد اعطيتُك اياه ، الغنى والمجد ، حتى لا يكون رجل مثلك في الملوكِ كل ايامك » . فالحكمة هي مجلبة الخيرات كلها . هي للرئيس مصباحُه وضياؤه ومجلس مشورتهِ ورئيسة فضائلهِ . « الحكمة خير من القوة والحكيم افضل من الجبار »[٣].

وقد قيل : الرأيُ قبل شجاعة الشجعانِ .

---

(١) حكمة ٦ : ٢٦ (٢) ٣ ملوك ٣ : ٥ — ١٥ (٣) حكمة ٦ : ١

وفضيلة الفطنة هي على الاخص رفيقة الكاهن في خدماته الروحية والزمنية . فهي التي توحي اليه في مواقفه الخطابية الكنسية ما تقضي المجاهرة به ، وما لا يحسن ذكره ، وما لا ينبغي الا التلميح اليه . وهي ميزانه في تعاليمه وارشاداته للكبار والصغار ، وللنساء وللرجال ، ولكل فئةٍ من الناس . وهي التي يجب ان تتحكم في كل حركة من حركاته ، وفي كل كلمة من كلماتهِ لدى زيارته للرعية ، لكي لا يتسرَّب الى الاذهان ولا ظلُّ الشك في سيرتهِ وسريرتهِ . وهي التي تجلس معه في منبر الاعتراف فترشده الى افضل ما يكون من حسن القيام بواجباته كأب عطوف ، ومعلم عالم ، وطبيب حاذق . وهي التي تكون عوناً له في توزيعه الاسرار على المؤمنين ، والقيام بحفلات العمادات ، والمناولات الاولى ، والاكاليل ، والجنانيز ، فترشده الى حسن التوفيق ما بين القوانين الكنسية المفروضة وبين مطالب بعض الناس ، وتطرُّفهم احياناً في رغائبهم من حب الظهور ، والعجرفة الباطلة ، والمطامع المَستَّرة الظاهرة .

وهكذا قُل في ادارة الاوقاف ، وفرض الرسوم الكنسية ، وجباية الاموال لتغذية الاعمال الخيرية . كل ذلك يلزمه فطنة ودراية وتفكير ومرونة ورصانة ، لكي لا تتسرب الشكوك الى اذهان الناس ؛ فيبقى الكاهن بعيداً عن الشبهات ، وبذلك يمجد الله .

البحث الثالث

الوسائل التي من شأنها ان تزيد فضيلة الفطنة نمواً وكمالاً

ان الوسيلة الاولى والكبرى التي من شأنها ان تزيد فضيلة الفطنة نمواً وكمالاً هي الصلاة. وبها تتغذى الفضائل كلها وتزهو وتزهر. لان كل عطية صالحة وكل موهبة كاملة تنحدر من لدن ابي الانوار.

والوسيلة الثانية التي بها تتقدم الفطنة وترتقي هي حرصنا على ان لا نقصد الا وجه الله في كل عمل من اعمالنا، وان يكون حكمنا في هذه الاعمال، في حسنها وسوئها، وخيرها وشرها، على ضوء هذا النور الكبير، نور طلبنا وجه الله في مختلف امور حياتنا. وهذا ما يوصي به بولس الرسول اذ يقول: « ومهما اخذتم فيه من قولٍ او فعلٍ فليكن الكل باسم الرب يسوع المسيح شاكرين به لله الآب »[1]. وهو ما يرشد اليه ايضاً القديس اغناطيوس في رأس العمليات الروحية التي تفرّد في طريقة وضعها.

ولكي يسهل علينا ايضاً وضع هذا التعليم موضع العمل يمكننا ان نعتمد على آية من آيات الحكمة التي جعلها بعض

(١) كولسي ٣ : ١٧

القديسين نبراساً لهم يسترشدون بها في بدء كل عملٍ من أعمالهم فتنير سبيلهم . نظير هذه الآيات :

ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه (١) .

ما نفع هذا للابدية . Quid hoc ad æternitatem

كل ما هو ليس ابدياً ليس شيئاً .

فاذا ما تشبَّعنا من هذه المبادىء الاساسية الكبرى سهل علينا الحكم في امور الحياة مهما تقلبت وتعددت وتنوعت ، ويكون حكمنا فيها بفطنة وحسن دراية .

***

فلننظر الآن في كل فئةٍ من المؤمنين كيف يغذون فضيلة الفطنة ، وكيف يصعدون بها سلّم الكمال .

فمن كان منهم في الدرجة الاولى من الحياة الروحية عليه ان يجاهد لكي يتحرّز من النقائص التي تَعيبُ فضيلة الفطنة ، وتعيقه في سلامة الرأي وصوابية الحكم في امور الحياة .

فعليه ان يقاوم « فطنة الجسد » التي انما تسعى وراء « شهوة الجسد ، وشهوة العين ، وفخر الحياة » (٢) . ولا يتمُّ له ذلك الا باستعمال انواع الاماتة والتقشف ، متسلحاً بالمبادىء المسيحية الاساسية التي ذكرناها ، ومردداً في ذهنه قول الرسول : « ان

---

(١) متى ١٦ : ٢٦ (٢) ١ يوحنا ٢ : ١٦

فطنة الجسد هي موت وفطنة الروح هي حياة وسلام »[1] .

وعليه ان يحاذر الطرق الملتوية، والحيل الخداعة ، والسياسة الكاذبة التي يظن الكثيرون في طيشهم انها خير ما يعتمدون عليه للنجاح في مقاصدهم . فينسون ان الكذب ممقوت عند الله والناس ، وان عاقبته الدمار ، وان الغاية لا يُمكن ان تشفع بالواسطة وتبررها ، وان مَن يُحسن سريرتَهُ يحسن الله علانيته . ألا يقول لنا الانجيل : « كونوا حكماء كالحيات وودعاء كالحمام »[2] . فعلى المسيحي الحقيقي ان يكون شهماً شريفاً في اقواله وافعاله ؛ وان يكون سليم الطويّة في معاملاته مع قريبهِ .

والفطنة تقضي بان لا نستسلم لأوهامنا واميالنا واهوائنا . فالاوهام هي اعداء الفطنة ومن الموانع الكبرى التي تحول دون تقدمنا في الكمال المسيحي . لانها تتسلط على عقولنا ، وتضيّق الخناق على ارادتنا ، فنفقد حرية التفكّر ومعها حرية العمل . وكذلك الاهواء ، فهي امراض نفسية تُظلِم العقل ، وتبعث فينا روح الكبرياء والعجب ، فتبعدنا عن محجة الصواب ، وتجعلنا نتيه في الضلال، وتندفع وراء الملذات الارضية والمطامع البشرية، فننسى غايتنا السامية وننبذ وراء ظهرنا وصية الرب : « اطلبوا اولاً ملكوت الله وبره »[3] .

---

(١) رومية ٨ : ٦ (٢) متى ١٠ : ١٦ (٣) لوقا ١٢ : ٣١

وعلى المسيحي الذي بدأ يسير في طريق الكمال ان يتحاشى الخفة والتسرُّع والتهور في اقواله وافعاله ؛ وان يتعوَّد التأمل والتفكير قبل العمل ؛ وان يزن اسباب عمله ونتائجه بميزان الايمان ، فلا يقدم على امر خطير الا بعد ان يتثبَّت من صلاحيتهِ ومن موافقته لمبادئ الانجيل وللغاية القصوى السامية التي لاجلها خلقهُ الله تعالى . واذا ما اشكل عليه الامر فليسترشد برأي مرشد حكيم فطن . وهكذا يعتاد ان يسلك دائماً بحسب المبادئ المسيحية السماوية .

ومن الناس من يتخذون جميع الوسائط اللازمة لانارة طريقهم في اعمالهم . فيستعملون الصلاة والتفكير والمشورة ، وتظهر لهم صوابية عملهم . ولكنهم عند التنفيذ يحجمون عن العمل بداعي الخوف او التردد او الوسواس . فالفطنة المسيحية تقضي اذ ذاك بان يلتجئ مثل هؤلاء الى مرشد عاقل يدفعهم الى العمل ، فيسيرون حسب نصائحه وارشاداته .

اما المؤمنون المتقدمون في الكمال المسيحي والذين وصلوا الى الدرجة الثانية منه فاضحت الفضائل لهم عادات مستحبة ، فانهم يمارسون اعمال فضيلة الفطنة على انواع ثلاثة :

يبحثون اولاً كل يوم في الانجيل عما قاله وعما فعله الرب يسوع في حياته الخفية والعلنية فيتخذونه قاعدة لهم في اعمالهم

ودستوراً في حياتهم . لان هذا المعلم الالهي والمشترع السماوي يتراءى لهم بكل ما في حياته من جمال وكمال وفضيلة وعاطفة ، وعلى الاخص من فطنة سامية سماوية . وتتجلى لهم فضائله بكل بهائها واشراقها : تواضعه العجيب ، وطاعته الكاملة ، وفقره المدهش ، في ايام حداثتهِ ، ثم في ايام ظهوره : حنانه مع الصغار ، ورحمته مع المرضى والخطأة ، وصبره مع قليلي الفهم ومنكري الجميل ، وشجاعته امام نفاق و كبرياء بعض الرؤساء من الفريسيين ومعلمي الناموس ، وتنازله في معاشرته لرسله البسطاء ، الغير المثقفين الذين رغم قربهم منه ، ونظرهم الى عواطفهِ وتجرده ، ونبل مقاصده ، ورفعة امياله ، بقوا صغيري النفوس ماديين مستسلمين لمطامعهم الزمنية الحقيرة . فهل اجمل من هذه الدروس ، وهل اوقع منها في النفوس .

ثم يروضون ذواتهم على الرصانة وعادة التامل والتفكير ، وعلى الاسترشاد بآراء المعلمين الروحيين ، وبامثال رجال الله القديسين . ويعملون على اكتساب روح الحزم ؛ ويحتاطون للطوارئ المفاجئة ؛ ويتبصرون في امورهم بتؤدة وروية ؛ ويلجأون على الاكثر الى الصلاة في بدء كل تفكير ، وعند كل تنفيذ . فتتم لهم هذه الفضيلة الرئيسية الاولى .

واخيراً يتخذون ما قاله القديس يعقوب في فضيلة الفطنة

دستوراً لهم في ممارستهم اعمال هذه الفضيلة السامية الرئيسية. قال القديس يعقوب في رسالته [١] : «هل فيكم ذو حكمة ودراية فليبدِ اعماله من حسن تصرفهِ بوداعة الحكمة».

ثم يتكلم عن الفطنة الكاذبة فيقول :

« فاما ان كنتم ذوي غيرة مرة ومنازعة في قلوبكم فلا تفتخروا ولا تكذبوا على الحق. ليست هذه الحكمة نازلة من فوق بل هي ارضية حيوانية شيطانية.»

اما الفطنة الحقيقية فيقول عنها :

« اما الحكمة التي من فوق فانها اولاً عفيفة.» لان العفاف يجرد الانسان عن الاهواء والشهوات فتضيء له انوار السماء : « طوبى للانقياء القلوب فانهم يعاينون الله » [٢].

وهي « مسالمة » : فالسلام هو خير الوسائل لحسن التأمل والتفكير الداخلي، والله هو اله سلام وليس اله تشويش واضطراب.

وهي « حليمة سهلة الانقياد مملوءة رحمة واعمالاً صالحة لا تدين ولا تراءي ».

اما الكاملون من المسيحيين الذين وصلوا الى درجة الترفع التام عن المآثم والمطامع، وصارت الفضائل فيهم ملكات مستقرة ثابتة، فانهم يمارسون فضيلة الفطنة بنوعٍ كامل سامٍ، بفعل

(١) يعقوب ٣ : ١٣ — ١٧ (٢) متى ٥ : ٨

« موهبة المشورة الصالحة » التي يمنحها الروح القدس للنفوس المتكملة في الفضيلة .

فموهبة المشورة الصالحة هي التي تجعلنا نحكم فيما ينبغي لنا عمله او تركه من الامور ، لاسيما الصعبة والخطيرة ، وذلك بنوع سريع وبصيرة نيّرة صادقة كأنّ الالهام الالهي يوحي الينا طريقة عملنا ويقودنا بيدنا .

ان الروح القدس كثيراً ما يتكلم في داخل المؤمنين الذين تعودوا ان ينصتوا الى كلامهِ والهاماتهِ ، ويهديهم الى ما يجب ان يقولوه او يفعلوه او يحكموا فيه في مختلف مواقف حياتهم ووظائفهم ، لاسيما اذا ما تعقدت الامور واستعصى على الناس حلها . وما ابدع ما جاء في سفر الحكمة في هذا المعنى [1] :

« حينئذٍ تمنّيت فأُوتيت الفطنة ، ودعوت فحلّ عليّ روح الحكمة . ففضلتها على الصوالجة والعروش ، ولم احسب الغنى شيئاً بالقياس اليها ، ولم اعدل بها الحجر الكريم . لان جميع الذهب بازائها قليل من الرمل ، والفضة عندها تحسب طيناً . واحببتها فوق العافية والجمال واتخذتها لي نوراً لان ضوءها لا يغرب . فأُوتيت معها كل صنفٍ من الخير ونلت من يديها غنى لا يُحصى ... لانها ضياء النور الازلي ومرآة عمل الله النقية وصورة جلاله ... وفي

(١) حكمة ٧ : ٧-١١ و٢٦ و٢٧

كل جيل تحلّ في النفوس القديسة فتنشئ احباء لله وانبياء » .

ألم يقل الرب يسوع لرسلهِ واصفيائهِ : « فاذا اسلموكم فلا تهتموا كيف او بماذا تتكلمون ، فانكم ستُعطون في تلك الساعة ما تتكلمون بهِ . لانكم لستم انتم المتكلمين لكن روح ابيكم هو المتكلم فيكم » [١] .

ولقد رأينا هذا الوعد قد صدق بالفعل في حياة الرسل والكثيرين من القديسين . اولهم القديس بطرس . لان هذا الصياد المسكين ، بعد ان حلَّ عليه الروح القدس وملأه من مواهبه ، وقف خطيباً بلا وَجل امام محفل اليهود العظيم . ولما سمعهم يتهددونه ويتوعدونه ان هو عاد الى التبشير باسم يسوع ، اجابهم لفوره بثبات وصدق عزيمة : « ان الله احق من الناس بان يطاع » [٢] .

وان سِيَرَ القديسين لهي ملأى بامثال كهذه . وهي تعد من الخوارق ، لان مصدرها هو الروح القدس ، يكافئ بها اصفياءه ويمكّنهم من حسن تسيير امورهم ، ومن خدمة الناس ومنفعتهم حباً واكراماً لله عز وجل .

فالقديس انطونيوس الكبير كان ملهماً من الله في ادارة وارشاد ألوف الرهبان الذين كانوا يأتونه طالبين ارشاده ، وراغبين

---

(١) متى ١٠ : ١٩ و٢٠ (٢) اعمال ٥ : ٢٩

في حياة النسك تحت يده . فكان يسهِّل لهم مصاعبهم ، ويزيل احزانهم ، ويقرأ في قلوبهم مخاوفهم وافكارهم ، ويحلّ لهم مشاكلهم .

والقديسة كاترينا السيانية كانت رغم حداثة سنها وجهلها للعلوم البشرية ، بصيرة في الامور الخطيرة ، الى حد ان الباباوات والكرادلة والامراء والعظماء والاساقفة ورؤساء الاديار كانوا يطلبون رأيها في معضلات الامور ويسترشدون بقولها في شدائد تلك الايام العصيبة التي عاشت فيها ، ايام الحروب والفتن والاضطرابات الدينية والسياسية في القرن الرابع عشر .

ومن ينكر على جان دارك نظرها السماوي في عملها الارضي . حتى ان هذه الابنة القروية البسيطة التي قضت حداثتها في رعاية الاغنام صارت تضع رسم المواقع الحربية كأمهر القواد المخرجين في المدارس العليا العسكرية . ولما كانوا احياناً ينكرون عليها خططها كانت تجيبهم بحزم وثبات : لكم مشورتكم ولي مشورتي .

ولقد بقيت حياة الكاهن القديس يوحنا فياني خوري أرس بفرنسا ، معجزة من المعجزات الالهية . فان هذا الكاهن البار ، بعد ان كاد يُطرد من المدرسة الاكليريكية لِما كان يجده من المشقة والصعوبة في حفظ العلوم اللاهوتية ، اضحى بقداسته نوراً ساطعاً في آفاق فرنسا ، ومرشداً مصيباً للالوف من كل طبقات الشعب المثقف في زمانه . فلم يبقَ اسقف ولا امير ولا كاهن

ولا رئيس ولا غني ولا فقير الا ذهب اليه وطلب ارشاده ، وعاد مبهوتاً من فهمهِ ، وسداد رأيه ، وصوابية نصائحهِ .

فوهبة المشورة الصالحة التي يفيضها الروح القدس في اذهان مختاريهِ واصفيائهِ وبها يتمم لهم فضيلة الفطنة ، تبعث النور في اذهانهم ، وترسل الضياء في بصائرهم ، فيرون الرأي السديد في امورهم وامور غيرهم .

اما ضرورة المشورة الصالحة فهي لجميع المؤمنين على مختلف حالاتهم ، وظروف وظائفهم ، وعلى الاخص لِمَا يأتي عليهم في حياتهم من مواقف صعبة وساعات خطيرة . نظير توجيه الحياة مثلاً يميناً او شمالاً : هل نسلك طريق البتولية ام الزواج ؛ هل نختار السلك العسكري ام السلك المدني ، في التجارة ام في الصناعة ، في المهن الحرة ام في الوظائف الحكومية ؟ .. وقس على ذلك من الحالات التي لا تقع تحت حصر . فهذا كله لا بد له من فطنة كبرى ، وفوق الفطنة ، لا بد له من موهبة المشورة الصالحة لكي لا نضلّ في اختيارنا ، ولا نعرّض آخرتنا وابديتنا . لان مداركنا ضعيفة ، وحكمتنا قليلة ، وهمتنا بطيئة ، ولا نزال عرضة لفقدان طريق الرشاد [1] .

---

(1) *« Sed quia humana ratio non potest comprehendere singularia contingentia quae occurrere possunt, fit quod « cogitationes mortalium sint timidae et incertae providentiae nostrae »* (Sap. IX,14). *Et ideo indiget homo in inquisitione consilii dirigi a Deo qui omnia*

ولقد قال احد الكتبة الروحيين : ان العقل المستنير بموهبة المشورة الصالحة تكون لديه قوة التمييز الصحيح فيما يجب عليه ان يعتمده من الامور ، ويرى طريقه بوضوح وجلاء ، ويسير فيه بثبات وطمأنينة ، ولا يخاف ما يعترضه من المصاعب والمتاعب ، ويعرف متى يحين الوقت المناسب للعمل وللنجاح (١) .

اما اذا حُرمنا هذه الموهبة السامية « فتظلم افكارنا ، وتعمى بصائرنا ، ونضل السبيل في سعينا وراء رغائبنا ، ونتهوّر في مقاصدنا ، ونستسلم للخفة في اقوالنا ، ونجازف في افعالنا » (٢) .

والحاجة الكبرى الى موهبة المشورة الصالحة تظهر على الاكثر في حياة الرؤساء والكهنة . لان واجباتهم كبيرة ، ومسؤولياتهم كثيرة ودقيقة ، ان في ادارة نفوسهم وتقديسها ، وان في ادارة وتقديس نفوس مرؤوسيهم والمؤمنين الموكولين الى عنايتهم .

فما اشد ما يعترض الكاهن من المصاعب في التوفيق ما بين الحياة الروحية الداخلية والحياة الجهادية الخارجية ، وما بين التفاني في خدمة النفوس والمحافظة على العفاف والنقاوة ، وما بين حكمة الحيات ووداعة الحمام . نعم ان انوار الروح القدس لهي من اجلّ

comprehendit, quod fit per donum consilii, per quod homo dirigitur quasi consilio a Deo accepto. » (S. Thomas, *IIa IIae*, *q. 52, a. 1, ad 1*).

(1) Mgr Landrieux: *Les dons du St. Esprit, p. 163.*

(2) St Jure: *Le livre des Elus, 1ère P., ch. IV.*

الوسائل ضرورةً في حياة الكهنة .

وهي لا تقل اهمية وضرورة ايضاً في حياة الرؤساء ، وفيما يُطلب منهم من السهر على مرؤوسيهم ، ومن استعمال الشدة واللين في ادارتهم لهم ، ومن حملهم على حسن اتمام فرائضهم وواجباتهم ووظائفهم ، ومن الحرص على ان يكون اتمامهم لتلك الواجبات بدقة ونشاط وفرح وارتياح ، ولكن من غير ان يفقدوهم ثقتهم بهم وحبهم لهم .

اما المرشدون فهم احوج الناس الى انوار المشورة الصالحة . لان مهمتهم صعبة دقيقة ، وتتطلب منهم فطنة فائقة ، وحكمة نيرة ، وسداد رأي ، وعذوبة مقال ، وحزماً في التوجيه ، وثباتاً في الحكم . فان اختلاف الاحوال النفسية ، والطباع البشرية ، والاوضاع المسلكية ، والدعوات الخصوصية الروحية ، لهي اكثر تنوعاً واقوى اثراً بما لا حد له من اختلاف الوجوه والاجسام بين الانام .

***

فلننظر الآن في كيفية الحصول على موهبة المشورة الصالحة ، وفي تغذيتها وانمائها .

لا يسهو عن بالنا ان موهبة المشورة الصالحة هي مجانية ، يفيضها الروح القدس كيف يشاء ، واين يشاء . الا انه يمكننا

ان نعلل النفس بالحصول عليها ، اولاً بالصلاة المتواضعة والابتهال الى هذا الروح المعزي الصالح . وهذا ما عودتنا اياه كنيستنا الشرقية اذ تفرض علينا ان نبدأ دائماً صلواتنا الطقسية بهذا الابتهال البديع :

« ايها الملك السماوي المعزي ، روح الحق ، الحاضر في كل مكان ، والمالئ الكل ، كنز الصالحات ورازق الحياة ، هلّم واسكن فينا وطهرنا من كل دنس ، وخلّص ايها الصالح نفوسنا ».

اما الطريقة الثانية التي تنيلنا نعمة هذه الموهبة السامية فهي التواضع والتذلل . فنقرّ امام الله بضعفنا وبقلة ادراكنا وبقصر بصيرتنا ، ونتقدم اليه بثقةٍ راغبين في خدمتهِ وطلب مرضاته ، معتمدين على انواره والهاماته ، ونهتف نحوه من اعماق قلوبنا : « يا رب عرفني طرقك، وسبلك علمني »[١] ، فيسمع لصراخنا ولا يخيبنا ؛ ونشعر بضيائه القدوس يغمر اذهاننا ؛ وتنفرج الازمات امامنا .

اخيراً ينبغي للنفوس المتقدمة في الكمال ان تكون دائمة السهر ، مستمرة الانتباه لصوت الروح القدس المتكلم في دواخلها ، فتسمع صوته العذب يرنّ دائماً في اعماقها ويرشدها الى

---

(١) مزمور ٢٤ : ٤

ما به مرضاته وخيرها وفلاحها . ولقد قال الكاتب الشهير دونوزو كورتيس: ان افضل المرشدين هم اصحاب الحياة الروحية العقلية (les contemplatifs) . وقال في موضع آخر : « ان الناس الذين عرفتهم عن كثب ، وهم كثيرون ، لم اصادف بينهم من كانوا اصحاب رأي سديد كامل ، ولباقة صادقة في حسن تسيير الامور ، واهلية تفوق حد التصوّر في حل المعضلات الصعبة ، الا اولئك الذين كانوا قد تفرغوا للحياة العقلية ، بعيدين عن ضوضاء العالم »[1] .

وهذا القول مبني ليس على الاختبار الشخصي فحسب ، بل على المنطق الصحيح ايضاً . لان مثل هؤلاء الناس الروحيين العقليين ، تغمر اشعة الروح القدس بصائرهم بضيائها ، وتكون نفوسهم مجردة عن حطام الدنيا ومطامعها ، فيرون ما لا يراه غيرهم من حكمة سامية ومشورة صالحة . ومن يقرأ سيرة القديسة تريزيا الكبرى الافيلية التي كتبتها احدى بناتها[2] ، بمناسبة التذكار المئوي الثالث لوفاتها ، يتحقق بالفعل من صحة هذا القول ، ويلمس بيديه كيف الذين عاشوا بجوار هذه القديسة ، ذات الحياة العقلية السامية ، كانوا يفلحون كلما ساروا حسب نصائحها ، وكانوا يعثرون كلما حادوا عن ارشاداتها .

---

(1) *Essai sur le Catholicisme, p. 200*
(2) *Histoire de ste. Thérèse.*

﴿ حادث تاريخي ﴾

الملك سليمان

كان الملك داود قد طعن في السن ، وكان قد فاق بمجده وعظمته كل من عاصره من ملوك مصر وفارس . وكانت اطراف مملكته تترامى الى حدود وادي النيل والفرات . وكان قد ملك على اسرائيل اربعين سنة . فلما رأى ان اجله قد دنا اجلس ابنه سليمان على عرشهِ ومسحه ملكاً بدلاً عنه ، ووكل اليه متابعة ما بدأ بهِ من الاعمال العظيمة ، واوصاه ببناء هيكل الرب .

فلما ملك سليمان كان ابن سبع عشرة سنة . فكان العبء ثقيلاً على كاهلهِ . وما لبث ان اخذ ببناء هيكل الرب . فجاء هيكلاً بديعاً فاق بهندستهِ وجمالهِ وزخرفهِ كل ما سبق من امثاله في الممالك الاخرى قاطبة . واقيمت الاعياد الكبرى ، وذبحت الوف الذبائح ، وبهر اسم سليمان الدنيا . « وكان الرب الهه معه وعظّمه جداً »[1] .

« وفي جبعون تجلى الرب لسليمان في الحلم ليلاً وقال الله : اطلب ما اعطيك . فقال سليمان قد صنعت الى عبدك داود ابي رحمة عظيمة بحسب سلوكه بين يديك بحق وبرّ واستقامة قلب معك ، وحفظت له تلك الرحمة العظيمة ورزقته ابناً يجلس على عرشهِ كما هو اليوم . والآن ايها الرب الهي انك ملّكت عبدك مكان داود ابي وانا غلام صغير السن لا اعرف ان اخرج وادخل . وعبدك فيما بين شعبك الذي اخترته شعب عظيم لا يُحصى ولا يُعدّ لكثرتهِ . فهب عبدك قلباً فَهِماً ليحكم بين شعبك ويميز بين الخير والشر . لانه من يقدر ان يحكم بين شعبك هذا الكثير .

---

(١) ٢ اخبار ١ : ٧

« فحسن الكلام في عيني الرب لان سليمان سأل هذا الامر . فقال له الله : بما انك سألت هذا الامر ولم تسأل لك اياماً كثيرة ولا سألت لنفسك الغنى ولم تطلب نفوس اعدائك بل سألت لنفسك تمييزاً لتفقه الحكم ، فهاءنذا قد فعلت بحسب كلامك . هاءنذا قد اعطيتك قلباً حكيماً فهماً حتى انه لم يكن قبلك مثلك ولا يقوم بعدك نظيرك . وايضاً ما لم تسأله قد اعطيتك اياه الغنى والمجد حتى انه لا يكون رجل مثلك في الملوك كل ايامك » .

وحقّق الرب وعده لسليمان . فان هذا الملك الشاب ما عتم ان حكم بنباهة فائقة وفطنة نادرة جعلته احكم وافطن ملك قام في اسرائيل . وهذه الحكمة ظهرت في قضية معقدة رواها لنا الكتاب المقدس . قال :

« حينئذ جاءت الملك امرأتان بغيّان ووقفتا بين يديه . وقالت احداهما : اليَّ يا سيدي . اني وهذه المرأة مقيمتان في بيت واحد . فولدتُ انا في البيت ، وفي ثالث يوم من ولادتي ولدت هذه المرأة ايضاً وكنا معاً وليس معنا غريب في البيت غيرنا نحن كلتينا في البيت . فمات ابن هذه المرأة في الليل لانها اضطجعت عليه . فقامت عند نصف الليل فاخذت ابني من جانبي ، وكانت امتك راقدة ، وجعلت ابني في حضنها وابنها الميت جعلته في حضني . فلما قمت بالغداة لارضع ابني اذا هو ميت . فتفرست فيه في الصباح فاذا هو ليس بابني الذي ولدته .

« فقالت المرأة الاخرى : كلّا ، بل الحي هو ابني والميت ابنكِ . فقالت تلك : لا بل ابنك الميت وابني الحي . وكانتا تتكلمان بين يدي الملك .

« فقال الملك : عليَّ بسيف . فأتوا بسيف الى امام الملك . فقال الملك : اشطروا الصبي الحي شطرين وادفعوا شطراً الى الواحدة وشطراً الى الاخرى . فكلمت المرأة التي ابنها الحيّ لأن احشاءها اضطرمت على ابنها وقالت : اليَّ يا سيدي ، اعطوها الصبي حياً ولا تقتلوه . فقالت الاخرى : بل لا يكون

لي ولا لك . اشطروه . فاجاب الملك وقال : ادفعوا الصبي الحي الى هذه ولا تقتلوه لانها امه .

« فسمع جميع اسرائيل بالقضاء الذي قضاه الملك، فهابوا وجه الملك لانهم رأوا حكمة الله فيه في اجراء الحكم »(١) .

* صلاة سليمان الملك *
في طلب الحكمة (٢)

« يا اله الآباء ، يارب الرحمة ، يا صانع الجميع بكلمتك وفاطر الانسان بحكمتك لكي يسود على الخلائق التي كونتها ويسوس العالم بالقداسة والبر ويجري الحكم باستقامة النفس ، هب لي الحكمة الجالسة الى عرشك ولا ترذلني من بين بنيك . فاني انا عبدك وابن امتك ، انسان ضعيف قليل البقاء وناقص الفهم في القضاء والشرائع . على انه، ان كان في بني البشر احد كامل، فما لم تكن معه الحكمة التي منك لا يحسب شيئاً . انك قد اخذتني لشعبك ملكاً ولبنيك وبناتك قاضياً . . . ان معك الحكمة العليمة باعمالك والتي كانت حاضرة اذ صنعت العالم ، وهي عارفة ما المرضي في عينيك والمستقيم في وصاياك . فارسلها من السماوات المقدسة وابعثها من عرش مجدك حتى اذا حضرت تجدّ معي وأعلم ما المرضي لديك . فانها تعلم وتفهم كل شيء. فتكون لي في افعالي مرشداً فطيناً وبعزها تحفظني . فتغدو اعمالي مقبولة وأحكم لشعبك بالعدل واكون اهلاً لعرش ابي » .

---

(١) ٣ ملوك ٣ : ٥ – ٢٨ (٢) سفر الحكمة ٩ : ١ – ١٢

الفصل الثاني

في فضيلة العدل

البحث الاول

في طبيعة فضيلة العدل واحوالها

١ً بيانها . — العدل هو فضيلة ادبية مسيحية فائقة الطبيعة تدفع ارادتنا الى ان نعطي كل ذي حق حقه . فالمركز الرئيسي لهذه الفضيلة هي الارادة ، كما ان العقل هو المركز الرئيسي لفضيلة الفطنة . وتمتاز هذه الفضيلة عن الرحمة ، او محبة القريب ، بان هذه تحسن اليه احساناً ، واما تلك فتفرض القيام باداء حقوقه فرضاً .

وتتفرع من هذه الفضيلة الرئيسية فضيلتان ساميتان ، الاولى فضيلة العبادة ، والثانية فضيلة الطاعة . لان فضيلة العبادة تحملنا على القيام بواجباتنا نحو الله لما له من الحقوق السامية علينا . وفضيلة الطاعة تفرض علينا ان نقدم للرؤساء ما لهم علينا من حقوق في مختلف نواحي حياتنا الروحية والاجتماعية .

٢ً منافعها . — لا احد يجهل ما لفضيلة العدل الطبيعية اولاً

من المنافع العديدة الجليلة . فالعدل هو قوام الممالك ، وسعادة الافراد والشعوب والمجتمع البشري بأسره . ولو ساد العدل في الدنيا بين الافراد وبين الامم لبطلت المنازعات ، وعطلت دوائر المحاكم ، واغلقت ابواب السجون ، وتقلص ظل الحروب ، وعاش الناس بسلام وفرح وطمأنينة . لان به يعرف كل انسان ما له من الحقوق وما يترتب عليه من الواجبات ؛ فكل حقٍ ينادي واجباً يخدمه ويصونه . فتزول الضغائن ، وتبطل السرقات ، ويتلاشى الاحتيال ، ولا يسطو القوي على الضعيف ، ولا يأكل الكبير الصغير ، يعيش الكل بهناء ورخاء .

ولقد قال بوسّويه (Bossuet) كبير خطباء فرنسا في هذا المعنى : « عندما انادي بالعدل ، انادي بالرابطة المقدسة التي تربط الجامعة البشرية ببعضها ؛ انادي باللجام الذي يعقل الشهوات ... عندما يسود العدل يسود معه الصدق في العقود ، والنور في الاعمال ، والنظـام في الاحكام ؛ وتخلد الارض الى الراحة والطمأنينة . حتى السماء نفسها ترسل اشعتها على الارض ببهجة ، وتملأ الدنيا سروراً وحبوراً »[1] .

اما اذا انتُهِكَ العدل واختل نظامه ، فهناك الفوضى والخصام والحروب والدماء ، وموت الضعيف والصغير والعاجز والمسكين .

---

(1) *Sermon sur la justice*

فاذا كانت فضيلة العدل الطبيعية هي هكذا جزيلة الفائدة فماذا تكون منافع فضيلة العدل المسيحية الفائقة الطبيعة التي انما هي شطر من العدالة الالهية. فان الروح القدس يزرعها في اعماق قلوبنا ويدفعنا الى ممارسة افعالها بثبات واستمرار وكمال، ليس احتراماً فقط لحقوق القريب، بل لان الله يأمر بها، ويرتاح اليها، ويكافئ عليها. وهكذا تصان ليس حقوق القريب فحسب، بل اقل مطلب من مطالبه، واقل رغبة حسنة من رغائبه.

٣ً انواعها. — العدل على نوعين اجتماعي وفردي.

فالعدل الاجتماعي هو ما يشمل حقوق المجتمع على الافراد الذين يؤلفون ذلك المجتمع. لا ينكر احد ان المجتمع يؤدي للافراد وللجماعات، في كل بلد وفي كل دولة، خدماً جلّى لا تقع تحت حصر ولا يستطيع ان يتناولها وصف. لاجل ذلك يتمتع بحقوقٍ يأمر العدل كل فرد من افراد ذلك المجتمع بان يؤديها له ويحترمها ويقدسها. ولما كان الخير العام يسمو على الخير الخاص المناسب له، وجب على هذا ان يخضع لذاك، وان يتأخر عنه. هكذا وجب على المرء ان يضحي في سبيل المجتمع جزءاً من امواله، ومن راحته، ومن حريته، بل ان يجود عند الاقتضاء بدمهِ وحياتهِ في سبيل الدفاع عنه وصيانتهِ.

ويقابل واجبات الافراد نحو المجتمع ما لها ايضاً عليه من

حقوق كثيرة مقدسة . فعلى المجتمع ان يساوي بين الافراد في توزيع الوظائف والضرائب ، وفي المحافظة على الارواح والاموال والحريات الدينية والثقافية والعائلية والشخصية ؛ وعليه ان يتحاشى المحسوبية والحزبية والمصلحة الذاتية الفردية . وهذا ما يدعوه الشرع بالعدل الاجتماعي . فتتم بذلك سعادة المجتمع وراحته وكفايته .

اما العدل الفردي فهو الذي ينظر في حقوق الافراد بعضهم نحو بعض . فعلى كل فرد ان يحترم حقوق الآخر الاساسية . فان لكل فرد الحق على التمتع بحياتهِ ، وبحرية معتقده ، وبكيان عائلته ، وبصيانة ملكهِ ، وبضمان راحتهِ ، وبالمحافظة على صيتهِ ، وباحترام شرفهِ وسمعتهِ . ويطول بنا الشرح الى ما لا نهاية له لو اردنا ان ننظر في مآل هذه الحقوق حقاً حقاً ، وفي كيفية صونها وخدمتها . فهذا من اختصاص المؤلفات الكبرى الفلسفية والادبية . انما نكتفي باستعراض المبادئ الاساسية التي هي قوام هذه الفضيلة الرئيسية .

البحث الثاني

فيما تأمر به وتنهى عنه فضيلة العدل

ان للناس على بعضهم في دنياهم حقوقاً شتى، منها مادية ومنها ادبية .

فالحقوق المادية تشمل كما قدمنا حق الانسان على الحياة وعلى ما له من ملك او مال .

لذلك يترتب على الانسان ان يترفع عن كل ما هو سرقة، إن كبيرة وان صغيرة . وان يطبع في قلب بنيهِ ومرؤوسيه وذويه احترام مال القريب . وعلى التجار والصناع ان يصونوا تجارتهم وصناعتهم وبضاعتهم وحساباتهم من انواع الغش والخداع في الكمية والنوع والصنف وجوهر الشيء ، ولاسيما فيما كان منه متلفاً او مستوراً لا يبدو للعيان ، او لا يقدر ان يصل الى معرفتهِ وتمييزه كل انسان . ويجب ان تكون الاسعار معتدلة ، والارباح مقبولة ، متناسبة مع السوق ومع الشراء . فلا نستفيدنَّ من سذاجة البائع فنغبنه حقه في الثمن ونشتري منه سِلَعَه بابخس الاسعار لنعود فنبيعها بارفع الاثمان . وينبغي ان لا نجازف باموالنا، وعلى الاخص باموال غيرنا ، فنضرب ضرباً كبيراً ، طمعاً بمرابح فاحشة ، ونعرض ذواتنا وغيرنا لخسائر فادحة . فَلَكَم كَثُرت

مثل هذه العمليات الجنونية من محلات تجارية ، والقت بالالوف من الناس على الحضيض ، وخربت بيوتاً كثيرة لعمالٍ وارامل وايتام وسقماء اصبحوا عرضة للفقر والفاقة بسبب طيش بعض اصحاب المتاجر والمصارف .

وعلينا ايضاً ان نحاذر استدانة الاموال عندما نكون عارفين او مقدّرين ان لا طاقة لنا على وفائها . فاذا ما اقترضنا مالاً « قرضة حسنة لوجه الله » او اخذناه كدين بفائدة مشروعة ، وجب علينا ان لا نماطل بوفائهِ في وقتهِ ، وباعادتهِ لاصحابهِ في الميعاد المتفق عليه . لان التسويف والمماطلة نوع من السرقة .

وعلينا ان نصون ما نكون قد اخذناه من القريب على سبيل الاعارة ، وان نُعنى به عنايتنا بشيئنا ، وان نرده في حينه . والا نكون قد ساهمنا في نوع السرقة بسبب اهمالنا وتوانينا .

واذا سببنا عمداً بعض الضرر للقريب ، فالعدل يقضي بان نعوّض عليه خسارته ؛ والا فلا مغفرة لنا لا في دنيانا ولا في آخرتنا . ان لم نكن قد ندمنا وتعذر علينا التعويض لقلة ما بيدنا . واما لو صدر ذلك منا عفواً وبغير قصد ولا اهمال، فلا حق لقريبنا علينا بشيء من العوض . الا ان الكاملين من المسيحيين لا يتوانون في تعويض بعض الشيء في ظروف كهذه ، على قدر وسعهم وطاقتهم .

ومن العدل والحكمة معاً ان ننظم شؤوننا ونرتب امورنا، حتى اذا ما فاجأتنا المنية بغتة لا يلحق احداً ضرر ما بسبب ما يكون لدينا من ودائع، او امانات، اوديون او دراهم، او اي شيء من امثال هذه للناس، او للجمعيات الخيرية، او للمؤسسات التقوية.

وعلى الكهنة ان يكون لديهم سجلات منظمة يدونون فيها بكل ضبطٍ ودقة جميع ما يقدم لهم من القداديس مع بيان حسناتها، وكل ما يعطى لهم من المساعدات في سبيل المشاريع الخيرية او التقوية مع بيان كميتها ونوعها؛ وان يعينوا، وهم في قيد الحياة، من ينوب عنهم بعد وفاتهم في تأدية الحقوق المؤتمنين عليها لأربابها. والافضل لكل اسقف ولكل كاهن ان ينظم وصيته في حياته، على حسب الاصول المشروعة في بلاده، فيأمن التلاعب في مخلفاته من بعده. فيكون قد أمَّنَ بذلك تأدية ما عليه من الواجبات، وصان سمعته وارضى ربه في الحياة وبعد الممات.

اما حقوق الانسان الادبية التي يجب من باب العدل احترامها وتأديتها، فهي صون شرف اسمه وحسن صيته وسمعته.

(١) لذلك وجب علينا اولاً ان نطرح جانباً عنا الدينونة الباطلة التي نحكم بها على قريبنا، مستندين الى ما نراه، او ما قد

يتراءى لنا احياناً اننا نراه ، من ظواهر افعالهِ وظروف حياتهِ . فلا يسوغ لنا ان نحكم بمجرد ذلك عليه . لاننا لا نعلم نياته ، ولا مقاصده ، ولا الباعث الذي حمله على ذلك العمل ، ولا الاحوال النفسية والبواعث الخارجية التي دفعته الى ذلك . فان الله وحده هو علام الغيوب وفحّاص القلوب . ويا ما كانت الظواهر خداعة ، ان في الخير وان في الشر . فلنترك الحكم فيها لله . وكثيراً ما يأتي الانسان عملاً يظنه خيراً فيكون وبالاً ، او يصبح شرًّا . فلا تقع تبعة ذلك الشر اذاً عليه . فكيف يسوغ لنا ، ونحن ننظر فقط الى الظواهر ، ان نحكم بالسوء عليه . ولذلك قال الرب كلمة عميقة في معناها ، سامية في مغزاها : « لا تدينوا لئلا تدانوا » [1] . وقال بولس الرسول : « مَن انت حتى تدين عبد غيرك انه لمولاه يثبت او يسقط » [2] .

ثم اليس ان حكمنا كثيراً ما نبنيه ليس على الظواهرِ الخداعة فحسب ، بل ايضاً على اهوائنا واميالنا وانانيّتنا وبغضنا وحسدنا وتحزُّبنا . وهكذا يكون ناقصاً ، بل يكون مراراً كاذباً وجائراً ومجرماً . فالعدل يقضي ، والمحبة ايضاً ، والطاعة لوصية الله ايضاً ، بان نترك الحكم لله ، وان نعذر القريب في سلوكهِ وفي عملهِ .

(١) متى ٧ : ١ (٢) رومية ١٣ : ٤

(ب) وفضيلة العدل توجب علينا ثانياً ، ان نتحاشى الغيبة والنميمة . فلا يجوز لنا ان نكشف عيوب الناس امام الناس ، ولا ان نَشهَر ذنوبهم ، ولا ان نبين من احوالهم ما يحط من قدرهم ، ولا نظهر ما من شأنهِ ان يعود افشاؤه ضرراً عليهم او يسبب غمّاً لهم ، او يمسُّ كرامتهم ، او يضعف ثقة اقرانهم بهم ، فيصبحون مراراً كثيرة من جراء ذلك عرضة للخسارة ولأضرارٍ ربما لا تعوَّض . فكم من نظرة ، او اشارة ، او كلمة اوقدتْ ناراً عظيمة ذهبت ضحيتها انفس عديدة بريئة كريمة .

ولكي نروّض نفوسنا على الامتناع عن النميمة فلتكن عيوبنا دائماً وذنوبنا نصب أعيننا . ولنتذكر قول الرب : « ما بالك تنظر القذى الذي في عين اخيك ولا تفطن للخشبة التي في عينك » [1] . وقوله ايضاً للشيوخ الفجار الذين جاؤوه يشكون المرأة الزانية : « من كان منكم بلا خطيئة فليبدأ ويرمها بحجر » [2] .

واذا تصفحنا سِيَر القديسين نجد لهم هذه الميزة الكبرى انهم كانوا يصونون طَرْفهم عن نقائص القريب ، ولسانهم عن عيوبهِ ، ويعذرون ضعفه ، ويخشون ان يحكموا عليه بالسوء ، لئلا يجرَّبوا هم ايضاً ويسقطوا .

(١) متى ٧ : ٣ (٢) يوحنا ٨ : ٧

اما اذا اضطرتنا الاحوال الى اظهار عيوب القريب او ذنوبه، امام من له الحق على معرفتها، وبيده السلطان لردعهِ وتهذيبه واصلاحها، فلا يكون ذلك من باب الظلم، بل من باب العدل، والمحبة الاخوية، والشفقة المسيحية.

(ج) اخيراً اذا كانت واجبات العدل ومعها المحبة الاخوية تقضيان بان لا نَشهَر ما نعرفه من نقائص القريب، فبالأحرى كثيراً وجب علينا ان نمسك لساننا عن الافتراء عليه زوراً وبهتاناً بما ليس فيه، مما يمسّ حقوقه الزمنية والادبية. ان الافتراء هو اختلاق الاكاذيب بحق القريب. وهو اثم فظيع لا يبرره مبرر، ولا يقره شرع من الشرائع، وتعاقب عليه قوانين الشعوب المتمدنة كلها، كما يعاقب عليه الله في الدنيا وفي الآخرة.

وفوق ذلك يلتزم من سبَّبَ اضراراً للقريب في مالهِ، او في شرفهِ، او في صيتهِ، بدافع الكذب والافتراء ان يسرع الى تعويض الضرر الذي سببه، والا فلا مغفرة له عند ربهِ. ولما كان التعويض في مثل هذه الاحوال عسراً شاقاً، ولاسيما فيما يعود الى الحقوق الادبية من حيث الصيت والسمعة والمكانة، كان الاجدر بنا ان نتحاشى مثل هذه الفظائع، وان لا نفتري على قريبنا بالاكاذيب ظلماً وبهتاناً.

***

هذا موجز ما تأمر به وتنهى عنه فضيلة العدل الادبية المسيحية الفائقة الطبيعة ، اعني التي لا ترغب في اقامة العدل وتقديسه لانه خير عظيم اجتماعي فحسب ، بل ايضاً لان الله يأمر به ويرضى عنه ويكافئ فاعله .

الا ان المسيحي الذي يرغب في الكمال ، ويريد ان يصل حقاً اليه ، عليه ان يتجاوز فضيلة العدل الى فضيلة المحبة ، فيكون قد ضمن لنفسه حق القيام بافعال فضيلة العدل . لان المحبة الاخوية تحرص على التنازل حتى عن الحقوق المشروعة في سبيل القريب فتكون قد ادت له بذلك اكثر من حقوقه . وعندما نفعل هذا محبة لله ولاجل تمجيده تعالى ، يتحقق الكمال الذي ينشده الرب يسوع في انجيله وفي تعليمه ، ويأمر به اخصاءه وتلاميذه والمؤمنين به .

وفضيلة العدل هي ، على الاخص ، من اكبر فضائل الكهنة والرهبان والناس الاتقياء . لانهم بمقتضى حالهم طلّاب كمال ، وقادة الشعب في طرق الفضائل ، ومثال حي صالح في كل الاحوال ؛ ولما كان العدل من الفضائل الاجتماعية البارزة ، كان خيرَ ما يتحلى به رجال الله في حياتهم ومعاملاتهم ومعاطاتهم مع الناس من كل الطبقات ومن كل النحل والملل . لان التعاليم المسيحية تعني بكلمة « قريب » كل انسان مهما كان منشأه ووطنه ومعتقده .

﴿ حوادث تاريخية ﴾

الرسولان بطرس ويوحنا امام محفل اليهود (١)

« وصعد بطرس ويوحنا معاً الى الهيكل لصلاة الساعة التاسعة . وكان رجل اعرج من بطن امه يحمل، وكان يوضع كل يوم عند باب الهيكل الذي يقال له الحسن، ليسأل صدقة من الداخلين الى الهيكل . فلما رأى بطرس ويوحنا مزمعين ان يدخلا الهيكل سألهما صدقة . فتفرس فيه بطرس مع يوحنا وقال : انظر الينا . فاصغى اليهما مؤملاً ان يأخذ منهما شيئاً . فقال بطرس : ليس لي فضة ولا ذهب . ولكني اعطيك ما عندي . باسم يسوع المسيح الناصري قم وامش . وأمسكه بيده اليمنى وانهضه . ففي الحال تشددت ساقاه ورجلاه فوثب وقام وطفق يمشي ويسبح الله . فرآه جميع الشعب يمشي ويسبح الله . وكانوا يعرفونه انه هو الذي كان جالساً لاجل الصدقة عند باب الهيكل الحسن . فامتلأوا اندهالاً ودهشاً مما وقع له .

« وفيما هو متعلق ببطرس ويوحنا تبادر اليهم الشعب كله الى الرواق المسمى رواق سليمان وهم مندهلون . فلما رأى بطرس ذلك اجاب الشعب: يا رجال اسرائيل ، ما بالكم متعجبين من هذا ولماذا تتفرسون فينا كاننا بقوتنا جعلنا هذا يمشي . ان اله ابرهيم واسحق ويعقوب اله آبائنا قد مجد فتاه يسوع الذي اسلمتموه انتم وانكرتموه امام وجه بيلاطس وقد حكم هو باطلاقه . فانكرتم انتم القدوس الصديق وسالتم ان يوهب لكم رجل قاتل وقتلتم مبدىء الحياة الذي اقامه الله من بين الاموات ونحن شهود بذلك .

(١) اعمال ٣ و ٤

وهذا الذي تنظرونه وتعرفونه بالايمان باسمه شدده اسمه ، والايمان بواسطته هو الذي منحه هذه الصحة التامة امامكم اجمعين » .

« وفيما هما يخاطبان الشعب اقبل عليهما الكهنة ووالي الهيكل والصدوقيون مشتدين لتعليمهما الشعب وندائهما في يسوع بالقيامة من بين الاموات . فالقوا عليهما الايدي ووضعوهما في الحبس الى الغد اذ كان قد اقبل المساء .

«وان كثيرين من الذين سمعوا الكلمة آمنوا فصار عدد الرجال خمسة الاف .

« وفي الغد اجتمع في اورشليم رؤساؤهم والشيوخ والكتبة وحنان رئيس الكهنة وقيافا ويوحنا والاسكندر وجميع الذين كانوا من عشيرة رؤساء الكهنة . ولما اقاموهما في الوسط سألوهما : باي قوة او باي اسم صنعتما هذا .

« حينئذ قال لهم بطرس وهو ممتلىء من الروح القدس : يا رؤساء الشعب وشيوخ اسرائيل ، ان كنا نفحص اليوم عن احساننا الى رجل سقيم بماذا برىء ، فليكن معلوماً عند جميعكم وجميع شعب اسرائيل انه باسم يسوع المسيح الناصري الذي صلبتموه انتم، الذي اقامه الله من بين الاموات، بذاك وقف هذا امامكم متعافياً . هذا هو الحجر الذي ازدريتموه ايها البناؤون الذي صار رأساً للزاوية . وليس باحد غيره الخلاص . لانه ليس اسم آخر تحت السماء ممنوحاً للناس به ينبغي ان نخلص .

« فلما رأوا جرأة بطرس ويوحنا وعلموا انهما امّيان وعامّيان تعجبوا وكانوا يعرفونهما انهما كانا مع يسوع . واذ نظروا الرجل الذي شُفِيَ واقفاً معهما لم يكن لهم شيء يقولونه في ذلك . فامروهما بالخروج من المحفل وأتمروا فيما بينهم قائلين : ماذا نصنع بهذين الرجلين فقد جرى على ايديهما آية مشهورة ظاهرة لجميع سكان اورشليم ولا نستطيع انكارها . ولكن

لئلا تزداد شيوعاً بين الشعب فلنتهددهما ألّا يكلما احداً من الناس فيما بعد بهذا الاسم .

« ثم استدعوهما وامروهما ألّا ينطقا البتة باسم يسوع ولا يعلما به » .

فهل اغرب من هذه النتيجة لما رأينا من المقدمات . هل تكون نتيجة الاعجوبة الباهرة ، والاحسان العميم ، التهديد والوعيد .

« فاجاب بطرس ويوحنا وقالا لهم : احكموا انتم . ما العدل امام الله ؟ ان نسمع لكم ام نسمع لله ؟ فانا لا نقدر ان لا نتكلم بما عاينا وسمعنا .

« فتهددوهما وصرفوهما اذ لم يجدوا سبيلاً لمعاقبتهما خوفاً من الشعب . فان الجميع كانوا يمجدون الله على ما جرى . لان الرجل الذي تمت فيه آية الشفاء هذه كان له اكثر من اربعين سنة » .

﴿ اونيا الكاهن الاعظم ﴾

وهليودورس (١)

كان أونيا المكابي كاهناً اعظم ، وكانت اورشليم على ايامه آمنة والشرائع محفوظة . وكان الله راضياً عن شعبه .

فطمع سلوقس ملك آسيا بالاموال المودعة في هيكل اورشليم ، وحدثته نفسه بالاستيلاء عليها ظلماً واستبداداً . فاختار لذلك هليودورس قيم مصالحه وارسله الى اورشليم لتنفيذ اوامره ورغباته . وكانت هذه الاموال لارامل وايتام ولبعض افراد الشعب الاسرائيلي . وكانوا اودعوها في الهيكل لثقتهم بحرمة بيت الله ، صوناً لها من الضياع .

---

(١) ٢ مكابيين ٣

فجاء هليودورس مع نفر كثير من رجاله وطلب ان تُسلَّم اليه تلك الاموال . فدهش اونيا الكاهن لهذه الجسارة وهذه اللصوصة الوقحة ، واجاب بصراحة وشهامة : لا يجوز بوجه عن الوجوه هضم حقوق الذين ائتمنوا قداسة الموضع ومهابة الهيكل . لكن هليودورس اصرَّ على حمل الاموال الى خزانة الملك . وضرب موعداً لدخول الهيكل والاستيلاء على تلك الودائع .

فانطرح الكهنة امام المذبح بحللهم الكهنوتية واخذوا يبتهلون الى الله بنفوس منكسرة لكي يصون قداسة بيته من ظلم الفجار المعتدين . واخذ الناس يتبادرون افواجاً الى الهيكل ويشاركون الكهنة في الصلاة والتضرع . وازدحمت النساء في الشوارع متحزمات بالمسوح . ورفعت العذارى ، ربات الخدور ، ايديهن الى السماء بالتوسل والابتهال . فكان انكسار الكهنة والجمهور مما يصدع القلب ويثير الرحمة . فسمع الله لصراخ شعبه واتى لنجدته .

وجاء هليودورس على رأس رجاله ودخل الهيكل بكبر وجسارة ومدَّ يده الى الخزائن يريد نهبها . واذا بفرس يظهر فجأة وعليه فارس مخيف يرفل بجهاز فاخر . فوثب عليه ، وضربه الفرس بحوافر يديه . وفي الوقت نفسه تراءى لهليودورس فتيان عجيبا القوة ، بديعا البهاء ، حسنا اللباس . فوقفا على جانبيه واخذا يجلدانه جلداً عنيفاً متواصلاً حتى اثخناه بالجراح . فسقط مغشياً عليه حتى اصبح على آخر رمق . فحملوه واخرجوه خارج الهيكل . وخاف اصحابه خوفاً عظيماً .

ولكن خالج قلب اونيا ان ربما اتهم الملك اليهود بمكيدة كادوها لرسوله ورجاله . فصلى الى الله لاجل شفاء الرجل فشفاه الرب .

فقام لساعته واخذ رجاله وعاد مسرعاً الى الملك ، وقصَّ عليه ما

جرى له وقال له : « ان كان لك عدو او صاحب دسيسة في المملكة ، فارسله الى هيكل اورشليم . فيرجع اليك مجلوداً ان نجا . فان في ذلك الموضع قدرة الهية لا محالة » .

لا يترك الله الظلم والاستبداد والسرقة بلا عقاب . كما انه لا يصمّ آذانه عن صلاة التواضع والخشوع والانكسار .

« فرنسسكو روتي »

عنوان الامانة (1)

قصة فرنسسكو روتي هي من اروع قصص الامانة والشرف . وتكاد تكون خيالية في عصرنا الحاضر لولا ان البعض من ابطالها لا يزالون في قيد الحياة وقد رواها غير واحد بتفاصيلها كلها .

نزح فرنسسكو روتي من ايطاليا الى الولايات المتحدة في اوائل القرن الحاضر، على مثال الكثيرين من الايطاليين ومن السوريين واللبنانيين ، طلباً للرزق . وبعد جهود جبارة من الكد المتواصل في مهنة القصابة ومن الاخلاص في العمل جمع ثروة صغيرة وفتح مصرفاً في الحي الايطالي في مدينة شيكاغو . وما لبث ان حاز ثقة الطبقة العاملة ، فاخذوا يودعون فيه ما يدخرونه من المكاسب الضئيلة والتوفيرات القليلة ، يحفظونها لمواجهة غدرات الزمان .

ولكن حدث يوماً من ايام شهر شباط (فبراير) سنة ١٩١٥ ما لم يكن في الحسبان . فان ثلاثة من اللصوص اقتحموا المصرف نحو العصر

(1) مجلة « المختار » شهر تشرين الاول سنة ١٩٤٧ .

وداهموا روتي وحده في المصرف وشهروا عليه مسدساتهم . فاوثقوه وسلبوا من الاموال ما وصلت اليه ايديهم .

وانتشر الخبر كالبرق واعلنته جرائد المساء في ملاحقها . فذعر العمال والعاملات اصحاب الودائع فازدحموا على باب المصرف يطلبون اموالهم ، وهي حصاد عرق جباههم سنين طويلة ومحط آمال شيخوختهم .

فدفع روتي كل ما كان لديه . ثم صفّى كل الممتلكات التي استطاع ان يصفيها ، واضاف اليها كل ريال يملكه ، بل اقترض من اقربائه ما وسعه ان يقترضه . وبذل جهد اليائس ليوقف حركة سحب الودائع . لكن النفوس ظلت خائفة ثائرة . فاعلن افلاسه . فكان من جراء ذلك ان مئتين وخمسين من اصحاب الودائع خسروا ١٨ الف ريال .

وهكذا قضت السرقة التي لم تستغرق سوى ثلاث دقائق على عمل روتي وبيته ومدخراته . وتركته هو وزوجته واطفاله الخمسة بغير عمل يرتزق ويعيش منه . ولم يبقَ لهم من حطام الدنيا سوى قطع قليلة من الاثاث واثني عشر ريالاً فقط لا غير . وانتقل روتي الى بيت صغير حقير تبرع له به احد اصدقائه الى حين . وهكذا عاد روتي الى صف العمال كما كان .

الا انه اذا كان قد اضحى فقيراً في المال والعقار فلقد كان غنياً بقوة الارادة ونشاط النفس والاستعداد للتغلب على نوائب الدهر . فعاد قصاباً كما كان وجدّد كفاحه في الحياة . ولم يكتفِ بهذا بل ارسل الى اصحاب الودائع الكلمة الآتية : « اتعهد لكم بتسديد ما لكم كاملاً متى صار ذلك في وسعي . فارجوكم ان تثقوا بي » .

وقال له صاحب مصرف آخر : « لست انت الملوم يا روتي . فلقد كانت السرقة اشبه بمصيبة من مصائب القدر . واللوم كل اللوم على الناس انفسهم . لانهم هرعوا الى سحب ودائعهم فافضى ذلك الى افلاس المصرف » . فردّ

عليه روتي بقوله : « قد لا يكون هذا الدين ديناً في عرف القانون . ولكنه دين في عرفي انا . انه دين شرف » .

وقام روتي يحرص على « صندوق دين الشرف » اعظم حرص . فكان يودع فيه القروش والملاليم . وكان يركب دراجته كل يوم الى مقر عمله في حانوت القصاب . وفي ايام الثلج كان يذهب ماشياً على رجليه . والمسافة ثلاثة اميال . وفي الليل كان يعمل اسكافياً ويرقع احذية جيرانه . وكان اولاده الكبار يبيعون الصحف ويودعون ما يكسبونه في « صندوق الدين » .

فلما تجمع لدى روتي مبلغ بضع مئات من الريالات قرر توزيعها على الدائنين . ولكن كيف يوزعها وبمن يبدأ ؟ فأراه الله ذات ليلة كيف يتصرف . فلقد جاءه في تلك الليلة نبأ دائن من دائنيه اصيب بمرض خطير ، وهو في اشد حالة البؤس مع زوجته واولاده . وكان المصرف مديناً له بمبلغ ١٧١ ريالاً . فهرع روتي الى المريض وسدّد له كل دينه دفعة واحدة . فعانقه الرجل ودموع الشكر تنهمر من عينيه . فاتضح لروتي المنهج الافضل الذي يجب ان يسير عليه ، وهو ان يبادر الى تسديد حساب من هو اشد حاجة الى مالهِ قبل غيره .

وبعد اشهر قليلة ، علم روتي بحالة ارملة من دائناته اصبحت مريضة وقد رزحت تحت اثقال عائلة كبيرة . وكان المصرف مديناً لها بمبلغ ٣٩٠ ريالاً . فذهب اليها ودفع لها مئة ريال واتفق معها على ان يدفع لها الباقي اقساطاً شهرية كل قسط ١٠ ريالات وهو المبلغ المطلوب منها ايجاراً للقبو الذي كانت تسكنه .

وبقيَ روتي على وعده يفي دائنيه سنة بعد سنة مدة ثلاثين سنة ، حتى وفى مبلغ الثمانية عشر الف ريال التي كان مصرفه مديناً بها .

وحدث مرة ، وكان قد مضى عشرون سنة على افلاس المصرف ، أنَّ رَبَّ

عائلة كاد يستسلم لليأس لان مصلحة الضرائب تنوي ان تبيع بيته تسديد لمطلوبها منه . فتذكر الرجل ان كان له مال في مصرف روتي . فكتب اليه يستنجده . فلم تنقضِ اربع وعشرون ساعة حتى كان الدين مدفوعاً . وبقيَ البيت لصاحبه .

وبقيَ روتي يسعى هو واولاده مدة خمس وعشرين سنة بلا كلل ولا ملل حتى عادت اليه بحبوحة العيش . فصارت مهمته ان يبحث عن الدائنين القلائل الذين لم يأخذوا حقهم منه ، او عن ورثتهم .

وراح يعلن في الجرائد وفي مكاتب السماسرة وعند شركات التأمين ، ويبحث في سجلات المواليد والوفيات وفي كشوف المدارس والمعاهد لكي يتوصل الى معرفة مقر من تبقى من دائنيه . فما لبث حتى جاءته رسالة في نشرة احدى شركات الاخبار هدته الى ثلاثة في كاليفورنيا كان قد طال بحثه عنهم . فلما استوثق من اشخاصهم ومن المبالغ التي تستحق لهم ، ارسل اليهم ما لهم . فقبل الاول المال وهو ١٢٩ ريالاً وبعث يشكره . اما الثاني فرد اليه المبلغ وهو ١٥٠ ريالاً شاكراً وطلب اليه ان يوزعه على الفقراء . والثالث رد اليه المبلغ ايضاً ، وهو ١٣٠ ريالاً ، ورجاه ان يوزعه على اولاده .

واعلن قسيس الحي في الكنيسة ان يطلعوا روتي على كل انسان يكون له عليه دين . وكان قد مضى على حادث الافلاس ثلاثون سنة . فجاءت روتي امرأة عجوز واخبرته بانها تعرف زوجين عجوزين هما في اشد حالات البؤس ، وكانا قد ذكرا امامها ان لهما على مصرف روتي مالاً . وهما يقطنان بلدة تبعد مسافة تسعين ميلاً .

فركب روتي الى تلك البلدة وكان الثلج يغطي الدنيا . فوجد العجوزين وكان الرجل قد اوشك يفقد البصر ، وكانت المرأة طريحة الفراش . فاخبرهما روتي من غاية زيارته . فأخذ الرجل يبكي من فرط تأثره . لكنه

تردد وقال : انه فقد كل مستند يعززه ليثبت به حقه . فطمأنه روتي ودفع له المال على آخر قرش . فعادت الى العجوزين روحهما الفانية من شدة الفرح .

وفي آخر سنة ١٩٤٦ التأم شمل اسرة روتي بعد ان فرّقتها الحرب فوجدوا في « صندوق دين الشرف » مبلغاً من المال يزيد على ما بقي من الدين للدائنين . فاقترح احدهم : « لنرسل الى كل فرد من المودعين الباقين بطاقة معايدة مع تحويل بالمبلغ المستحق له » . وهكذا صار . فارسلوا المبالغ مع هذه البطاقة :

« تحية من اسرة روتي ١٩١٥ — ١٩٤٦ » .

« في سنة ١٩١٥ اضطر ابونا فرنسسكو روتي ان يغلق « مصرف التوفير الغربي » بعد حادثة السطو عليه . ولكنه وعد المودعين ان يردَّ اليهم يوماً مالهم . وقد كانت رغبته الصادقة ورغبتنا نحن ايضاً في بحر هذه السنين ان ننجز هذا الوعد . وانه لمن دواعي سرورنا ان نكون قد وفينا بوعدنا . فنهنئكم بالعيد ونتمنى لكم ان تعود عليكم الاعوام بالصحة والسعادة » .

فلما ارسلت البطاقة الاخيرة تنهد فرنسسكو روتي وقال : « لقد خفرت ذمتي ووفيت بوعدي . فانا الآن طليق مرتاح البال » .

الفصل الثالث

في فضيلة العبادة

فضيلة العبادة هي فرع من فضيلة العدل ، لانها تحملنا على اداء ما يتوجب علينا من الاكرام لله صاحب الحقوق الكبرى على البشر . ولكن لما كان ليس في مقدورنا ، ونحن خليقة ، ان نؤدي له تعالى حقه كاملاً ، لكونه مبدعنا ، وخالق الجميع ، ورب السماوات والارض ، كانت العبادة شيئاً من العدل ، وان لم تكن كل العدل .

وسيتناول بحثنا طبيعة فضيلة العبادة ، وضرورتها ، و كيفية القيام بها .

البحث الاول

في طبيعة فضيلة العبادة

١ً بيانها . — العبادة هي فضيلة ادبية فائقة الطبيعة تحمل ارادتنا على تقديم الاكرام الواجب لله لانه كامل الصفات ورب الجميع .

فهي تتميز عن الفضائل الالهية التي انما موضوعها الله مباشرة . اما هذه فان غايتها الاكرام الواجب له تعالى في السر

والعلانية . الا انها تعتمد على الفضائل الالهية في عملها ، فلا قيام لها الّا بها . فان فضيلة الايمان هي التي ترشدها الى طبيعة الله ، والى صفاته ، وكمالاته ، ومحبته لنا ، وسلطته علينا ، وحقوقه على جميع مصنوعاته . ولا تكمل العبادة الا بفضيلة المحبة . لان لا معنى لاكرام الله بدون محبة الله . فالعبادة هي زهرة الفضائل الالهية ، والعَرف الذي يفوح منها كلها .

فغاية العبادة اذاً هي اكرام الله الازلي ، الفائق الكمال ، القادر على كل شيء ، خالق الجميع ، ورب الكائنات . « فلنسبح الرب تسبيحاً ونرنم نشيداً جديداً لإلهنا . ايها الرب ادوناي ، انك عظيم شهير بجبروتك ولا يقوى عليك احد . اياك فلتعبد خليقتك باسرها لانك انت قلت فكانوا . ارسلت روحك فخُلقوا ، وليس من يقاوم كلمتك »[1] .

٢ً انواعها . — تقوم فضيلة العبادة بافعال داخلية قلبية ، وبافعال علنية خارجية .

فالافعال الداخلية هي التي تتكون في القلب وتصدر عن القوى العقلية ، وهي اساس العبادة المسيحية . وقوامها اولاً فعل السجود للعزة الالهية القادرة الخالقة ، ثم فعل الشكر له تعالى لانه المحسن الجواد ، العطوف على عباده ، الرؤوف عليهم

(١) يهوديت ١٦ : ١٥ — ١٧

وعلى ضعفهم وفقرهم ؛ ثم فعل الاستغفار من رحمته على ما أسأنا به اليه ؛ ثم فعل الطلب بالصلاة والابتهال ، لانه هو الغني الكريم ، ونحن احوج ما نكون الى نعمه ومواهبه .

وهذه الافعال الداخلية التي بها نناجي خالقنا ، والمحسن الينا ، الغفور لمعاصينا ، المصغي الى توسلاتنا وابتهالاتنا ، ونكرمه بالسجود والشكر والاستغفار والصلاة ، لا يكفي ان تبقى سرًا مكتوماً في قلوبنا ، واكراماً دفيناً في صدورنا ، بل يجب ايضاً ان تبدو في افعالنا الخارجية ، وتتلألأ في حياتنا العلنية . وأجلُّ فعل علني نكرم به العزة الالهية هو ذبيحة القداس السامية . لانها ذبيحة يسوع المسيح الاله المتأنس الذي اخذ جسداً كأجسادنا في احشاء العذراء النقية ؛ ومات على الصليب لكي يقدم لابيه السماوي الاكرام الفائق عنا ولاجلنا ، ولكي يفتدينا ويكفر عن خطايانا ويقدس نفوسنا ؛ وهو يذبح كل يوم على هيا كلنا مجدِداً بهذه الذبيحة الالهية السرية ذبيحة الصليب الدموية .

فذبيحة القداس الالهي هي اجلُّ فعل سجود نسجد به لله ، لاننا نسجد مع يسوع المسيح لعزة الثالوث الالهية القادرة المبدعة . وهي اعظم فعل شكر نقدمه لله اقراراً بجميله علينا واحسانه الينا . وهي اقوى فعل استغفار نرجو به تجاوزه تعالى

عن ذنوبنا ومعاصينا . وهي اكرم فعل صلاة وطلب نرفعه الى عرشهِ الالهي في استمطار غيث مواهبه علينا . فالقداس الالهي هو خلاصة الديانة المسيحية بكل ما فيها من عظمة وجمال وروعة وكمال . وهو العبادة الوحيدة التي تأمرنا الكنيسة المقدسة بممارستها تحت طائلة الخطإ المميت ايام الاحاد والاعياد الكبرى الرئيسية .

ومن بعد القداس الالهي فان عبادتنا لله تقوم بحضورنا الاحتفالات الكنسية ، والصلوات الطقسية ، والزياحات ، والاخويات ، وساعات السجود الخشوعية ، والحفلات الرائعة التي تنظمها الكنيسة في بعض الاعياد السيدية او التذكارات الخصوصية ؛ والطقوس البديعة في الميلاد ، والصوم الكبير ، واسبوع الآلام ، والفصح المجيد ، والعنصرة ؛ وصلوات الغروب والاغربنية في ليالي الاعياد الكبرى ، وغير ذلك من الحفلات التي تعنى الكنيسة المقدسة بوضعها وترتيبها وتنظيمها لتكون شعار عبادتنا لله في ثالوثهِ الاقدس ، واكراماً للسيد المسيح في لاهوتهِ وناسوتهِ ، واقراراً بما افاضه تعالى من نعم غزيرة سنية على اصفيائهِ وقديسيه . وهي في جمالها وروعتها وتنويعها وتنظيمها افضل باعث لنا على تغذية فضيلة العبادة في حياتنا .

وعبادتنا لله تقوم ايضاً بصلواتنا الفردية والعائلية ، وببعض

العادات التقوية الخصوصية ، نظير اجتماع العائلة كل مساء للصلاة امام بعض الايقونات المقدسة ، وتلاوة السبحة الوردية ، والاشتراك بالاعمال الروحية ، ان في البيت وان في الكنيسة ، في شهر آذار (مارس) اكراماً للقديس يوسف البتول ، وفي شهر ايار (مايو) اكراماً للعذراء مريم المجيدة ، وفي شهر حزيران (يونيو) اكراماً لقلب يسوع الاقدس ، وفي شهر آب (اغوسطس) اكراماً للام البتول ايضاً في طقسنا البيزنطي . وغير ذلك من العادات التقوية الحميدة كتقديم الزهور ، وحرق البخور ، وتزيين الكنائس ، وما الى ذلك من انواع العبادة والاكرام التي ترشدنا اليها محبتنا لله وشكرنا لآلائهِ وطلبنا لرحمتهِ وحنانهِ .

فيتضح مما تقدم ان فضيلة العبادة هي اجلّ الفضائل الادبية عملاً ، واكرمها شأناً ، وارفعها مقاماً ، لانها تقربنا الى الله اكثر من غيرها ، وتمتزج في كمالها بفضيلة المحبة الالهية السامية .

البحث الثاني

في ضرورة فضيلة العبادة

ان ضرورة فضيلة العبادة تبدو جلياً اذا ما نظرنا الى من هو الله في طبيعته وسلطانه وكمالاته ، والى ما هي الخليقة التي ابدعها بتفضله ورحمته ، وجعلها على الارض بشراً وحيواناً ونباتاً وجماداً .

ان للصانع ملء السلطان على ما صنعت يداه . فصنعه هو ملكه ، وهو ينادي بقدرته واهليته وذوقه واستعداده ودرجة حذاقته . وللصانع ان يتصرف بمصنوعاته بكامل حريته ، فانها تخضع لارادته ، كما انها تنطق بصفاته ، وهي عنوان مجده وافتخاره . فحقوق الرسام لا تنازع على رسومه ، والمصور على صوره ، والاديب على شعره وتأليفه ، والنجار والحداد والاسكافي والزارع وسواهم كل منهم على مصنوعاته ومزروعاته .

ولذلك نرى في عالم الدنيا المتمدنة ان الحكومات تحمي حقوق الناس في مؤلفاتهم واختراعاتهم ومصنوعاتهم ؛ وتقيم انواع المعارض الصناعية والزراعية ، واسواق الفنون الادبية ، لتظهر مؤهلاتهم ؛ وتكافئ من برز بين الصفوف منهم في علم ، او فن ، او صنعة ، او تجارة ، او زراعة ، اقراراً منها بفضله

وحقوقه على عمله .

فاذا كانت هكذا حقوق الصناع في الدنيا ، الذين رغم تعبهم وجدهم وبراعتهم لا يقدرون مع ذلك ان يعملوا الّا في مادةٍ موجودةٍ وقوةٍ مخلوقة ، فيبدلون شكلها ، او يكثرون كميتها ، او يثيرون فيها كوامن قوتها وفعلها ، الا انهم لا يبدعونها ابداعاً ، اي انهم لا قدرة لهم على ايجاد شيء كان عدماً فاصبح موجوداً ، فماذا نقول في الصانع الاكبر وفي حقوقه على عمل يديه ؟ ذاك الذي قال للدنيا كوني فكانت ، وخرجت مسرعة من العدم الى الوجود وفي حضرته مَثَلَت ؛ الذي نثر الكواكب في الآفاق كانها مصابيح معلقة في كبد السماء ؛ الذي فجر عيون المياه من الاودية والجبال ، وساق الانهار في الفيافي والامصار كانها قطعان من الاغنام ؛ الذي مدَّ على الارض البحار ، وفصل ما بين الليل والنهار ؛ الذي ارسل النسور والبلابل في الفضاء ، والسباع والحملان في كل الارجاء ، وابدع من كل فن كل عظمة وكل جمالٍ وكل بهاء . « اللابس النور مثل الثوب ، الباسط السماء مثل الخيمة »[1] . ان السماوات تنطق بمجده والفلك يخبر باعمال يديه . ان الدنيا هي له بما لها وكنوزها وجمالها وروعتها . وهي تبدي عظمته وقدرته وحكمته وعنايته : « ما اعظم اعمالك يا رب

(١) مزمور ١٠٣ : ٢

لقد صنعت جميعها بالحكمة »[١] . فجمالها يعظِّمه ، وصفاتها تثني عليه ، والحانها تسبِّحه ، وهناؤها يشكره على عطفه وحنانه ، واصواتها تتصاعد اليه اناء الليل واطراف النهار ، مسبحة مهللة مباركة مرنمة بتغريد الاطيار ، ونغمات الانهار ، وعرف الازهار ، وحفيف الاشجار ، ولمعان الانوار ، وهدير البحار . فالدنيا كلها سماؤها وماؤها ونباتها وحيوانها ليست سوى نغمة تسبيح واحدة دائمة ابدية تثني على بارئها ومبدعها .

الا ان الله جعل لهذه الدنيا ملكاً يسودها . ابدعه من ترابها ، ولكنه نفخ فيه نفساً حية عاقلة يعرفه بها ويعرفها . ومنحه الفم والارادة والعقل والحرية ليعرفه ويتفهَّم ايحاءاته ووصاياه ، ويذهب اليه بكل رضاه . ثم سلمه السلطان على الدنيا ، على ان لا ينعم بها فحسب ، بل يقودها اليه تعالى ، ويقود نفسه معها . فاذا كانت الدنيا بعظمتها تذيع بعظمة خالقها ، وبنظامها تنبئ عن حكمته ، وبخيراتها تظهر غناه ورحمته ، افلا يكون الانسان ، وهو الدنيا الصغيرة البديعة الرائعة العاقلة ، افلا يكون هو الكنارة الاولى التي تسبح خالقها بفهم ومعرفة ورضى ومحبة . افلا يكون هو حبر الدنيا التي لا تعقل ، فيسبح عنها ويسجد باسمها ، ويشكر عنه وعنها ، ويذيع بمراحم هذا الخالق بفمه وفمها .

(١) مزمور ١٠٣ : ٢٦

طالما العمل ينطق لذاته بجودة عامله ، فان الانسان بطبيعة حاله ووجوده على الارض ينطق بقدرة الباري وحكمته وعنايته . الا ان الحق يقضي بان هذا الانسان العاقل يسبح ربه ويعبده عن رضى ومحبة . فعبادة الانسان لله صانعه ومبدعه هي اذاً حتماً واجبة . هي واجبة عنه وعن سائر الدنيا التي لا تعقل . لان الله سلمها الى ادارته وسلطانه ومنفعته واستعماله ، ووكل اليه ان يتكلم عنها ، وان يقدم له تعالى واجبات العبادة باسمه واسمها . لذلك يقول المرتل [1] :

« سبحوا الرب من السماوات . سبحوه في الاعالي . سبحيه ايتها الشمس والقمر ، سبحيه يا جميع الكواكب والنور . سبحيه يا سماء السماوات ، والماء الذي اعلى فوق السماوات . فلتسبح لاسم الرب . لانه هو قال فكانت ، وهو امر فخلقت . سبحي الرب من الارض ايتها التنانين وجميع اللجج ، النار والبرد ، الثلج والجليد ، الرياح العاصفة الصانعة كلمته ، الجبال وجميع التلال ، الخشب المثمر وسائر الارز ، الوحوش وكل البهائم ، الدبابات والطيور المجنحة . ملوك الارض وكل الشعوب ، الرؤساء وكل قضاة الارض ، الاحداث والعذارى ، الشيوخ مع الشباب فليسبحوا اسم الرب » .

(١) مزمور ١٤٨

***

فاذا كان فرض العبادة هو من حقوق الله على الانسان ، فهو بالاحرى كثيراً من حقوقه تعالى على الكهنة الذين اختارهم من بين اخوتهم ، ودعاهم الى خدمته ، و كلّفهم ان يمثلوا البشرية بين يديه وامام عرشه . فالكاهن هو الذي يقدم ذبيحة القداس الالهية للعزة الواحدة المثلثة الاقانيم الصمدانية ؛ يقدمها عنه ، وعن البشرية ، وعن الدنيا باسرها ، عبادة سجود فائق ، وشكر سام ، واستغفار كامل ، ودعاء شامل . هو الذي اقيم « ليبارك الرب في كل وقت ، وفي كل ساعة يسبحه »[1] . فالكاهن هو الوسيط المقبول بين الله والناس . فالعبادة اذاً هي من كبرى واجباته ، بل هي من اختصاص دعوته ووظيفته وحياته . « فان كل حبر متخذ من الناس يقام لاجل الناس فيما هو لله ليقرب تقادم وذبائح عن الخطايا . . . لان الله قد دعاه حبراً على رتبة ملكيصادق »[2] . لذلك يترتب على الكاهن ان يقدم الذبيحة الالهية ، ويتلو صلوات الفرض الالهي ، بكل ما اوتي من فطنة وانتباه وعاطفة وتواضع ، ليقوم قياماً لائقاً بتمثيل الدنيا كلها امام خالقها ومبدعها ، ويقدم لجلاله السامي جميل العبادة عنه وعنها .

---

(١) مزمور ٣٣ : ١ (٢) عبرانيين ٥ : ١ و ١٠

البحث الثالث

في كيفية القيام بعبادة الله

تقوم عبادة الله بافعال التقوى الحقيقية . فالتقوى هي حالة نفسية تجعلنا دوماً مستعدين للقيام بكل ما هو اكرام الله وخدمته . فهي الطريقة العملية التي نعبر بها عن محبتنا لله خالقنا وسيد وجودنا ، والناس يقومون بممارستها على انواع مختلفة ، كل منهم على مقدار درجة الكمال التي وصل اليها .

فالمبتدئون يكرمون الله ويعبدونه اولاً بحفظهم وصاياه ووصايا كنيسته ؛ وبتقديسهم ايام الآحاد والاعياد ؛ ليس بحضور القداس فحسب ؛ بل بشتى الافعال التقوية والخيرية ؛ وبابتعادهم عن الملاهي الخطرة ؛ وبصيانة حياتهم من الطيش المسبب للخطيئة ؛ وبحذرهم من الكسل الذي يقعد عن العمل ؛ وبترويض نفوسهم على عادة استحضار الله في بدء اشغالهم واعمالهم .

اما المتقدمون منهم في الكمال فيقومون بما ذكرناه اعلاه من الاعمال ولكن بعاطفة « روح العبادة » . وروح العبادة هذا معناه اكرام العزة الالهية بعاطفة التوقير والمحبة معاً . فالتوقير هو مزيج من الاحترام والرهبة ، لان الله هو خالقنا وسيدنا والهنا ؛

وهو رب الدنيا باسرها ؛ فعبادتنا له يجب ان تكون بخشوع واحترام وارتياح الى ما له من السلطان علينا ، ومن التحكم في مقدرات حياتنا . اما المحبة فهي عاطفة الابن الودود نحو ابٍ رحيم حنون . وهكذا يكون الاكرام قلبياً عاطفياً مملوءاً ثقةً بنوية . فهو يسر بمحبتنا له ، وتعلقنا بهِ ، وثقتنا بحنانهِ ورحمتهِ ؛ ويعطف على ضعفنا ووضاعتنا ؛ فيتقبل اكرامنا برضى ، ويجود علينا بالبركات والنعم .

وروح العبادة هذا يتكامل بالتعبد لقلب يسوع الاقدس ؛ لانه هو ينبوع العبادة ، والمثل الاعلى لاكرام الالوهة . فمنه نتعلم كيف نعبد الله المثلث الاقانيم بمحبة وخشوع وثبات وطمأنينة ، واثقين بحبهِ لنا ، وارتياحهِ الى اكرامنا له ؛ وبه نتقدم بفرح من عرش النعمة لننال حقيقة التبني « الذي ندعو بهِ ابًا ايها الآب »[1] .

اما الكاملون من المسيحيين فانهم يمارسون افعال العبادة بروح « موهبة العبادة » التي يفيضها الروح القدس في قلوبهم ، فيستسهلون انواع العبادة ، ويكثرون من ممارستها ، ويستلذونها . فهم دائمو التيقظ للقيام بكل ما هو اكرام لله . ثباتهم لا يتزعزع ، وعاطفتهم عميقة ، ومحبتهم عاقلة نيّرة فعالة . فلا تستغويهم

(١) رومية ٨ : ١٥

التعزيات الحسيَّة ، ولا اضطرام العواطف القلبية ، فسيان عندهم حضرت او غابت . ولا تدفعهم الى عباداتهم هبَاتٌ وقتية ، او رغبات انانيَّة ؛ لان محبتهم هي صادقة ، صميمة ، ثابتة ، تتجلى بالافعال ، وحسن القيام بالواجبات ، ثارت فيهم العاطفة او نامت ؛ فإنهم لا يعبأون بذلك . بل يثابرون على تقواهم وعبادتهم في الشدة والرخاء على السواء ؛ في اليبوسة الروحية كما في التعزيات القلبية ؛ في ايام السقم والمرض كما في زمان الصحة والعافية ؛ في اوقات العسر كما في ساعات اليسر ؛ في الافراح والاحزان ؛ في سعة العيش كما في حالة الفاقة . فلا تثني عزائمهم صروف الدهر ، كما لا تثير ايضاً هِمَمهم الافراح او انواع التوفيقات مدى العمر . لان تقواهم مؤسَّسة على اعتقاد راسخ عميق في ما لله من حقوق عليهم ، وما له من فضل عميم لديهم . فهم يسارعون الى عبادتهِ وخدمتهِ بدافع الواجب والمحبة ، وليس حسب الوقت والهوى ، واقبال الدنيا وادبارها .

والكاملون من المسيحيين يكرمون ايضاً بتقوى وعبادة كل ما له علاقة بالله ، محبةً لله . فالبتول مريم لها لديهم المقام الرفيع الاول لانها ابنة الآب ، وام الابن ، وعروس الروح القدس ؛ ولانها شريكة يسوع في افتداء البشر ؛ ولان يسوع وهو على الصليب اقامها امًّا للدنيا ؛ ولانها الينبوع الصافي الذي

منهُ تتدفق مواهب العلي على البشرية . ويؤدون للملائكة وللقديسين واجب العبادة الصادقة لكونهم اصفياء الله . اما الكتاب المقدس فهو لهم موضوع احترام واجلال ، لان فيه يقرأون بامعان عميق كلام الله ، ويلمسون فيه حكمة الله . وهم يحيطون الكنيسة المقدسة ايضاً ، ورأسها المنظور الحبر الاعظم ، واساقفتها وكهنتها وسائر خدامها بكل مظاهر الاكرام والاعتبار ، لانهم رسل الله ، وخدام اسرار السيد المسيح على الارض . «من سمع منكم فقد سمع مني »[١] .

وان هذه التقوى المسيحية العميقة عندما تتأصل في القلوب تصيّرها ليّنة ، وتفيض فيها عواطف الشفقة والحنان في معاملة الناس ، ولاسيما من كان منهم فظاً قاسياً ، او بليداً خاملاً ، او انانياً طماعاً ، فتعاملهم بالصبر وطول الاناة ؛ وتصبر على نقائصهم ؛ وتعذر هفواتهم ؛ وتغضّ الطرف عن قلة ادبهم وجهلهم ، لانه تعالى هو ايضاً شفيق رحيم : « اما انا فاقول لكم احبوا اعداءكم ، واحسنوا الى من يبغضكم ، وصلوا من اجل من يعنتكم ويضطهدكم لتكونوا بني ابيكم الذي في السماوات ، لانه يُطلع شمسه على الاشرار والصالحين ويمطر على الابرار والظالمين »[٢] .

---

(١) لوقا ١٠ : ١٦ (٢) متى ٥ : ٤٤ و ٤٥

ولكي نمكن انفسنا من « موهبة التقوى » هذه علينا ان نطلبها بالحاح من الروح القدس بالصلاة كل يوم ، وان نبقى دوماً متنبهين لكي نطبع اعمالنا كلها بطابع المحبة ، فنفعلها محبة لله ، فتصبح حياتنا كلها صلاة وعبادة وتقوى واجوراً سماوية . « واما التقوى فتنفع في كل شيء » [١] . وايضاً « فاذا اكلتم او شربتم او عملتم شيئاً فاعملوا كل شيء لمجد الله » [٢] .

حوادث تاريخية

الاسكافيان

جاء في حياة القديس يوحنا الرحيم انه كان في مدينة الاسكندرية اسكافيان . فكان الواحد كثير الشغل ، كثير الزبائن ، وبيته يفيض بالخيرات رغم عائلته الكثيرة العدد . وكان الثاني قليل العمل ، قليل المال ، وبيته دائماً في عوز ، رغم انه كان قليل الولد .

فشكا الثاني الى الاول حاله وهو يتحسر ويتأفف ويتهم العناية الالهية بالتقصير في النظر اليه رغم مهارته . فقال له زميله تعالَ اليَّ يا اخي صباح الاحد القادم فأريك سرَّ نجاحي .

(١) ١ تيمو ٤ : ٧ (٢) ١ كور ١٠ : ٣١

وكان هذا الاسكافي متعبداً لله، مواظباً على حضور القداس يوم الاحد، وعلى التفرغ في ذلك اليوم المبارك لعبادة الله مع جميع افراد عائلته . اما الثاني فكان يعتمد فقط على قوة ساعديه ، وعلى دأبه على عمله . فلا يميز بين ايام الآحاد وايام الاسبوع ، ويشتغل بلا انقطاع متناسياً ان لله عليه حقوقاً ، وان النجاح هو ثمرة بركة العلي .

فلما كان صباح الاحد جاء الاسكافي الثاني الى الاول ليرى ما هو سرُّ نجاحه . فاخذه الى الكنيسة ومعه جمهور افراد عائلته وقال له : يا اخي اسمع القداس كما افعل انا واولادي ، وصلِّ وابتهل الى الرب ان يوفقك في شغلك وعملك ، وثابر هكذا على خدمته وعبادته ، فتنجح . وهكذا كان . فنجح هذا الثاني في حياته وفي بيته .

ستانسلاس ملك بولونيا

كان ستانسلاس ملك بولونيا قد كتب بخط يده هذه المقاصد ، قال :

« كل يوم صباحاً أنظرُ بامعان فيما ينبغي لي ان اعمله في يومي . فأفكر في كيفية عمله ، وعلى الاكثر فيما يجب ان ابتعد عنه » .

« وعند المساء أجثو امام الله وأطلبُ اليه تعالى ما يلزمني من الانوار لارى بجلاء زلاتي . ثم افحص ضميري لاعرف ما ارتكبت من الخطإ فأساله تعالى ان يصفح عني ، واعاهده الا اعود الى ما سبق من الاساءة اليه مني »

الفصل الرابع

في فضيلة الطاعة

ان فضيلة الطاعة هي فرع من فضيلة العدل لانها فعل خضوع واجب لحقوق السلطة الشرعية . الا انها تتميز عنها لان الرئيس والمرؤوس غير متساويين في وضعهما ليكون العدل هو المتحكم في الحقوق والواجبات بينهما .

البحث الاول

في طبيعة فضيلة الطاعة

الطاعة هي فضيلة ادبية مسيحية فائقة الطبيعة تحملنا على اخضاع ارادتنا لرؤسائنا الشرعيين لكونهم سفراء الله لدينا .

فرائد الطاعة هو رائد سائر الفضائل الادبية المسيحية، اعني به الله تعالى . لان الطاعة البشرية الطبيعية التي هي خالية من ذكر الله ، ومن ابتغاء وجه الله ، ولا هدف لها سوى الخير الزمني الناتج عن الخضوع للسلطة القائمة ، طمعاً في مال او جاه مثلاً ، او خوفاً من عقاب، او سعياً وراء مغانم ومكاسب فهي ليست فضيلة الطاعة المسيحية . لان هذه تنظر الى ما لله من سلطان علينا ،

والى ما يتوجب على كل منا افراداً وجماعات من الانقياد الى ارادته وتدبيره واحكامهِ ، فتخضع له على الارض ، ومن اجلهِ تخضع للرئاسة الشرعية التي تمثّله وتقوم لدينا مقامه .

لا شك في ان خضوعنا لله يجب ان يكون في مقدمة اعمالنا وحياتنا . لانه تعالى هو خالقنا وحافظنا ومدبرنا ، ولا كيان لنا الا بهِ ، ولا عمل لنا الا بمساعدتهِ وسماحهِ . ان الخلائق كلها لا تحيا الّا بهِ ، ولا تعمل الّا بارادتهِ وامره . وصاحب المزامير يقول : « لان الكل عبيد لك » [1] . فلا بد اذاً ان تكون الخلائق العاقلة الناطقة في طليعة العاملين باوامره تعالى ، الخاضعين لارادتهِ ، وذلك عن ادراك وفهم ورضى .

ولكن فوق كوننا خليقتهُ وصنعة يديه وعبيداً له فاننا ايضاً لا بل بالاكثر ، ابناؤه ؛ تبنانا بالمسيح يسوع بفضل منه . فوجب علينا اذاً ان نخضع له خضوع الابناء البررة للوالدين المحبين . هكذا عاش المسيح على الارض : « وصار يطيع حتى الموت موتِ الصليب » [2] . وهكذا ينبغي لنا ان نسير على اثره .

ثم ان المسيح تجسد وصلب لاجلنا وافتدانا ، فاصبحنا ملكه ورعيته وخاصته ، ووجبت علينا في كل امر اطاعته : « لانكم قد اشتريتم بثمن كريم » [3] .

---

(١) مزمور ١١٨ : ٩١ (٢) فيلبي ٢ : ٨ (٣) ١ كور ٦ : ٢٠

ولكن كيف نطيع الله يا ترى ، وكيف نعمل بأوامره ؟ ان ذلك لا يتم لنا الا بطاعتنا لممثليه الشرعيين على الارض ، لانهم نوابه وسفراؤه لدينا ، يتكلمون باسمهِ ، وينطقون بكلمتهِ . هذا هو المبدأ الاول الاعلى في الطاعة المسيحية .

ان الله خلق الانسان اجتماعياً ، اعني انه جعله يحتاج بطبيعتهِ في مختلف مناحي حياتهِ الجسدية والادبية والروحية ، الى مساعدة غيره . فنشأ عن هذا الضعف الفردي حاجة الانسان الى المجتمع العمومي ، فيتمم هذا ما ينقص ذاك في شتى ضرورياتهِ . فاذا كان لا بد من وجود المجتمع لحياة الفرد ، كان ايضاً لا بد لهذا المجتمع لكي يؤدي رسالته من سلطة تسهر على ادارتهِ ، وتنظم شؤونه ، وتوجه قواه لتوصله الى الغرض المطلوب من مصلحة الفرد وخدمتهِ . ولما كان وجود هذا المجتمع من وضع الله كانت السلطة ايضاً التي لا بد له منها لاجل كيانه وعمله ، من وضع الله وتدبيره . لذلك قال الرسول : « لا سلطان الا من الله » [1] . وزاد الرسول على هذا ايضاً وقال على سبيل الاستنتاج الطبيعي المنطقي : « فمن اطاع السلطة فقد اطاع الله ، ومن انكرها انكر الله . فمن يقاوم السلطان فانما يعاند ترتيب الله » [2] . فالتعليم صريح لا يحتاج الى ايضاح .

---

(١) رومية ١٣ : ١ (٢) رومية ١٣ : ٢

لاجل ذلك يترتب على الرئيس ان لا يستعمل سلطانه الا باسم الله ، طبقاً لارادته تعالى واوامره ونواهيه ، لا لخدمةِ نفسهِ ونفوذه ومطامعهِ ، بل لخدمة المجتمع الذي اقامه الله على ادارة شؤونهِ وشؤون افراده . ويترتب ايضاً على هؤلاء الافراد ان يخضعوا لهذا الرئيس خضوعهم للرب ، باحترام وتوقير ومحبة ورضى : «من سمع منكم فقد سمع مني» [1] ، كما قال الرب . وقال الرسول ايضاً : «ونلتمس منكم أيها الاخوة ان تعتبروا الذين يتعبون بينكم ويرئسونكم في الرب ويعظونكم ، وان تحبوهم غاية المحبة من اجل عملهم» [2] .

***

ولكن من هو الرئيس الشرعي يا ترى ، والى اين تصل قوة سلطانه ؟

الرئيس الشرعي هو كل رئيس اقامه الله على ادارة الجماعات المنظمة في الدنيا . وهذه الجماعات كثيرة بين الامم لا يحصرها عدّ وليس لانواعها حد . وهي تختلف باختلاف غاياتها ونظامها وترتيبها وتأليفها . فلا بد لكل منها من رئيس يسوسها ، ويدير شؤونها ، ويوحّد صفوفها ، ويوجه قواها ، لتصل الى مراميها . فمنها الجامعة الصغيرة العائلية التي يرئسها الاب او من يقوم مقامه . ومنها

(١) لوقا ١٠ : ١٦ (٢) ١ تسالونيكي ٥ : ١٢ و ١٣

الجامعات الكبرى الدولية التي يشرف على شتى شؤونها رجال الحكومة ، حسب طريقة ودستور كل امة وكل مملكة . ومنها الجامعة الكبرى الروحية ، اعني بها الكنيسة الكاثوليكية التي يرئسها الحبر الروماني بابا رومة الكلي الطوبى ، ومساعدوه من الاساقفة كل في ابرشيته ، ومن الكهنة كل في منطقتهِ و كنيستهِ . ويدخل تحت لواء هذه الجامعة العظمى الكنسية جامعات متعددة للرهبان وللراهبات والمرسلين والمعلمين من كل صنف ونوع ولون . والرئاسات في كل منها درجات متعددة متتابعة متماسكة يُكمل بعضها بعضاً ويخضع ايضاً بعضها لبعض ، حتى تصل الى رئيسها العام الاكبر ، ومنه الى سيدنا البابا الحبر الروماني ، ومنه الى السيد المسيح رأس الكنيسة الغير المنظور . فكل من كان عضواً في مجتمع كهذا وجبت عليه الطاعة لرئيس ذلك المجتمع ، والا اختل النظام وسادت الفوضى . فَلَكَم جرَّ العصيان من الدمار على الهيئات والمؤسسات والحكومات والرهبانيات ، وكم حزن الكنيسة واثار عليها الهرطقات ، وكم كان السبب في نشوب الحروب وتعدد الويلات .

ولكن الى اين تصل حدود سلطة الرئاسات يا ترى ؟ هل من قوةٍ ادبية مشروعة تقف في وجهها ، ام يسوغ لها أن تكون مطلقة العنان ، تسير على هواها في كل زمان ومكان ؟

NAJAH UNIVERSITY LIBRARY

ان لكل سلطان في الدنيا حدًّا يجب عليه ان يقف عنده . وهذا الحد يضعه القانون الذي ينظم علاقة الرئيس بالمرؤوس ، ومقدار سلطتهِ عليه ؛ وهذا القانون يبين ما لكل من الرئيس والمرؤوس من حقوق وواجبات له وعليه . الا ان المبدأ الاعلى الذي يجب ان يسود حقوق كل الرئاسات في الدنيا ، وواجبات كل المرؤوسين فيها ، يقوم على هذا الاساس : وهو انه لا يحق لسلطة ايةً كانت ان تأمر بما تنهى عنه شرائع الله والكنيسة ، او ان تنهى عما تأمر بهِ حتماً شرائع الله والكنيسة . واذا فعلت يكون فعلها تجاوُزاً لحقوقها ، واستبداداً منها ، وجوراً واعتسافاً ؛ ولا يجوز للمرؤوس اذ ذاك ان يسمع لها ولا أن يأتمر بامرها . ولقد بقيت كلمة القديس بطرس أمام محفل اليهود الاكبر دستور النصرانية ، وشعار الحريات المسيحية . لانهم لما أمروه بتهديد ووعيد ان يُقلع عن التبشير باسم الرب يسوع اجاب بكل ثبات وجرأة : « ان الله احق من الناس بان يطاع » [1] . وهذا ما حدا بالملايين من المسيحيين في كل زمان ومكان على بذل نفوسهم رخيصة في سبيل تمسكهم بشرائع إلههم و كنيستهم ؛ فاقدموا على الاستشهاد ، ايام الاضطهاد ، دفاعاً عن اوامر الههم ، ضد اوامر الظلم والاستبداد .

---

(١) اعمال ٥ : ٢٩

ولا إلزام بالطاعة اذا كان الامر مستحيلاً، لان المحال لا يلزم احداً. والشرائع البشرية تعدم قوتها عند عدم المقدرة على القيام بها. فينتج عن ذلك ان المريض الذي لا يمكنه الذهاب الى الكنيسة، معذور في تخلفه عن حضور القداس أيام الآحاد والاعياد؛ وأنه يستثنى من شريعة الصوم من لا يمكنه القيام به لاسباب مشروعة كالمرضى والعملة والحبالى والمراضع؛ وان الفقير المعدم يعفى من أعباء الرسوم والضرائب الخ. وقس على هذا ما يشبهه، لان الله إله رحمة، وليس إله شدة ونقمة.

كذلك لا إلزام بالطاعة للرئيس عندما يتجاوز حدود سلطته. هكذا مثلاً، اذا اعترض والد دعوة ابنه بعد ان تمعَّن هذا في درسها، او إذا أمر رئيس رهباني بما لا تسمح به القوانين والانظمة المقررة في رهبنته.

ولكن بما اننا عرضة لأوهام كثيرة، ففي وقت الشك يجب الافتراض ان الحق بجانب الشريعة او الرئيس.

***

بعدما تقدم يتناول بحثنا الكلام عن درجات الطاعة وانواعها وجمال خصالها، وجليل منافعها. الا اننا نحصر البحث على الاكثر في فضيلة الطاعة المسيحية للرئاسات الدينية وللسلطات

الكنسية والروحية؛ تاركين الكلام عما سواها للبحوث الكبرى الادبية في المجلدات اللاهوتية والكتب الاجتماعية .

البحث الثاني

في درجات الطاعة المسيحية

ان اولى درجات الطاعة المسيحية تقوم بحفظ وصايا الله ، ووصايا الكنيسة ، وباتمام الاوامر الصادرة الينا من الرؤساء الشرعيين ، اقل ما يكون اتماماً فعلياً في الظاهر ، ان لم نوافق عليه ايضاً في الباطن ، وذلك اكراماً لله تعالى ، وخضوعاً لسلطانه علينا ، وعملاً باوامره الصادرة الينا من رؤسائنا . الا ان عدم موافقتنا هذه لوجهة نظر رؤسائنا لدى اتمامنا اوامرهم ليس معناها خروجنا عليهم ، وتذمرنا من ادارتهم ، والا فلا يكون خضوعنا فضيلة ، بل شراً ونقيصة . انما معناها تمسكنا بصوابية رأينا ضد رأيهم ، رغم خضوعنا لادارتهم وتدبيرهم .

اما الدرجة الثانية ، وهي تفضل الاولى بكثير ، فإنها تقوم بخضوعنا لاوامر رؤسائنا ليس في الظاهر فقط ، ولكن في الباطن ايضاً . فنعمل باوامرهم بقبول ورضى ، دون ان نبحث في

صوابيتها او نعترض عليها . ولكي نجعل طاعتنا فضيلة مسيحية حقة نتطلع الى يسوع في حياته كيف كان خاضعاً لابيه السماوي، وللقديس يوسف حارسهِ ، وللبتول امهِ ، فنتشبه به . بالطاعة عاش المسيح فقيراً، وعاملاً خاملاً ، ورسولاً معدماً ؛ بالطاعة طاف في المدن والقرى والمزارع والحقول يبشر المساكين ، ويشفي المرضى ، ويؤاسي منكسري القلوب . بالطاعة عرق دماً في بستان الزيتون ، قبل ان سفك دمه لاجل البشر ، حتى آخر نقطة ، ومات على خشبة الصليب الكريم . نعم هكذا عاش يسوع عيشة الطاعة والخضوع ، وهكذا يريدنا على مثالهِ ، طائعين اكراماً له وتشبهاً به .

وتتجلى هذه الطاعة المسيحية بمظاهر شتى في الحياة العملية . فهي لا تعارض الرئيس في عمله ، ولا تعترض على طريقة تدبيره . ولا تتوارى امام ارادته ، ولا تتبرم من احكامهِ ، ولا توارب في تنفيذ اوامره ، ولا تسعى لتحمله على ما هي تريد في تنظيم خططه ؛ بل تتناول الامر وتسارع الى العمل بهِ بلا تردد ، ولا تذمر ، ولا تسويف ، ولا موازبة ، ولا تأفف ، ولا تقبيح ؛ بل برضى وقبول وارتياح وسرور . ولقد قال القديس برنردس في ذلك : « اذا اشتهيت امراً ، وسعيت في سرك او في علانيتك الى حمل مرشدك على ان يأمرك بالقيام بهِ ، فلا تتوهم بانك قد

اطعته ، بل لقد خدعت نفسك بما استصدرته من اوامره . لانك تكون قد حملته على الخضوع لرغائبك انت وليس لارادته » .

اما الدرجة الثالثة في فضيلة الطاعة المسيحية فهي من شأن الكاملين . وهي تقوم بانهم لا يكتفون بالاسراع في تنفيذ الاوامر الصادرة اليهم من رؤسائهم ، والى اخضاع ارادتهم ايضاً لارادتهم ، اكراماً لله وتشبهاً بالسيد المسيح معلمهم ومثالهم ، بل انهم يخضعون ايضاً رأيهم لرأي رئيسهم ، فيتجردون من وجهة نظرهم ، ويضحّون بطريقة ادراكهم للامور وبنوع ميولهم الى تدبيرها ، ليعتنقوا خطة رئيسهم بلا قيد ، ولا شرط ، ولا فحص ، ولا تمحيص ، بل يعملون على اقناع ذواتهم بانها هي الخطة المثلى في الرأي والتدبير .

اما اذا دعوا الى ابداء رأيهم ، او كان لهم حق في ذلك ، او كانت واجبات وظيفتهم تقضي بهِ ، فمن الحكمة ان لا يتوانوا في استعمال ذلك الحق لانه يصبح واجباً وعملاً مفيداً .

ولقد قال المعلم الروحي الكبير القديس اغناطيوس منشيء الرهبانية اليسوعية : « اذا ما رغب احد في تضحية ذاتهِ على النوع الاكمل وجب عليه ، بعد ان يكون قد ضحى في سبيل الله ارادته ، ان يضحّي ايضاً في سبيله تعالى عقله وادراكه وطريقة فهمهِ . . . » . ثم يبين القديس اغناطيوس كيف يريد الراهب

الكامل ليس ما يريده رئيسه فحسب ، بل يصير مع رئيسهِ شعوراً واحداً ، وفكراً واحداً ؛ ويُخضِع لوجهة نظر رئيسهِ وجهةَ نظره بقدر ما يمكن الارادة التي خضعت ان تحمل معها العقل ايضاً على الخضوع . ان العقل معرض للخطإ ، وكذلك الارادة ايضاً . فكما نُخضِع ارادتنا لارادة رئيسنا صوناً لها من ان تضل الطريق ، هكذا يكون ايضاً من شأن عقلنا . ويردف القديس اغناطيوس بقوله : « حذراً من وقوع رأينا في الضلال نعتنق رأيَ رئيسنا » . ثم قال : « اذا ما خالج فكرك رأي مخالف لرأي رئيسك ، فابتهلتَ بالصلاة الى الرب يسوع ، وبعد الابتهال رأيت انه يسوغ لك ان تفاتحه بذلك ، فلا بأس عليك . ولكن ينبغي لك قبل مباحثتهِ بهذا وبعدها ايضاً ان تلبث هادئ البال ، مستسلم الارادة ، مستعداً ليس لاتمام امر رئيسك فحسب ، وان خالف بذلك وجهة نظرك ، بل ان تعتقد ان ما يقرره هو الافضل والاصوب . لان مشاعرك واميالك قد تضلّلك » .

فهذا ما يسميه المعلمون الروحيون « الطاعة العمياء » التي تضع الانسان بين يدَي رئيسهِ كأنه « جثة هامدة » ، لا عمل لها خاصاً بها ، ولا رأي لها في امر من امورها ؛ بل الرأي والتفكير والتدبير للرئيس ، والخضوع والعمل والتنفيذ على الراهب التابع له . ولكن ليس معنى هذا ان الانسان يتجرد عن عقله وارادتهِ

وشخصيتهِ بحيث انه يصبح آلة صماء لا فهم لها ولا ادراك . والا لما بقيَ له شيء من شرف الطاعة واجورها . بل يبقى بالاحرى متمتعاً بكامل قواه العقلية ويعمل بها ؛ انما يخضعها ، اكراماً لله ، لارادة وتدبير وفهم وحكمة رئيسه . وبهذا يسمو في فضيلة الطاعة ، ويحسب له الله ذلك فضيلة وفضلاً .

البحث الثالث

في صفات الطاعة المسيحية

ان الطاعة المسيحية لكي تكون حقاً فضيلة سامية يجب ان تتحلى بصفات ثلاث : ان تكون في غايتها سماوية ، اعني فائقة الطبيعة، وفي عملها شاملة ، وفي طريقتها كاملة .

اما الطاعة السماوية فهي التي ترى في شخص الرئيس صورة الله وشخص السيد المسيح الذي هو ينبوع كل سلطان ومنه كل رئاسة . فتخضع له خضوعها لله ولاجل اكرامه تعالى ومحبته . وهذه النظرية تسهل لها المصاعب ، وتذلل العقبات ، لا بل تجعل مشقة الطاعة عذبة مستحبة . لانه لا احد يأنف من الخضوع

لله ؛ والطاعة اساسها ان السلطان هو لله ، وان الرئاسات تصدر منه ، وان مرجع الطاعة اليه ، لان الرئيس يمثله :

« ايها البنون اطيعوا والديكم في الرب فإن هذا هو العدل » [١] .

« ايها العبيد اطيعوا ساداتكم الجسديّين ... كطاعتكم للمسيح . لا بخدمة العين كمن يرضي الناس بل كعبيد المسيح عاملين بمشيئة الله من قلوبكم خادمين بنية صالحة كخدمتكم للرب لا للناس » [٢] .

ولقد كتب القديس اغناطيوس الى رهبانه اليسوعيين في البورتغال رسالة شائقة في فضيلة الطاعة بقيت الى يومنا هذا دستور الرهبانية اليسوعية وشعار مجدها وقوتها . ولقد جاء فيها : « ان رغبة قلبي هي في ان تحرصوا بكل دقة ونشاط على ان تروا سيدنا يسوع المسيح في كل رئيس من رؤسائكم ، وان تقدموا في شخصه بكل اجلال واحترام ما يجب عليكم للعزة الالهية من الاعتبار والاكرام ... فلا ينظر رهباننا الى شخص الرئيس الذي يخضعون له ، بل الى السيد المسيح متجلياً فيه ؛ وليكن هذا الرب يسوع غاية سعيهم وطاعتهم . لاننا اذا ما خضعنا للرئيس فإن خضوعنا له يجب ان يكون ليس لاجل

(١) افس ٦ : ١ (٢) افس ٦ : ٥ – ٧

فطنتهِ ، او كماله ، او لاجل اي صفة اخرى من الصفات التي ربما جعلها الله فيه ، ولكن للسبب الاوحد انه نائب الله لدينا ، وانه قائم مقامه لابلاغ اوامره تعالى الينا . لذلك فلو بدرت منه قلة فطنة ، او قلة دراية ، فلا يحق لنا ان نتوانى في الانقياد لأوامره ، لانه ، لكونهِ رئيساً ، يمثل ذاك الذي هو الحكمة الالهية المنزهة عن الغلط ؛ وهذا الرب جدير بان يعوض عما يكون قد نقص في رسوله ونائبه من فضيلة ، او من مزية اخرى من المزايا الحسنة اللازمة له » .

تعليم سام ، ومبادئ مسيحية قويمة ، لا يمكن العقل السليم ان يعترض عليها . لانه لو كانت طاعتنا لرئيسنا هي نتيجة صفاته ومؤهلاته فلا يكون لنا اولاً فضل الطاعة . لانه لا احد يأنف من الخضوع لمن هو ارفع منه منزلة ، واوسع خبرة ، واكثر جاهاً ، واقدر علماً ، وابرع فصاحة ، واشد شكيمة . ثانياً لا يمكن ايضاً ان تكون طاعتنا ثابتة ، بل تصبح متقلبة ، متقلقلة ، ذاهبة مع كل ريح ، تابعة لظروف الزمان والمكان والاشخاص . وبهذا دمار الطاعة ، وخسارة فوائدها الجليلة على الارض ، وحرمان اجورها الابدية في السماء . لان من يخضع للناس يبغي ارضاء الناس ، فيأخذ اجره من الناس .

لذلك وجب ان تكون الطاعة فضيلة سماوية ، فلا نريد بها

الاوجه الله ، والخضوع لاوامره تعالى ، واكرام سلطانه ورحمتهِ وحنانه. اما الرئيس فهو سفيره لدينا ، ورسوله ونائبه والمسلط باسمهِ علينا.

والمزية الثانية التي يجب ان تتحلى بها الطاعة السامية هي ان تكون شاملة لكل القوانين المفروضة علينا ، ولكل الاوامر الصادرة الينا من رؤسائنا. فمن كان اميناً في شيء ومهملاً لسواه كانت فضيلة الطاعة فيه ناقصة. فاذا اردنا ان نسمو في ممارسة هذه الفضيلة الجليلة علينا ان نعتنقها كلها. اما اذا اطعنا هذا وعصينا ذاك من رؤسائنا ، لان الاول احب الينا ؛ واذا حفظنا هذا ونبذنا ذاك من قوانيننا ، لان الاول اقرب الى اميالنا ، فلا تكون طاعتنا شاملة ، ولا تكون اذاً سامية.

ولقد كتب القديس فرنسيس السالسي يقول: « ان الطاعة تحملنا على الخضوع بحب وسذاجة قلب للاوامر الصادرة الينا من رؤسائنا بقطع النظر عما اذا كانت الطريقة التي اعطيت بها تلك الاوامر هي مستحبة او مستهجنة. لانه طالما للآمر الحق المشروع في اصدار امره ، وطالما ان خضوعنا له يكون سبب اتحادنا بالله ، فسيأن لدينا ان يكون قد صدر الامر من هذا او من ذاك او كيف صدر.

اما اذا اقدم الرئيس على فرض شيء مخالف لوصايا الله

واحكامه فالواجب يقضي بان لا نطيعه . والا تكون طاعتنا له غاشمة وجاهلة .

واذا امرنا رئيسنا باتباع خطة معينة ورأينا نحن ان غيرها افضل منها ، واصوب ، وانفع ، فالكمال يقضي بان نترك خطتنا لنتبع وجهة نظر رئيسنا . لان الله هو الكفيل بان ينجح عملنا اكثر بكثير مما لو اتبعنا طريقتنا . لانه تعالى يؤثر الطاعة ، وينجح عملها ، ويبارك نتائجها . ان الغلبة في طريق الطاعة ، كما يقول القديس فرنسيس السالسي ، وقال الروح القدس : « المطيع يتكلم كلام المنتصر »[1] . قد يتعرض الرئيس للغلط في كيفية ادارته ، ولكن الانسان الخضوع لا يغلط ابداً في انقياده لطريقة رئيسه .

اما الصفة الثالثة للطاعة الحقة فهي ان تكون مكمَّلة ، فلا تفرق بين امر وامر ، ولا تأخذ بجهة وتترك اخرى ، ولا تميز بين اقسام القانون او الاوامر فتقبل منها شيئاً وتترك شيئاً . ولا تنظر الى امر ما فتقسمه ، وتقوم باتمام ما تريد منه وتترك ما لا تريده .

والطاعة الكاملة سريعة الانقياد ، لان من مزايا الحب الاسراع في اتمام طلب المحبوب . فلما كانت الطاعة الكاملة تسير بدافع الحب الالهي كان لا بد لها من الاسراع في اتمام اوامر الرئيس بدافع حبها لله واكرامها له .

(1) *Vir obediens loquetur victorias.*

والطاعة الكاملة تكون ثابتة ، فلا يعتريها وهن ولا ضعف ولا ملل ولا جمود . وفي هذا يكون حقاً تاماً .

والطاعة الكاملة تكون فرحة مشرقة ، « لان الله يحب المعطي المتهلل » [١] . فمن عادة الحب ان ينشر الفرح في القلب . فمن أحب الله أطاعه بفرح ، واستعذب في سبيله كل صعوبة وكل عقبة .

البحث الرابع

في فوائد فضيلة الطاعة

ان فضيلة الطاعة هي الفضيلة التي يرتاح الله اليها اكثر من غيرها . لانها تجرد الانسان من ارادته واميالهِ الخاصة ، ورغباتهِ الذاتية ، في سبيل خضوعه لأوامر الله تعالى واحكامه . فبها يتم اتحاد الانسان بالله اكثر من سواها من الفضائل الادبية . ان محبة الانسان نفسه ، وايثاره ذاته ، لهو اكبر عائق له في اتجاههِ الى الله . اما الطاعة فإنها تجرده من ذاتهِ وارادتهِ ، وتفسح الطريق

(١) ٢ كور ٩ : ٧

امامه الى خالقهِ والههِ . وبقدر ما يضحّي الانسان لاجل الله من ارادتهِ وحريتهِ واستقلاله يكون مستحقاً للاجور في حياته وعمله . هذا ما فعله المخلص الالهي في بستان الزيتون لما هتف نحو ابيه السماوي وهو في اشد مرارة الحزن وقال : « لا تكن مشيئتي بل مشيئتك »[1] .

لذلك كانت الطاعة افضل من الفقر ، وافضل من العفاف ، وافضل من التقشف . لان الانسان يضحّي بالفقر خيراتِ الدنيا ، وبالعفاف ملذات الجسد ، وبالتقشف انبساطه وراحته ، اما بالطاعة فإنه يضحّي بما هو اكرم واثمن كل من هذا ، وآثر من غيره لديه . يضحّي بارادتهِ وحريتهِ وشغفهِ باستقلاله . « فالطاعة هي (حقاً) خير من الذبيحة »[2] . فالطاعة اذاً هي ، من بعد العبادة ، اكرم الفضائل الادبية لانها تجعل ارادتنا دائمة الاتحاد بارادة الله ، وقلبنا دائم الحب له ، فلا نخرج عن دائرة اوامره وتدبيره واحكامه والتعلق بهِ .

الطاعة هي ايضاً ام الفضائل الادبية ، والحارسة لها ، الساهرة عليها . فالطاعة والمحبة واحد . ان من شأن الحب ان يوحِّد الافكار والرغبات في المتحابين . فمحبتنا لله معناها طاعتنا له ، بحيث ان رأيه يصبح رأينا ، وفكره فكرنا ، وارادته

(١) لوقا ٢٢ : ٤٢ (٢) ١ ملوك ١٥ : ٢٢

ارادتنا ، فلا نبغي سواه في كافة مطالبنا ورغائبنا . واذ نصير الى هذه القمة من المحبة يعود هو ايضاً فيحقق كل رغباتنا ، ويتمم كل ما يريده قلبنا . « من كانت عنده وصاياي وحفظها فهو الذي يحبني ، والذي يحبني يحبه ابي ، وانا احبه واظهر له ذاتي »[١] . وايضاً : « ان انتم ثبتم فيَّ وثبت كلامي فيكم تسألون ما شئتم فيكون لكم »[٢] .

والطاعة هي ام سائر الفضائل لان بها تتم كلها . ليس من فضيلة ادبية او الهية الا والله يأمر بها ، او يدعو اليها ، او يرغب فيها . فالطاعة تقدس ارادة الرب ، بل مشوراتهِ ، واقل رغبة من رغباتهِ . لان الطاعة هي ثمرة المحبة ، والحب لا يفرق بين اوامر الحبيب واشارة من اشاراته ، او اصغر رغبة من رغباتهِ ، او اقل نظرة من نظراتهِ .

لا بل ان الطاعة هي نوع من الاستشهاد . واذا كملت وطال عهدها وملأت الحياة ، فتكون افضل من الاستشهاد . لان الاستشهاد هو تضحية الحياة مرة واحدة ؛ اما الطاعة الدائمة فهي تضحية ما هو اولاً اثمن من الحياة ، لانها تضحية الرأي والارادة والحرية والآمال الذاتية ؛ ثم هي تضحية هذا كله ليس مرة بل كل مرة ، ليس ساعة بل كل ساعة ، وكل يوم ، ومدى الحياة .

---

(١) يوحنا ١٤ : ٢١ (٢) يوحنا ١٥ : ٧

ان معلمي اللاهوت يسمون الحياة الرهبانية استشهاداً ؛ لان الحياة الرهبانية هي قبل كل شيء حياة الطاعة ، اعني حياة التجرد من الارادة الذاتية. ويقول القديس اغناطيوس في ذلك: « بالطاعة نضحّي لله بافكارنا وآرائنا وارادتنا ، ونقدمها في كل وقت وفي كل ساعة ذبائح مرضية على هياكله تعالى . وهكذا بدل الارادة الذاتية في الانسان لا يبقى سوى ارادة يسوع المسيح التي تتجلى بارادة الرئيس . فلا يضحّي المرء فقط بحياته اطاعة لله ، بل بكل ما هو عزيز عليه ايضاً »[1] .

وكان القديس باخوميوس يقول لاحد رهبانه ، وكان هذا يرغب في شرف الاستشهاد : « كفى بحياة التقشف والتكفير استشهاداً . والاستشهاد الأكبر هو الثبات على الطاعة طول الحياة . لان ذلك خير من الموت بحد السيف في لحظة واحدة»[2] .

الطاعة هي ايضاً ينبوع السلام والفرح والطمأنينة في القلب . فهي تبدد الظلام وتقصي الارتياب والشكوك . لانها ترسم للمرء منهاج الحياة وتضيء له الطريق ، فيسير بطمأنينة وثبات وانتظام . الطاعة هي عنوان الحياة المسيحية الصحيحة وطريق القداسة الحقة الاكيدة . لان ارادة الله تتجلى امامنا

---

(١) رسالته الى الرهبان في البورتغال (٢) نقلاً عن القديس فرنسيس السالسي في الاحاديث الروحية .

بالوصايا ، وبقوانين دعوتنا ، وبارادة رئيسنا . فاذا ما حفظناها واحترمناها سرنا بلا تردد ولا حيرة ، بل بارتياح وطمأنينة في سبيل محبة الله ومرضاته ونعمته . وهكذا يصبح سيان عند الانسان المكمّل في الطاعة نجح في عمله ام لم ينجح . ليس لعدم المبالاة ، او الجمود او الكسل ، لان الرجل المطيع يرغب رغبة اكيدة في انجاح ما امر باتمامه ، اكراماً لله ، وعملاً بارادة رئيسه ، وقياماً بواجب قوانين رهبانيته ، او جمعيته ، او مسلكه ؛ بل انه اذا لم يحزن لعدم نجاحه ، او لقلة ظهور نجاحه ، فلأنه يكون قد طلب في عمله مجرد مرضاة الله والخضوع لارادته . فلا يضطرب لما يحصل له من نتائج مساعيه ومن ثمار اجتهاده .

لذلك يرى الرجل المطيع ابواب السماء دائماً مفتوحة امام عينيه فيستمد منها الانوار ، ويسير نحوها بخطى ثابتة اكيدة بطمأنينة وارتياح . لان الطاعة تحل الانسان من قيود الشك والاضطراب بما ترسمه له في كل وقت بجلاء من انواع الواجبات ؛ فلا يبقى في العقل شيء من الحيرة في كيفية طلب الكمال .

وما احلى ما تقول القديسة الناعمة تريزيا الطفل يسوع في سيرة حياتها عن الطاعة :

« يا الهي ، آه كم ينجو من الاضطراب والتشويش ذاك الذي ينذر نذر الطاعة . يا ما اسعد الراهبات البسيطات اللواتي يسرن

في حياتهن بارادة الرؤساء . لانهن يعلمن العلم الاكبر بانهن في الطريق القويم سائرات . فلا خوف عليهن من الخطإ ، حتى ولو تأكد لديهن بان الرؤساء قد اخطأوا . ولكن اذا ما هنَّ حِدْنَ عن هذا المنهج الصحيح ضللن الطريق وسرن في مفازات وعرة مقفرة تنقصها مياه النعمة »[١] .

اخيراً ليس كالطاعة فضيلة رابحة تكسب الاجور من بعد ان تفيض في القلب الطمأنينة والسرور . لاننا اذ نتمّ بأمر الطاعة وبروح الطاعة ، لاجل الله ومحبة له ، كل عمل من اعمالنا ، من الصباح الى المساء ، ومن المساء الى الصباح ، تصير حياتنا كلها ، في كل دقائقها وكل تفاصيلها ، فعلَ محبة عظيماً دائماً ، يتكرر بلا انقطاع ، ويملأ خزائننا السماوية اجوراً دائمة ابدية . ولقد شبَّه المعلمون الروحيون رجال الطاعة باناسٍ راكبين سفينة تسير بهم في البحار وهم عنها لاهون او هم نائمون ؛ فيقتربون يوماً بعد يوم من الميناء وهم لا يدرون .

***

فالطاعة هي الفضيلة الكبرى السامية السماوية ؛ هي الفضيلة اللذيذة المسيحية في الحياة الاجتماعية . بل هي ام الفضائل ونورها وحارسها . فهي اساس النظام والنجاح والفرح في حياة المجتمع ؛

---

(1) *Histoire d'une âme, ch. IX, p. 196*

كما انها سبب الطمأنينة والسلام والاجور الكثيرة في حياة الفرد. ولقد اوحى الله يوماً الى القديسة كاترينا السيانية عن ارتياحه الى اعمال فضيلة الطاعة فقال تعالى اسمه :

« ما اطيب وما اكرم فضيلة الطاعة . فأن فيها الفضائل كلها . فالمحبة كونتها وانبتتها . والايمان جعل أسه عليها . . . من اتخذ الطاعة رفيقة لحياته فقد عاش بطمأنينة وهناء . وهو لا يحزن لإعراض الدنيا عنه ، لان الطاعة علمته ان لا يشتهي شيئاً سواي . وانا استطيع ، لو اردت ، ان اشبع كل رغائبه . ايتها الطاعة ما ابهاكِ وما احلاكِ . انكِ تصلين بلا عناء الى ميناء السلام . انتِ شبيهة بابني الحبيب الكلمة . وتعبرين بحر هذا العمر على سفينة الصليب الكريم ؛ لانك متأهبة دائماً لمواجهة الصعاب وكل عذاب من غير ان تحيدي عن وصايا ابني الكلمة وتعاليمه الالهية . عظيمة انتِ في ثباتك ؛ وعظمتك هي جبارة ؛ لانك تصعدين من الارض ، وتأتين ابواب السماء ، فلا يفتحها سواك »[1] .

---

(١) كتاب المحادثات (Dialogue) ، المجلد الثاني ، صفحة ٢٥٩ - ٢٦٠

﴿ حادث تاريخي ﴾

شجرة الطاعة

في وادي النطرون الصحراوي الممتد الى الجهة الغربية من وادي النيل السعيد يرى المسافر شجرة وحيدة منفردة قائمة بين الصخور الجردا. في تلك الرمال القاحلة . والناس يدعونها الى اليوم شجرة الطاعة . ودونك تفصيل الحادث كما يرويه تاريخ رهبان القديس باخوميوس .

اراد رئيس الرهبان يوماً ان يمتحن طاعة يوحنا احد الرهبان الفتيان ، فأمره بان يأخذ عصاه ويزرعها بعيداً ، بعيداً عن الدير ، في تلك الصحاري الموحشة القاحلة ، وان يتعهدها كل يوم بالماء صباحاً ومساء .

فأخذ يوحنا العصا وذهب فزرعها كما أمره رئيسه ، وجعل يحمل اليها الماء كل يوم ويسقيها ، غير مبال بأنها عصا يابسة لا امل في ان تدب الحياة فيها . وبقي مثابراً على عمله زماناً طويلاً بروح الطاعة ذاته الذي بدأ عمله به .

الا ان الله اراد ان يكافئ طاعة هذا الراهب الورع الذي عرف ان يتجرد عن ارادته وعن فهمه في سبيل القيام باوامر رئيسه . فأرسل الحياة في تلك العصا . واورقت وازهرت . وهكذا بقيت الى يومنا هذا شاهداً دائماً على رضى الرب عن الطاعة الكاملة التي لا تتوانى في عملها ، ولا تعترض على تدبير رئيسها ، محبة له تعالى ولاجل مرضاته .

الفصل الخامس

في فضيلة الشجاعة

ان فضائل العدل والعبادة والطاعة تنظم علاقاتنا مع الله ومع قريبنا . اما الشجاعة فانها تختص بنا ، ومرجعها الينا مع ذواتنا . وسنبحث في ماهيتها ، وفي درجاتها ، وفي كيفية الحصول عليها وتقويتها ؛ ثم نتكلم عن كل فضيلة من الفضائل التابعة لها المتفرعة عنها .

البحث الاول

في ماهية فضيلة الشجاعة

الشجاعة هي فضيلة ادبية مسيحية سماوية تثبت النفس في طلب ما استعصى مناله من الصلاح لتقوم بعمله بلا تردد ولا وجل ، حتى ولو تعرضت للموت .

وعملها مزدوج . فهي تبعث في المرء النشاط والاقدام ؛

لكنها تنظم ايضاً قوة نشاطه واندفاعه ، لئلا تحمله حماسته على الطيش والتهور . فالشجاعة هي قوة الارادة في مواجهة المصاعب والتغلب عليها . فهي البطولة المسيحية في كل درجاتها وانواعها . هي الاقدام على الاعمال الصعبة الشاقة؛ وفوق ذلك هي الصمود الراسخ امام هجمات المحن والشدائد . ان طريق الكمال عسر وعر ضيق ، كما قال الرب [1] . فلا بدّ للسائرين فيه من قوة العزيمة ، وشجاعة القلب لاقتحام المصاعب التي تواجههم في حياتهم لدى قيامهم بواجباتهم .

فاذا كانت الغاية من الشجاعة زمنية ارضية ، كانت هذه الشجاعة فضيلة طبيعية . ولقد تبلغ احياناً بالمرء اقصى حدود البطولة ، كما يحدث للجند مثلًا في ساحات الوغى ، ولبعض الهيئات في الوظائف الخطرة ، نظير جماعات الاسعاف ، والأمن العام ، والمطافئ ، والاطباء ، والممرضين ، والطيارين ، ومن كان على شاكلتهم . فبطولة هؤلاء تستحق كل ثناء وكل اعجاب ؛ الا انها لا حق لها في الاجور السماوية لما أنّ الذين يقومون بها يطلبون الفخر العالمي والمجد الزمني ، او مجرد القيام بواجب وطني ، او اجتماعي ، او طائفي ، او حزبي ، من غير ان يكون في ذلك لله من نصيب .

(١) متى ٧ : ١٤

اما اذا كانت الغاية من الشجاعة اكرام الله ، او القيام بواجب خدمته وعبادته ومحبته مهما اشتدت المصاعب وعصفت الزوابع ، فتكون الشجاعة اذ ذاك مسيحية ، وفضيلة سماوية .

قلنا ان الشجاعة ليست هي الاقدام على صعاب الامور فحسب ، بل هي الثبات في ذلك الاقدام والاستمرار على الصبر في الشدة . فالمسيحي الشجاع لا يترك محبة الله ، ولا يحيد عن عبادته ، ولا يتوانى في تتميم واجباته ، ولو اجتمعت عليه الشدائد ، وتألبت عليه المصاعب ، وانتابته الامراض ، وتراكمت عليه المحن ؛ ولو اصبح عرضة لانواع الهزء والسخرية والافتراء والنميمة ؛ بل يبقى متمسكاً بمحبته لله ، معتصماً برجاء خلاصه ، سائراً بلا تردد في طريق واجباته . وهكذا يصمد للبلوى من اجل الله صمود الابطال مهما تقلبت عليه صروف الدهر ، وتلونت الاحوال .

وان احتمال الشدائد لهو اكرم واعظم من الاقدام على اقتحامها ، لانه يتطلب عزيمة اقوى وتجلداً امضى . وان التصبر والتجلد لأصعب من المهاجمة والاقتحام ، كما يقول توما اللاهوتي . Sustinere difficilius est quam aggredi . وسببه : ان الصمود للمهاجم معناه ان المهاجم اقوى واعز . فالمهاجم يتعرض فقط للمساوئ التي هو اختارها ولم تحل بعد عليه ؛ اما المدافع فانه

يتخبط في مساوئه ومصاعبه. والتصبر معناه الجَلَد الدائم على الشدائد؛ اما الاقدام على صعاب الامور فيحمل وطأتها زماناً يسيراً. لذلك كانت الشجاعة في الاحتمال اشد مراساً واكثر اجوراً من الشجاعة في الاقدام على صعاب الاعمال. فان من اقعدته الامراض مثلاً عن العمل زماناً طويلاً، او من صار عرضة لهاجمة التجارب اياماً وشهوراً بل سنين وسنين، او من كان غنياً فافتقر، او عزيزاً فذلّ، او كان في نعمة فزالت عنه، او كان له عزيز فنأى عنه، او كان له وحيد او معين او سند او رفيق فخسره. فكَم يلزم مثل هؤلاء من الشجاعة المسيحية لكي يصمدوا للشدائد، ويتحملوا المصاعب، ويخضعوا لاحكام الله، او لكي يباركوا اليد التي ربما يتراءى لهم انها تقسو عليهم وتضطهدهم. واروع مثال على ذلك صبر ايوب وشجاعته. فانه رغم ما فقده من خيراته، ومن اولاده، ومن صحته، ومن جاهه، ومن سائر نعيمه، بقي معتصماً بالله، متكلاً على مراحمه، مستسلماً بلا ملل ولا كلل لمشيئته واحكامه. وعندما خارت قوة امرأته امام محنتها اتته شاكية باكية ساخطة تجدف على الله وتدعوه هو ايضاً لكي يشاركها في ثورتها وتجديفها، اجابها بشهامة بقيت مثلاً اعلى لمن اعرضت عنهم الدنيا: «انما كلامك كلام احدى السفيهات أنقبل الخير من الله ولا نقبل منه

الشر [١] ... الرب اعطى والرب اخذ فليكن اسم الرب مباركاً » [٢] .

ومن الشجاعة الكبرى ايضاً حسن القيام بالواجب اليومي بلا كسل ولا توان ولا ملل ولا انقاص ولا تأفف ولا تذمر ؛ بل بامانة وثبات وقوة عزيمة ، وتساوٍ في النفس ، وهدوء في العاطفة ، وقوة في الارادة ؛ رغم المصاعب والمتاعب ؛ من غير ان نعتمد على اعجاب الناس ومن غير ان نبالي بسخطهم وازدرائهم ، او نطمع في رضاهم ، او نخاف من غضبهم ؛ بل محبة لله ، ولاجل وجه الله . ان من وصل الى هذه الذروة من كمال الشجاعة المسيحية كان جديراً بان يحصى مع عظماء الابطال . ولقد اصاب البابا لاون الثالث عشر لما قال : ايتوني براهب يحسن القيام بكل واجباته اليومية فأطوّبه واعان قداسته .

---

(١) ايوب ٢ : ١٠ (٢) ايوب ١ : ٢١

البحث الثاني

في درجات فضيلة الشجاعة

الشجاعة درجات وكمالات . فالمبتدئون في الكمال المسيحي يمارسون الشجاعة بأن يكونوا اولاً دائمي الاستعداد لمقاومة التجارب التي تعرّضهم للخطايا الثقيلة، فيصمدون لها مهما اشتدت عليهم وطأتها ، وتتابعت هجماتها . حتى لا يبالون بالاخطار ، ولا يتوارون امام المتاعب ، بل يحافظون بكل قواهم على نقاوة قلوبهم ، وعلى جمال النعمة في نفوسهم ؛ لانهم موقنون بان متاعب الحياة باسرها وكل شدائدها «لا تقاس بالمجد المزمع ان يتجلى فينا» ، حسب قول الرسول [١] . لذلك تراهم يؤثرون احتمال كل شدة ، لا بل كل شر زمني ، في سبيل محافظتهم على رضى الله ونعمته ، وقياماً بواجباتهم كمسيحيين حقيقيين .

ثم انهم لا يهابون انتقاد الناس لهم ولعباداتهم ولقيامهم بواجبهم ، ولا يقيمون وزناً لكلامهم وتهكمهم ، ولا يبالون بما يتقول الضعفاء بالايمان عليهم وعلى تقواهم وصلاحهم ، ولا يستسلمون للحياء البشري امام زملائهم واقرانهم ، ولا امام رؤسائهم واسيادهم ، بل يذهبون في طريقهم غير هيابين ، ولا

---

(١) رومية ٨ : ١٩

خائفين او متزعزعين في اعلان مبادئهم المسيحية والمحافظة عليها . والحق يقال ان هذا ليس بالشيء اليسير . وكثيراً ما تكون الشجاعة في مثل هذه الاحوال اكثر بطولة منها امام الموت في ساحات الوغى . لان سهام العيون الساخرة ، ولواذع الالسن المتهكمة ، هي اشد وقعاً على القلوب من رصاص البنادق ، وطعن السيوف في الثورات والحروب .

ولقد يضطر المرء الى شجاعة كبرى حينما يتنازعه عاملان قويان ، عامل الواجب وعامل الحب . فالمسيحي الحقيقي يضحّي بالصداقة وبالحب في سبيل الواجب وخدمة الرب ؛ لان الله احق من الناس بان يحب ويخدم ويطاع . وان الصديق الذي يبعدنا عن القيام بواجباتنا الروحية او الادبية او الاجتماعية لا يبقى صديقاً بل يصبح عدواً . وقد قال الرسول لأهل غلاطية : « العلّي استعطف الناس ام الله ! أأطلب ان ارضي الناس ؟ اني لو كنت بعد ارضي الناس لمَا كنت عبداً للمسيح » [١] . وفي هذا المعنى سبق وقال رب المجد : « لا تظنوا اني جئت لأُلقي على الارض سلاماً . لم آتِ لالقي سلاماً لكن سيفاً . اتيت لافرق الانسان عن ابيه والابنة عن أمها والكنة عن حماتها . واعداء الانسان اهل بيته » [٢] . لان محبة الاهل قد تحملنا احياناً على اهمال

(١) غلاطية ١ : ١٠ (٢) متى ١٠ : ٣٦

واجباتنا نحو الله ونحو قريبنا، فيصبح اهلنا اعداء لنا. حينئذ تنزل الشجاعة المسيحية الى الميدان وتحملنا على تفضيل الله على اقربائنا واصدقائنا. وهكذا لا نترك قداس الاحد والعيد لاجل زيارة صديق؛ ولا نهمل دعوتنا الرهبانية لاجل ارضاء اب، او خوفاً من دموع ام، او طمعاً بخيرات زمنية؛ ولا ندوس واجبات الصيام هرباً من نظرة استخفاف او كلمة تعيير. فالشجاعة هي التي تدفعنا الى الانتصار لله ولشرائعه ولوصاياه ولوصايا كنيسته.

وماذا نقول فيمن يضحّي بواجباته الدينية او العائلية، او الوطنية، في سبيل شهرة عالمية، او منافع محرمة زمنية. ان البعض تسكرهم خمرة الجاه وتطرب آذانهم تصدية الاستحسان فيستسلمون لها، ويتركون واجباتهم، ويخونون ضمائرهم وعقائدهم. فمثل هؤلاء تلزمهم شجاعة قوية ليفوزوا على جماح عواطفهم ومطامعهم، ويقهروا اميالهم، ويصمدوا لهجوم الشهرة الكاذبة عليهم. لان المجد الحقيقي، والشرف الصادق، هو ما يأتي من الله، ومن رضى الضمير؛ وليس من اعجاب الناس، وكثرة الاموال، وتصفيق الجماهير. «من افتخر فليفتخر بالرب»[١].

اما النفوس المتقدمة في الكمال المسيحي فانها تستنير في اعمال

(١) ٢ كور ١٠ : ١٧

شجاعتها بشجاعة السيد المسيح . فتتأمل في حياته وتسعى لتقتفي اثره .

ان الفادي الالهي من يوم ميلاده الى يوم وفاته كان مثلاً اعلى للشجاعة المسيحية في كل معانيها وكل مظاهرها . فما كاد ينبثق من احشاء والدته الفائقة الطهر والقداسة انبثاق الفجر من افق الدنيا حتى قدَّم ذاته لأبيه السماوي ذبيحة مرضية ، ليستبدل بذبيحة نفسه ذبائح العهد القديم الرمزية ، ويكفِّر تكفيراً كاملاً صحيحاً عن البشرية . وهذا ما حدا به ليسير منذ بدء حياته في طريق الطاعة والفقر والتقشف والصبر ؛ ويتحمل انواع الاضطهاد ، مع مشقات الاسفار ؛ ويضيق على نفسه مدة ثلاثين سنة في قرية حقيرة ، وحياة شاقة متعبة ، بل هي في اعين الناس خاملة .

ولكم تتجلى الشجاعة في حياته العلنية . يقضي معظم اوقاته صائماً ، ويحيي الليالي في الصلاة ، ويطرد الشيطان بشهامة عن طريقه ، ويهاجم معلمي الناموس في سخافاتهم ، ويفضح الفريسيين في كذبهم وكبريائهم وريائهم ، ولا يعتمد في تبشيره وتعليمه وعجائبه الا على التواضع والتأمل والرحمة ، وتمجيد الآب السماوي ؛ ولا يسعى الّا الى حمل النفوس على محبة الله ومحبة بعضها لبعض ؛ ويعمل دائماً على نشر روح السلام بين الناس ،

واصلاح ما فسد من اخلاق البشر ، مزدرياً بالشهرة العالمية الحقيرة الزائلة ، ومحذراً تلاميذه ومن سوف يؤمنون به من خداع الدنيا واكاذيبها .

فهو الذي كان خاضعاً ليوسف ومريم مدة ثلاثين سنة [١] .

وهو الذي هزم المجرب اذ قال : « اذهب يا شيطان » [٢] .

وهو الذي وبّخ هامة رسله لما رأى ان محبته له تريد ان تبعده عن واجباته فقال له : « اذهب خلفي يا شيطان لانك لا تفطن لِمَا لله لكن لِمَا للناس » [٣] .

وهو الذي زجر الرسولين حبيبيه يعقوب ويوحنا لما غضبا على السامريين وارادا ان يطلبا نار السماء لتنحدر عليهم وتفنيهم فقال يعنفهما : « لستما تعلمان من اي روح انتما ، فان ابن البشر لم يأتِ ليهلك نفوس الناس بل ليخلصها » [٤] .

وهو الذي صبَّ الويلات على الفريسيين الاشرار اذ كان يقرعهم ويقول لهم : « الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون » [٥] . . .

وهو الذي لما حان الوقت سدّد وجهه الى اورشليم ، وذهب الى الآلام بلا تردد ولا تأخر [٦] .

---

(١) لوقا ٢ : ٥١ (٢) متى ٤ : ١ (٣) مرقس ٨ : ٣٣ (٤) لوقا ٩ : ٥٥و٥٦ (٥) لوقا ١١ : ٤٢ . . . متى ٢٣ : ١٣–٣٦ (٦) مرقس ١٠ : ٣٢

ثم اية شجاعة فائقة اظهر في آلامه. لطموه على وجهه، وجلدوه بالسياط، و كللوه بالشوك، والبسوه لباس المتوهين، وحملوه صليب الاثمة المجرمين، وازدروا به وبملوكيته وبقدرته وبسلطانه، وهزّوا الرؤوس لذكر صلاحه، ودفعوا الشعب الجاهل الغاشم المتقلب الى الهتاف في طلب صلبه وموته، ثم عرّوه من ثيابه، وسمروا بالمسامير الغليظة يديه ورجليه، ورفعوه على الصليب بين لصّين على مرأى ومشهدٍ من امه ومن احبائه. فلم يتذمر، ولم يعترض، ولم يتأفف، ولم يشتم صالبيه، ولم يجدف على الله ابيه؛ بل بقي صامتاً، صابراً، متجلداً. و كان يقدم ذاته ذبيحة تكفير لاجل فداء العالم. ولما فتح فاه سأل الغفران من ابيه لجلّاديه وصالبيه. أليس هذا منتهى البطولة في الشجاعة.

فالنفوس المتقدمة في الكمال المسيحي تأخذ عن الفادي الالهي خطتها في اعمال شجاعتها. فتجعل حياته والامه نصب عينيها في حياتها اليومية، وفي كل عمل من اعمالها. فلا تبدو لها شدة او صعوبة او عاطفة كلل او ملل، إلّا ترى المسيح امامها ينظر اليها ويشجعها؛ فتنتصر عليها. فهذه هي الشجاعة المسيحية والبطولة الحقة بعينها.

اما الكاملون من المسيحيين فان شجاعتهم هي فائقة، وهي موهبة من مواهب الروح القدس، فيسيرون في حياتهم بدافع

هذه الموهبة السامية الفائقة الطبيعة .

ان « موهبة الشجاعة » تكمل فضيلة الشجاعة ، فتمنح الارادة قوة وتدفعها دفعاً في الاعمال العظيمة الشاقة ؛ وتجعلها تتحمل بنشاط ، بل بفرح وابتهاج ، اثقال ومصاعب وشدائد هذه الاعمال الكبيرة الشاقة .

« وموهبة الشجاعة » تختلف عن فضيلة الشجاعة . لان هذه هي ثمرة جهودنا مع مساعدة النعمة . اما الاولى فهي من فعل الروح القدس وحده . فانه يتملك النفس ، ويملأها قوة ونشاطاً ، ويهيئها لتتسلط تسلطاً كاملاً على قواها الصغرى الجسدية فتأسرها وتخضعها لارادتها ، وتنتصر على المصاعب الداخلية والخارجية الصادرة منها او المعتمدة عليها . ان فضيلة الشجاعة يبقى معها شيء من التردد والحيرة والخوف . اما « موهبة الشجاعة » فتصب في القلب الحزم والنشاط والفرح والثقة بالنجاح . لذلك كانت نتائجها افضل وثمارها اغزر .

وكتاب اعمال الرسل يتكلم بجلاء عن هذه الموهبة السامية في كلامه عن القديس استفانوس رئيس الشمامسة اذ يقول [(١)] : « وكان استفانوس مملوءاً نعمة وقوة ... وهو اذ كان ممتلئاً من الروح القدس تفرس في السماء » ... فخاطب استفانوس محفل

(١) اعمال ٦ : ٨ - ٧ : ٢ و ٥٥ و ٥٨ و ٥٩

اليهود بجرأة غير هيابة ، وبشرهم باسم الرب يسوع رغم ما كان يتهدده من الموت . ولما رجموه كان « يدعو ويقول : ايها الرب يسوع اقبل روحي . . . يا رب لا تقم عليهم هذه الخطيئة » .

وموهبة الروح القدس هذه تعطي على الاخص النشاط في العمل والصمود للمكاره . والنشاط يحمل النفس على الاقدام في طلب الامور الصعبة بلا وجل ولا تردد . فهذه الموهبة تمكن النفس مثلاً من اعمال الاختلاء الروحي الكامل في وسط الاشغال العديدة الشاقة . هكذا كان حال القديس منصور دي بول رجل الصلاة وصاحب المشاريع العظيمة ؛ وهكذا كانت القديسة تريزيا مصلحة رهبانيات الكرمل ومنشئة عشرات الاديار . كانت نفساً ساروفيمية بتأملاتها المستديمة واختطافاتها المتواصلة ، وكانت حركة دائمة لا تفتر في الكتابات والتأليف والارشاد والاسفار والسهر على مشترى الاملاك ، وبناء الكنائس والاديار ، وتجهيز الراهبات . . .

وهذه الموهبة تساعد على حفظ العفة الكاملة في وسط بعض الظروف الشديدة الصعبة ، كما حدث للقديسين توما اللاهوتي وكارلوس بروماوس .

وهي تمنح التواضع العميق رغم رفعة الجاه ومظاهر المجد وسمو الشرف ، كما كان حال الملك الفرنسي لويس التاسع .

وهي تجعل النفس تستهين الشدائد ، وتقتحم الاخطار ، وتستخف الموت في سبيل اعلان الحقيقة ، والتبشير باسم الرب يسوع . هكذا كان الرسل ، والاساقفة خلفاؤهم وهذا كان ولا يزال حال الالوف والملايين من الرهبان والراهبات والكهنة والمرسلين والشهداء والمعترفين .

وهي تعطي الجرأة القوية لرجال الله امام الرؤساء العاتين او السلاطين المستبدين ، كما حدث للقديس باسيليوس الكبير ، وللقديس الذهبي الفم . « يلقون ايديهم عليكم ويضطهدونكم ويسلمونكم الى المجامع والسجون وتقادون الى الملوك والولاة من اجل اسمي ... فضعوا في قلوبكم ان لا تفكروا من قبل فيما تحتجّون به . فاني اعطيكم فماً وحكمةً لا يقدر جميع مناصبيكم على مقاومتها ولا مناقضتها »[1] .

وهي تجعل المرء ايضاً يصبر بأناة ورفق على مضض الحياة مهما طالت ، وعلى التجارب مهما اشتدت ، وعلى اليبوسة الروحية مهما استمرت ، وعلى الآلام القلبية مهما مزقت الفؤاد وبرحت . وتحمل على الثبات في حفظ القوانين مهما تعددت وتنوعت وصعبت ، ليس ساعة بل كل ساعة ، وليس يوماً بل كل يوم وكل سنة ، وطول الحياة ؛ فتجعل النفس لا تكل ولا تمل ولا تقنط

(١) لوقا ٢١ : ١٢ – ١٥

ولا تجزع، كما حصل للقديسة تريزيا الطفل يسوع، ولأمها ورئيستها الكبرى القديسة تريزيا الافيلية ، ولرجل الله يوحنا فياني كاهن ارس ، ولرجل المشاريع العظيمة دون بوسكو ، ولسائر الوف القديسين من رجال الكنيسة ورجال الدنيا . فهذا كله نوع من الاستشهاد ، بل هو كل الاستشهاد . لان استشهاد القلب هو اشد وطأة من استشهاد الدم ، وهو لا ينقصه كرامة وشرفاً واجوراً . أليس هذا هو ايضاً حال الالوف من كهنة الرعايا المتواضعين الذين لا يلمعون في الدنيا باسم كبير وعلم زاخر وفصاحة فياضة ، وانما يقضون في خدمة النفوس الموكولة الى عنايتهم حياة استشهاد دائم .

فوهبة الشجاعة هي التي تنبت مثل هذه البطولة المسيحية الحقة المستمرة بكل انواعها ومظاهرها .

وما اروع ما قالت القديسة تريزيا الطفل يسوع في سيرة حياتها : « آه يا امي الرئيسة ، لو كانت آلام الاستشهاد هذه التي أتحملها منذ سنة تظهر للعيان لكانت أدهشت من رآها . لقد سمح الله بان يملأ نفسي ظلامٌ كثيف . وان ما كنت اتمتع به منذ حداثة سني من العذوبة الحلوة كلما فكرت في السماء ، اصبح لي الآن سبب تجارب ومخاوف وحرب روحية قاسية . ولم تقتصر هذه البلوى على ايام او اسابيع معدودة ؟ بل اني اتألم منذ شهور

طويلة ، ولا ازال اعلل الامل بحلول ساعة النجاة من هذا الضيق والخلاص من هذه البلوى »[١] . ولقد قالت عنها اخواتها من بعد موتها : « هذا كان شعار تريزيا في حياتها : لا بد لنا من ان نستنزف كل قوانا قبل ان نطلب التخفيف عنا . ولقد حدث لها مراراً ان وصلت سحراً للاشتراك في صلاة الفرض رغم ما كانت تشعر به من الدوار ، ورغم ما كان بها من آلام رأس شديدة . وكانت ايضاً تقول : طالما اقدر ان امشي فلا بد لي من ان اقوم بواجبي . فكانت شجاعتها هذه في افعالها العادية تسمو بها الى ذروة البطولة الحقة »[٢] .

ان الحياة المسيحية الصحيحة الكاملة هي حياة الصبر بشجاعة على حسن القيام بالواجبات اليومية . فان المسيحي الحقيقي هو الذي يقيد نفسه من الصباح الى المساء بقيد القانون فلا يحيد عنه يمنةً او يسرة ؛ هو الذي يبقى متنبهاً نهاره كله وليله الى الاتحاد بالله بالصلاة والمناجاة وافعال المحبة المستمرة ؛ هو الذي يمنع طرفه عن ان يتطلع الى كل شيء ، هرباً من الخفة والطيش ؛ هو الذي يصبر بصمت على تقلبات الفصول وحرها وبردها وزوابعها وامطارها ، فلا يتململ ولا يتأفف ؛ هو الذي يحسن معاملة قريبه رغم ما يشعر به من الاشمئزاز نحوه ومن

---

(١) في كتاب حياتها ص ١٨٦ و ١٨٨ (٢) ايضاً ص ٢٧٦

النفور منه ؛ هو الذي يقبل بتواضع توبيخ رؤسائه ، وتونيب امثاله لأعماله ؛ هو الذي لا يستنكر ذوق قريبه ، وامياله ، بل يتحمل بكامل الرضى اطباعه واخلاقه وثوراته ونزعاته ؛ هو الذي يثابر على كبح اهوائه واميالة ، ويقاوم ما ساء من رغبات قلبه ، ويلجم مطامع حياته . وهذا كله ليس مرة بل كل مرة ، وليس ساعة بل كل ساعة ، وليس بتصبر فقط وتجلد ، بل بسرور قلب ايضاً وحبور . هذه هي البطولة المسيحية الصحيحة ، وهي ثمرة فضيلة الشجاعة وموهبة الشجاعة .

ولقد قال الرب يوماً للطوباوي سوسو : « يجب على من يخدمني ان يرغب اولاً في التجرد وان يموت موتاً كاملاً عن ذاته وعن سائر المخلوقات التي تحيط به . ان هذه الدرجة من الكمال لهي نادرة . الا ان من وصل اليها يرتفع بها سريعاً الى الله . . . فلا عجب اذا كانت الشدائد والصلبان حينئذ لا تسبب له من التأثر والانفعال ما تسبب لغيره ، اعني لذلك الذي وطّنَ النفس على اجتناب كل ألم ، وعلى الهرب من كل شدة . ان القديسين ليسوا اقل من سواهم شعوراً بالعذاب والألم . الا ان نفوسهم بعيدة عن الخوف والهلع لانها لا ترغب الا في الصليب ، ولا تستعذب الا الألم . . . نعم ان اجسادهم تتألم ، ولكن نفوسهم هي ثملة بمحبة الله تتذوق طعم سعادة لا توصف من سحر العذوبة الالهية . . .

ان عاطفة الحب التي تتملكهم تجعلهم لا ينظرون الى الآلام كأنها بلوى . لانهم باتحادهم بالله ينعمون بسلام عميق لا يزول ولا يخالطه كدر » .

وان موهبة الشجاعة هذه يمكننا الحصول عليها بواسطة الصلاة ، وعلى الاخص بواسطة المناولات المتواترة التي تصب في النفس قوةً الهية لا تقف امامها مصاعب الحياة . واذا ما كنا امينين في تتميم واجباتنا الصغيرة افاض علينا الروح القدس موهبته السامية فمكننا من اتمام الواجبات الكبيرة بسهولة ورضى ، بل بفرح وشكر وهناء . وما ابدع ما قالته القديسة تريزيا الصغيرة وهي في اشد حالات المرض والتألم : « لم يبقَ للالم سبيل اليَّ لان كل عذاب اضحى لي لذة »[1] . ان هذه الراهبة الصغيرة هي حقاً بطلة الشجاعة المسيحية الكبرى .

---

(١) كتاب حياتها : فصل ١٢ ص ٢٨٦

البحث الثالث

في كيفية الحصول على فضيلة الشجاعة ، وفي طرق تقويتها

ان اولى الوسائط وافضلها للحصول على فضيلة الشجاعة هي ثقتنا بالله وحذرنا من نفسنا ، ومن اعتمادنا على ذاتنا في خلاص نفوسنا .

اما ثقتنا بالله فانها تجعلنا نتكل عليه وعلى نعمته ، عالمين ان كل عطية صالحة وكل موهبة كاملة تأتينا من لدن ابي الانوار . فحينما نعتمد عليه ونطلب معونته بصلاة حارة متواصلة ننال الشجاعة اللازمة لنا في جهادنا . « من يثبت فيَّ وانا فيه فانه يأتي بثمر كثير . لانكم بدوني لا تستطيعون ان تعملوا شيئاً »[1] . وفي هذا المعنى قال الرسول بولس ايضاً : « انني اقدر على كل شيء بالذي يقويني »[2] .

ولا بد لنا ايضاً من ان نأخذ حذرنا من نفسنا ، ومن كبريائنا ، ومن اتكالنا على قوانا في امر خلاصنا . وإلّا تخور ، لا محالة ، قوانا ونستسلم لضعفنا . «ولنا هذا الكنز في آنية خزفية ليكون فضل القوة لله لا منا »[3] .

لذلك وجب على الذين تهاجمهم تجارب الكبرياء والاعتداد

(١) يوحنا ١٥ : ٥ (٢) فيلبي ٤ : ١٣ (٣) ٢ كور ٤ : ٧

بالنفس ان يغذّوا فيهم عاطفة الحذر من نفوسهم، والتجرد من اعتمادهم على ذاتهم في روحياتهم [١]. وليس معنى هذا ان يستسلموا للكسل والخمول، بل عليهم ان يجاهدوا وان يتكلوا في جهادهم على الله المعطي المعونة والقوة. اما الجبناء والموسوسون والمتشائمون الذين لا يرون في الدنيا الا بؤسها فعليهم ان يعملوا على انعاش روح الاتكال على الله في شدائدهم ومصاعبهم. «لانك انت يا رب قوتي» [٢].

والواسطة الثانية للحصول على فضيلة الشجاعة هو رسوخ العقائد المسيحية في قلوبنا. لأن من تشبع بروح الايمان، وبعقائد الايمان، يجد فيها النشاط اللازم والشجاعة الكافية عندما تهاجمه التجارب، او تكتنفه المحن، او تخيم على قلبه اليبوسة الروحية الصعبة، فيصبح في حالة من الضعف يخشى عليه فيها من التراخي، بل من السقوط. فايمانه يقويه، وما رسخ فيه من العقائد القوية يثبته، والصلاة تجلب له النعمة فتنشطه وتكمل عملها فيه.

---

(١) ولكن لا يبرح عن بالنا ان الاعتماد على النفس في الروحيات هو خطأ، وانه في الزمنيات صواب. اما في الروحيات فلأن العمل هو فائق الطبيعة ولا بد لاقامه من النعمة. اما في الزمنيات فلأن العمل زمني ويجب ان يصدر عنا وليس عن غيرنا الذي انما هو نظيرنا.

(٢) مزمور ٤٢ : ٢

ومن الوسائط الحسنة لتغذية الشجاعة المسيحية وتقويتها هي استدراك المحنة قبل وقوعها والاستعداد لها . لان من تأهب للشدة خفت عليه وطأتها . فلا يلبث ان يقهرها .

اما الواسطة الكبرى الفعالة من بعد الصلاة والنعمة لنيل فضيلة الشجاعة فهي عاطفة المحبة الصادقة القوية التي يجب ان نعمل دائماً على ايقاد نارها في قلوبنـــا نحو الله والرب يسوع ، فتحفظ لنا النشاط ، وتغذي فينا القوة والاقدام . « فان المحبة قوية كالموت »[١] . هذا هو سر ما نراه في التاريخ من عظيم ما اتاه الرسل والشهداء والمعترفون والابرار والمرسلون وسائر رجال الله في الدين والدنيا من عظائم الامور لاجل تمجيد الله ، واعلاء شأن كنيسته ، وخدمة البشرية في كل مناحيها الروحية والزمنية. فلم يهابوا شدة ، ولم تقعدهم محنة ، ولم ينلهم تراخ ولا ملل ، لان محبة المسيح كانت دائماً تحثهم[٢] . وتستفزهم وتجدد نشاطهم. « فمن يفصلنا عن محبة المسيح اشدة ام ضيق ام جوع ام عري ام خطر ام اضطهاد ام سيف . . . إنّا في هذه كلها نغلب بالذي احبنا . فاني لواثق انه لا موت ولا حياة ولا ملائكة ولا رئاسات ولا قوات ولا اشياء حاضرة ولا مستقبلة ولا علو ولا عمق ولا خلق آخر يقدر ان يفصلنا عن محبة الله التي هي في المسيح يسوع ربنا »[٣] .

(١) نشيد ٨ : ٦ (٢) ٢ كور ٥ : ١٤ (٣) رومية ٨ : ٣٥ – ٣٩

حوادث تاريخية

القديسة بربارة

كانت بربارة شابة رائعة الجمال ، نادرة الذكاء ، مثقفة ثقافة عالية ، كثيرة الغنى والخيرات . وكانت معبودة ابيها اذ كانت وحيدته ، وسلوته من بعد وفاة زوجته . وكانت الدنيا تضحك لها بكل زخارفها ومسراتها وامجادها . وتقدم للزواج منها اشرف واغنى شبان مدينة نيقوميدية العظيمة عاصمة بلاد آسيا . لكنها رأت ان الرب يسوع هو احسن عريس لنفسها وهو نعيم ابديتها ، وهو حارس نقاوتها ونضارتها . فتعلقت به ، وزهدت في كل شيء سواه حباً له .

فاندفعت الدنيا عليها تهاجمها . فلم يثنها لا وعد ولا وعيد ، ولا تمليق ولا تهديد . بل صمدت للهجمات بشجاعة فائقة . فاهانوها وضربوها وسجنوها . ثم مزقوا بالحديد جسمها ، واسالوا دماءها . فثبتت على ولائها لعريس نفسها . هزئت بكل عذابات الروح والجسد ، كما كانت قد ازدرت بكل نعيم ارضي وبكل غنى ومجد . فلما رأى ابوها ذلك منها حنق عليها ، ووثب وقطع بيده رأسها . فطارت نفسها الى العلى لتنعم الى الابد في دار الخلود باكليل شجاعتها ومحبتها ليسوع عروسها الالهي .

الفصل السادس

في فضيلة الشهامة

الشهامة هي ميزة النفس الكبيرة ذات الاخلاق العالية. وهي فضيلة ادبية مسيحية تحملنا على القيام باعمال عظيمة في سبيل الله وخدمة الناس بعاطفة شريفة ونفس كريمة. لذلك هي فرع من فروع فضيلة الشجاعة.

فالشهامة والخساسة على طرفي نقيض. فالخساسة والمطامع الذاتية مصدرها الانانية، تحب الشهرة، وترغب في الرفعة، وتبغي المجد العالمي والسلطة. اما الشهامة فهي مجردة، لا تطلب فيما تأتيه من عظائم الامور سوى اكرام الله عز وجلّ. لذلك فانها لا تصدر الا عن نفس شريفة واخلاق عالية، ولا تصبو الا الى غاية رفيعة كريمة سماوية. ولا بد لها من الشجاعة لتكون افعالها مطابقة لايمانها، ولكي تكون صادقة التجرد في نواياها واعمالها.

وهي لا تكتفي بان تريد وتشتهي بل تفعل، وتقوم بانشاء المشاريع التقوية والخيرية الكبيرة، نظير انشاء الرهبانيات والجمعيات والكنائس والديورة والمستشفيات والمدارس والملاجئ

والمياتم ودور العجزة ومآوي المتشردين وما يشبهها. وتطلب في الكمال ذروته، وفي الفضيلة اعلاها. فالشهامة هي فضيلة النفوس الكبيرة النبيلة. فلقد كانت فضيلة القديسين باسيليوس الكبير، واثناسيوس الاسكندري، واغناطيوس اليسوعي، وفرنسيس الاسيزي، وعبد الاحد الدومينكي. كانت فضيلة الكردينال لافجري، والكردينال نيومن، والبطريرك مكسيموس مظلوم، وسواهم من كبار رجال الكنيسة. كانت فضيلة الوف عديدة من عظماء النصرانية نظير اوزانام وفيليبر فرو، وغرسيا مورينو، وسواهم.

ونقيضها انكماش النفس والجبن والخوف والتراجع والتردد، وهي نقائص النفوس الصغيرة التي ترهب الاقدام، وتحسب حساب الفشل قبل حساب النجاح، وتهرب من التعب، وتتخبط في التردد فلا تعرف ان تستقر على رأي. وهكذا تبقى كسولة جامدة بلا حركة ولا بركة، فتضيع الحياة في الخمول، ولا تأتي بثمرة. ولقد كان يجدر بها ان تتعرض لشيء من الاخفاق والفشل من ان تبقى متقاعسة بلا عمل. ومثلها مثل صاحب الوزنة الذي حفر وواراها في التراب هرباً من السعي وخوفاً من الخسارة، فحكم عليه الرب بالحرمان وبالخذلان.

﴿ حادث تاريخي ﴾

كاسيلدا الكرملية الشريفة

ان القديسة تريزيا الكبيرة الافيلية وصفت باسهاب في كتابها « الانشاءات »[1] كم اظهرت الابنة الشريفة كاسيلدا من الشهامة في اتباع دعوتها الرهبانية .

كانت عائلة بادلًا من اشراف مقاطعة كاستيليا في اسبانيا ، في القرن السادس عشر . فمات رب هذه العائلة وخلف ولداً يدعى انطونيو وابنتين لويزا وكاسيلدا . وكانت الشرائع تقضي بان يرث الابن البكر اسم ابيه ولقبه وامواله . لكن انطونيو ما لبث ان ضحّى بكل خيرات الدنيا ونعيمها ، وذهب فدخل في سلك الرهبانية اليسوعية تاركاً لشقيقته الكبرى لويزا كل ميراث ابيه .

الا ان لويزا عافت بدورها امجاد الدنيا ومسراتها ، وتنازلت لأختها الصغرى كاسيلدا عن حقوقها، وتفرغت للعبادة في زاوية منعزلة من بيت ابيها . فعادت تلك الخيرات الطائلة والامجاد العالية للابنة كاسيلدا وكانت لم تتجاوز بعد الحادية عشرة من عمرها . فسارعت اليها الدنيا تخدمها وتتملقها ، وتعظم شأنها ، وتقدس اقل اشارة من اشاراتها . وتقدم احد الاشراف من اقربائها فخطبها ، واخذ يبالغ في اظهار محبته لها وشغفه بها حتى تملك قلبها . فصارت لا تطيق البعد عنه . وصار كلما غاب عنها شعرت بغيوم الضجر والسآمة تملأ قلبها .

وكانت تربية الاسبان في تلك الازمان تربية دينية قوية عميقة . فكانت

(1) *Le livre des Fondations.*

كاسيلدا تقية متعبدة . وكانت شديدة النباهة . فما كادت تبلغ الرابعة عشرة من عمرها حتى صارت تتحقق يوماً بعد يوم بطلان الدنيا وسرعة زوال نعيمها وامجادها . ورأت ان اخاها واختها نبذاها بحق . فعزمت هي ايضاً على ان تترك الدنيا للدنيا . فهربت يوماً من الايام واعتصمت في دير الراهبات الكرمليات .

فلما رأى ذلك خطيبها جُنَّ جنونه . وقام اهله يناصرونه . الا انهم اصطدموا بشجاعتها الفطرية وشهامتها الفائقة . فاستعانوا باوامر الملك واعادوها بقوة الشرطة الى قصرها . ولكنها هربت ثانية . فتركوها وشأنها .

وهكذا انتصرت شجاعة كاسيلدا وشهامتها على كل حيل الدنيا وجنودها . وقضت في الدير حياة ملائكية ، وماتت كالملائكة . وكانت القديسة تريزيا تدعوها الملاك . وبقيَ لها هذا الاسم طول حياتها ومن بعد وفاتها [1] .

---

(1) *Histoire de Ste Thérèse, T. II, pp. 46 - 48*

الفصل السابع

في فضيلة السخاء

هي ايضاً من فروع فضيلة الشجاعة . السخاء هو الجود والكرم في البذل والعطاء . وغايته تمجيد الله وتعظيمه لكونه هو السخي الاكبر الجواد . وهذه الفضيلة تحمل النفوس النبيلة على البذل بلا حساب في سبيل الله واعمال الله .

والسخاء في الدنيا كثير ، والحمد لله . ها هي القاهرة ، والاسكندرية، ودمشق الشام ، وجبال لبنان ، والدنيا المسيحية كلها ، شرقاً وغرباً ، فانها تنطق على الدوام بكرم المسيحيين واريحيتهم ، وصدق ايمانهم ، وعالي مبادئهم . فإن الاموال تبذل بلا حساب في سبيل المشاريع الدينية والخيرية على كثرتها وتعددها وتنوعها، والدنيا ملأى بالاوقاف المحبوس ريعها على شتى المشاريع السماوية والارضية معاً . وها هي الكنائس والاديار والمدارس والمستشفيات والملاوي والمطاعم والجمعيات وكلها تعيش من ريع الاوقاف ومن حسنات المؤمنين . ان ميزانية الصليب الاحمر الدولي مثلاً لا تعد ايراداتها ومصروفاتها الا بالملايين . وجمعية الاسعاف العمومية في القطر المصري تساعد الالوف من المرضى

والمصابين . وهكذا قل عن الوف الجمعيات والمؤسسات الخيرية في الدنيا المسيحية . لانه من يوم ان قال الرب : «اعطوا تعطوا[١] ... كنت جائعاً فاطعمتموني[٢] ... بهذا يعرفون انكم تلاميذي اذا كنتم تحبون بعضكم بعضاً»[٣] ... من يوم ان نشرت النصرانية هذا التعليم انتشر السخاء بين العالمين .

ولكن لكي يكون السخاء فضيلة مسيحية يجب ان تكون غايته سامية ، وان يكون العطاء لوجه لله واكراماً له تعالى . اما اذا توخى الانسان في عطائه وسخائه الجاه العالمي والمجد والشهرة ، وتعظيم الناس له ، وثناءهم على عمله ، فان السخاء يصبح دعاية ، وربما اصبح رذيلة ممقوتة . «انهم قد اخذوا اجرهم»[٤] .

فالسخاء هو فضيلة الناس الطيبين من الاغنياء . وهو الحلية البديعة التي يزينون بها حياتهم ، والجوهرة الفريدة التي تبقى لهم في آخرتهم . آه لو علم بعض الاغنياء من النفعيين او البخلاء ، جليل نفع هذه الفضيلة لهم لبادروا الى اعتناقها ، وبذلوا اموالهم بسخاء في سبيلها ، لانها اللؤلؤة الثمينة التي تكلم الرب عنها ، ودعا اليها ، وأثنى على من باع ماله كله واشتراها[٥] . فإن الدرهم الذي يبذل في سبيل الله يحفظ لباذله ، والذي يذهب في سبيل

---

(١) لوقا ٦ : ٣٨ (٢) متى ٢٥ : ٣٥ (٣) يوحنا ١٣ : ٣٥
(٤) متى ٦ : ١٦ (٥) متى ١٣ : ٤٥

الفخار او المطامع او الاهواء يضيع على صاحبهِ .

والسخاء لا يعتمد حقاً على الغنى . بل هو بذل ما بيدنا بجود وكرم على قدر طاقتنا . فالسخاء هو كرم النفس قبل ان يكون كرم اليد . ان القديس منصور دي پول كان فقيراً ، ولكن لم يضاههِ امرؤ في عصره بجوده وكرمهِ وبذل الملايين في سبيل المشاريع التي انشأها وكانت تعيش من نوالهِ ؛ فكان ينال كثيراً ويبذل كثيراً . ومن اتكل على الله وطلب وجه الله قدّره الله على فعل العظائم . ومكّنه من المكارم . ولقد بقيَ فلس الارملة مثلاً رائعاً لمعنى السخاء الحقيقي . ويكفي ان الرب عظّمه ومجّدَ صاحبته .

وآفة السخاء التبذير ، وهو بذل الاموال بلا داع ولا منفعة ، وكثيراً ما يكون بدافع الشهرة . ومنهم من يتحمّس ويبذل اكثر من طاقتهِ فيقع في العوز . فمثل هؤلاء تلزمهم الفطنة لتحرسهم من التهور والتسرع والخفة .

والسخاء ضد البخل ، وهو رذيلة ممقوتة وقانا الله شرها . فهي من الرذائل الرئيسية التي تميت في النفس كل عاطفة مسيحية ، لا بل كل مزية انسانية .

﴿ حوادث تاريخية ﴾

في السخاء المسيحي

ان الحوادث التاريخية في السخاء المسيحي هي اكثر من ان تعد وتحصى . فنكتفي بايراد بعضها بمنتهى الايجاز .

عزم البابا لاون الثالث عشر يوماً على انشاء معهد عالٍ لدروس الكتاب المقدس . فوضع له المهندسون التصاميم اللازمة ، واعلنت الصحف اكلافه فبلغت مليون فرنك ذهباً .

ولم تمضِ الايام القليلة حتى تسلم قداسة البابا تحويلاً بمبلغ مليون فرنك ذهباً من « فاعل خير » لم يشأ ان يذكر اسمه ، ليكون احسانه لوجه الله ، مجرداً من كل غاية بشرية . الا ان هذا المحسن الامثل رجا الحبر الاعظم ان يتكرم وينصب في صدر القاعة الكبرى التي ستُشيَّد لهذا المعهد تمثال قلب يسوع ، وان يضع عند قدمي هذا التمثال شعار فرنسا . فكان هذا الطلب دليلاً على ان المحسن هو فرنسي . سخاء مسيحي !

لقد اشتهر آل صيدناوي بمصر بسخائهم في احسانهم . فانشأ سليم وسمعان صيدناوي مدرستنا الكبرى على شارع الملكة نازلي، بلغت تكاليفها بحسب معرفتنا نحو خمسين الف جنيه ذهباً .

وانشأ يوسف باشا صيدناوي ابن المرحوم سمعان بك صيدناوي مستشفى وطنياً بلغت تكاليفه نحو خمسة واربعين الف جنيه .

وانشأ ورثة سليم وسمعان صيدناوي مستوصفنا المجاني الطائفي ومدرستنا المجانية وانفقوا عليها ايضاً اموالاً طائلة . سخاء مسيحي !

واوقف المحسن الكبير المرحوم جورج طويل لمشاريعنا الخيرية الطائفية في مدينة الاسكندرية ، الكنيسة الكاتدرائية ، والدار البطريركية ، وخمس بنايات كبيرة قريبة منها .

وكلها واقعة في احدى النقط الرئيسية في تلك المدينة العظيمة البحرية . سخاء مسيحي !

وقس على هذه الامثلة ملايين مثلها في اقطار الارض الواسعة .

الفصل الثامن

في فضيلة الصبر

فضيلة الصبر هي فرع من فروع فضيلة الشجاعة ، وهي الشقيقة الكبرى لفضيلتي الشهامة والسخاء ، لكنها تفضلهما وتتقدم عليهما . لان السخاء هو بذل المال ، اما الصبر فهو بذل الذات . « ليس لاحد حب اعظم من هذا ان يبذل نفسه عن احبائهِ »[1] . فلقد يصبر الانسان على فقد مالهِ اكثر مما يصبر على ضياع حريتهِ وصحتهِ وذاتهِ . لذلك كان الصبر على البلوى اكرم من السخاء في العطاء والتبرع بخيرات الدنيا .

البحث الاول

في ماهية فضيلة الصبر

الصبر هو فضيلة ادبية مسيحية تجعلنا نحتمل بنفس هادئة جميع الآلام النفسية والجسدية لاجل الله واكراماً له ، واقتداء

(١) يوحنا ١٣ : ١٥

بالسيد المسيح الفادي ، ومشاركة له في آلامهِ .

ان فضيلة الصبر هي من الفضائل العملية اليومية ، لان الآلام هي رفيقة الانسان في حياته طول الايام . ولقد قال الرب « من لا يحمل صليبه كل يوم ويتبعني فلن يستحقني »[١] . فالصليب هو الرفيق الدائم الذي لا بد منه شاء المرء او ابى . هو قرين العمر يلازم الانسان من المهد الى اللحد ، في حداثتهِ وشبابهِ ، وكهولتهِ وشيخوختهِ ، رجلاً كان او امرأةً ، عبداً او حراً ، ملكاً او سوقة ، قائداً عظيماً او جندياً بسيطاً ، اسقفاً خطيراً او راهباً صغيراً . ولقد يكفي المرء ، ليكون قديساً عظيماً ، شدائده الخاصة بهِ ، لو قبلها بصبر ورضى ، اطاعةً لله وتمثلاً بالسيد المسيح . الا ان الكثيرين ينفرون من الالم فيتذمرون ويتأففون ، بل مراراً يثورون ويجدفون على احكام الله . حقاً يالتعاستهم . لان الألم لا بدَّ منه يرافقهم فيتألمون ؛ فاذا هم تذمّروا يضيعون اجورهم فلا ينتفعون .

ومنهم من يحملون اصناف الشّدة والتعب والسهر والمرض اياماً واشهراً وسنين طوالاً وهم راضون قانعون ، ولكن ليس لاجل الله ومحبةً لله بل طمعاً بمال او متاع او وظيفة او جاه ، او سعياً وراء عشق اثيم ، او انتقام ذميم ، او رغبة في التسلط

(١) مرقس ٨ : ٣٤

والمجد والزهو والمفاضلة ، او حباً للصيت والشهرة ، او لغير ذلك من الاسباب الزمنية المشروعة او الغير المشروعة؛ فهؤلاء يكون صبرهم خاسراً ، فلا اجور سماوية لهم ، لا بل اذا كانت غايتهم آثمة فإنهم يأثمون .

أمّا الصبر على مصاعب الحياة وشدائدها بروح العبادة والتواضع والتكفير والمحبة والتشبه بالسيد المسيح فهو الفضيلة الحقة المسيحية التي لها الاجور السماوية وموعد الحياة الدائمة الابدية . ان في الصليب الذي يقبله المرء برضى ويحمله بصبر اكراماً لله ، وخضوعاً لتدبيره واحكامهِ ، ومشاركة لابنهِ الحبيب في آلامهِ ، في هذا الصليب التكفير والتبرير والاجور السماوية ، وقوة النفس في جهادها ، وصعودها الى قمة القداسة في حياتها . نَعَم ان الصليب الذي يحمله المسيحي بقبول يكفّر بهِ عن خطاياه ، وينقّي بهِ نفسه من آثامها ، ويحفظ لها في السماوات كنوزاً لا تبلى . وبهِ يشدّد عزائمه في المحن ، ويقوى على التجارب ، ويصل الى القداسة الحقة المسيحية في الدنيا والى السعادة الدائمة في الآخرة .

« تذكر يا ابني انك نلت خيراتك في حياتك ولعازر كذلك بلاياه والآن فهو يتعزى وانت تتعذب »[1] .

ومن الناس نفوس شهمة ابية سخية تحمل الصليب بصبر

---

(١) لوقا ١٦ : ٣٥

ورضى تكفيراً عن غيرها ، لتشارك المسيح في صليبه وفي آلامه لاجل البشر . وهذا هو سر ما نراه في حياة بعض القديسين من الصبر العجيب الذي يصل بهم الى منتهى البطولة المسيحية . فكم من الزوجات اعدن الى الايمان ازواجهن بصبرهنّ المسيحي وبما احتملن لاجلهم من شدائد ومحن . وكم من اخوات مسيحيات تقيات صبورات متقشفات كنّ باحتمالهنّ وصبرهنّ سبب نجاة وخلاص اخوة لهنّ كانوا شاردين ، ذاهبين وراء مطامعهم ، راكضين وراء معاصيهم ، متهورين . وكم من راهبات عفيفات محصنات كنّ للكهنة وللمرسلين في اتعابهم ورسالاتهم اكبر نصير بفضل صبرهنّ وتقشفهنّ وجميل خضوعهن .

شكا احد الكهنة يوماً ، الى القديس ماري فياني كاهن قرية ارس بفرنسا، اخفاقه في خدمة رعيتهِ رغم كل ما بذله من الجهود في سعيهِ وعمله . فاجابه الكاهن القديس : هل مارست لاجل رعيتك اعمال الصوم والتقشف والصبر ، هل جلدت نفسك ، هل احييت الليالي ساهراً ساجداً امام القربان ؟ . . اعمل هذا فتنجح .

وقالت القديسة اللطيفة تريزيا الطفل يسوع يوماً لرئيستها وهي في اشد حالات المرض والنزاع : « يا امي ان الكأس قد طفحت . كلا لم احسب قط يوماً بانه كان من الممكن ان اتألم كما

اتألم الآن . واني لا اجد سبباً لذلك الا رغبتي في خلاص النفوس »[١] . وقالت ايضاً يوماً آخر : « انني اشعر في داخلي بشيء سرّيّ لا اميّزه . اشعر باني اتألم ليس لاجل ذاتي بل لاجل نفس من النفوس ... الا ان الشيطان لا يريد ذلك »[٢] .

البحث الثاني

في درجات الصبر

ان المبتدئين في الحياة الروحية يمارسون الصبر في درجته الاولى بان يحتملوا الآلام والشدائد بلا تذمر لاجل الله . ويعاونهم في صبرهم املهم الوطيد بالحصول على الملكوت السماوي ، ورغبتهم في التكفير عن آثامهم ؛ ويعرفون ان في الصبر على الشدة تنقية قلوبهم ، وتقويتها في جهادها ، وانعاشها في وقت الحزن واليبوسة والمضايقات الروحية والجسدية .

اما المتقدمون في الكمال فانهم يقبلون الآلام والشدائد والاحزان برضى وتسليم ليس فقط بروح التكفير واملاً بالملكوت ،

(١) في كتاب حياتها : فصل ١٢ ص ٣٠٦ (٢) ايضاً فصل ١٢ ص ٢٨٥

بل ايضاً لكي يسيروا على اثر الفادي الالهي المتألم ويكونوا معه روحاً واحدةً وعاطفة واحدة وحياة واحدة .

ولما كان دأبهم التأمل في حياة الرب يسوع فإنهم ينظرون اليه في جميع اطوار حياتهِ؛ فيبدو لهم انسانَ آلامٍ وصبرٍ من المهد الى اللحد فيتعلقون بهِ ، ويشغفون بآلامهِ ، ويتخذونه مثالاً وإماماً . ان الفادي الحبيب عاش معذَباً منذ الدقيقة الاولى من حياتهِ حتى الساعة الاخيرة منها ، ساعة موتهِ . تألم في مغارة بيت لحم من البرد ، وبالاكثر تألم من قلة معروف مواطنيه . تألم في هربه الى مصر . تألم في حياته الخفية الفقرية الشاقة مدة ثلاثين سنة . تألم في ايام بشارتهِ ، وصبر . صبر على الجوع والعطش والتعب والسهر ، وعلى غلاظة قلوب سامعيه ، وعلى مطامع رسله . صبر على كبرياء الرؤساء ، ورياء الكثيرين . صبر على آثام الخطأة ، وعلى مضايقة الجموع له ، وعلى نكران جيله . ثم صبر على انواع الآلام بصمت رهيب واحتمال عجيب . صبر على خيانة يهوذا له ، وعلى هرب تلاميذه ، وعلى جحود بطرس لصداقته ومحبتهِ . صبر على اللطم على الخد ، وعلى الجلد بالسياط ، وعلى اكليل الشوك ، وعلى الاهانة والهزء والسخرية ، وعلى المسامير ، وعلى الصليب الشائن الاليم . صبر على رؤيته والدته الحبيبة واقفة امامه وقلبها يتمزق حزناً عليه . صبر على تفجع رسوله الحبيب ، وعلى

عويل النسوة المعزيات على قلبهِ . صبر على شراسة الفريسيين ، وعلى صلابة قلوبهم ، وعلى تهكمهم ، وعلى ازدرائهم بهِ واستصغارهم لقوتهِ وانكارهم لصلاحهِ . صبر على نكران جميل جمهور اولئك المتفرجين على تشهيره وآلامهِ وموتهِ وقد كانوا منذ بضعة ايام خلت يصفقون له ويذيعون بعجائبهِ واحسانهِ . صبر على رفعهِ على خشبة العار واللعنة بين لصين سافلين مجرمين . تألم حتى لم تبق جارحة من جوارح نفسه وجسمه الا صابت معه ؛ ولا عضو من اعضائه الا تمزق وسالت دماؤه ، حتى اضحى بحق رجل الاوجاع والآلام . ولقد صدق حقاً فيه قول اشعيا النبي : « لا صورة له ولا بهاء فننظر اليه ، ولا منظر فنشتهيه ؛ مزدرى ومخذول من الناس رجل اوجاع ومتمرس بالعاهات ومثل ساتر وجهه عنا » [1] . نعم على هذا كله صبر حتى اضحى بحقٍ مثال الصبر على انواع الآلام كلها وافظعها واطولها .

فالى هذا المثال ينظر المسيحيون الحقيقيون ، وعلى طريقته ينسجون ، حتى اذا حق لهم يوماً ان يقولوا مع الرسول : « صلبت مع المسيح » [2] حق لهم ان يرجوا المجد مع المسيح : « وحيث نحن ابناء فنحن ورثة وورثة الله ووارثون مع المسيح ان كنا نتألم معه لنتمجد معه » [3] . وهذا ما يوصي ايضاً به القديس بطرس

---

(١) اشعيا ٥٣ : ٢ و ٣ (٢) غلاطية ٢ : ١٩ (٣) رومية ٨ : ١٧

في رسالته : « فاذ قد تألم المسيح بالجسد فتسلحوا انتم ايضاً بهذا العزم عينه . فان من تألم في الجسد يراح من الخطيئة » [1] .

والدرجة الثالثة في فضيلة الصبر هي درجة الكاملين من المسيحيين الذين يرغبون في الآلام والمحن ، ويشتهونها شهوة ، ويجدون فيها لذتهم ، وتنعم بها قلوبهم ، لفرط شغفهم بالرب يسوع ، ولرغبتهم في التشبه به ، وطلبهم لمشاركته في آلامه . هكذا كان الرسل والقديسون اجمعون . وبولس الرسول يقول : « فبكل سرور افتخر باوهاني لتستقر فيَّ قوة المسيح » [2] . وايضاً : « انا فائض بالفرح في جميع مضايقنا » [3] . وكتاب الاعمال يذكر ان الرسل بعد ان أهينوا وسجنوا وجلدوا « خرجوا من وجه المحفل فرحين بانهم حسبوا مستأهلين ان يهانوا لاجل اسم يسوع » [4] . ولقد طالما كانت الغبطة في وسط الاوجاع والآلام العلامة الفارقة للقداسة المسيحية . لان المخلص الالهي بدأ بها وسارت في اثره جموع الرسل والشهداء والمعترفين وسائر القديسين ناسجة على منواله فيها ، محبةً له ومشاركة في آلامهِ . قال الرب : « ولي صبغة اصطبغ بها وما اشد تضايقي حتى تتم » [5] . ومن بعده قال الرسول لاهل كولسي : « اني افرح

(١) ١ بطرس ٤ : ١ (٢) ٢ كور ١٢ : ٩ (٣) ٢ كور ٧ : ٤
(٤) اعمال ٥ : ٤١ (٥) لوقا ١٢ : ٥٠

الآن في الآلام من اجلكم واتم ما ينقص من شدائد المسيح في جسمي لاجل جسده الذي هو الكنيسة »[١]. وبولس لا يتكلم بهذا باسمهِ فقط بل باسم جميع الكاملين من المسيحيين.

وفي هذا المعنى ايضاً يقول القديس اغناطيوس اليسوعي: « كما ان اهل الدنيا الشديدي التعلق بالارضيات يرغبون في الامجاد، ويركضون وراء الشهرة، ويسعون في طلب الرفعة، هكذا يجب على الذين يتبعون يسوع المسيح برغبة اكيدة، ان يسرعوا الخطى وراء كل ما يخالف روح العالم، وان يرغبوا رغبة حارة في كل ما هو من روح المسيح، الى حد ان يشتهوا الخزي والعار، والافتراء عليهم بشهادات الزور، واطراح الناس لهم كانهم اغبياء حمقى؛ وذلك رغبة منهم في التشبه بالسيد له المجد؛ على شرط ان لا يكونوا قد اعطوا هم سبيلاً لذلك، وان لا يهان اسم الرب يسوع بسببهم. وهكذا يمكنهم بمعونة نعمة الله ان يتشبهوا بالفادي الالهي على قدر طاقتهم، وان يسيروا في كل شيء في اثره، لانه هو الطريق الحق الذي يقود الناس الى الحياة».

فهذا التعليم معناه ان محبة الصليب هي زهرة محبة الله وثمرة الاتحاد الصحيح بالفادي الالهي يسوع المسيح. وكانت القديسة تريزيا الطفل يسوع بطلة الحب السامي والتضحية العميقة الكاملة

(١) كولسي ١ : ٢٤

تقول : « ان آلامي الصغيرة هي سبب افراحي الصغيرة » . وايضاً : « لم تعد الآلام ترعجني لاني حقاً اشتهيها » . وايضاً : « هل من غبطة اعذب على قلبي من ان اتألم لاجل حبك يا الهي »[1] .

وان هذه الراهبة الصغيرة والبطلة الكبيرة قدمت ذاتها ذبيحة للحب الالهي وتضرعت الى فاديها وعريسها يسوع لكي يتصرف بها كما يشاء ويصبّ عليها من الآلام ما شاء ؛ وتوسلت اليه ان يكثر اوجاعها وآلامها وان يقبلها ضحية لمحبته وكفارة عن اساءات البشر اليه . وما ابدع اجيج عواطفها ولواعج قلبها اذ تقول : « هل عدلك وحده يا ربي والهي يريد ذبائح تكفير ؛ أما أنّ حبك الرحيم يريدها ايضاً ؟ . . . اقبلني يا يسوع فاكون انا هذه الضحية السعيدة . أذِبني يا يسوع بنار حبك الالهي انا المحرقة الصغيرة »[2] . وكانت تريزيا الافيلية الكبيرة لشدة رغبتها في الآلام تقول : « إما الآلام او الموت . لكني افضل ان اتألم من ان اموت واتنعم » .

الا ان المعلمين الروحيين لا يسمحون لاي كان بان يسارع الى تقدمة ذاتهِ ضحية للعدل الالهي او للحب الالهي ؛ لأن عملاً كهذا له نتائج خطيرة تلزمه فطنة كبيرة ، لكي لا يذهب المرء

(١) في كتاب حياتها فصل ١١ ص ١٩١ (٢) ايضاً فصل ٨ ص ١٧٢

ضحية اوهامه المتقلبة ، وعواطفه الوقتية ، وحماسته الحسية . وفي ذلك يقول الكاتب الروحي الاب سميدت : « من الناس من يُقْدِم على تقدمة ذاته ضحية لله ويطلب منه تعالى ان يفتقده بآلام كثيرة وشديدة مدفوعاً بعاطفة الحماسة في ساعة من ساعات الحرارة الحسية . ولكن سرعان ما تذهب حرارته وتزول حماسته ، فلا يلبث ان يشعر بضعفه وتراخيه عن اتمام مواعيده ؛ ولا يكون اذ ذاك لديه من الشجاعة ما يكفيه لحسن القيام بمقاصده ، ولإخضاع ارادته لأحكام الله خضوعاً تاماً حسب ما وعد به ابان ثورة مخيلته . فلا تلبث تجارب القنوط ان تهاجه . وسرعان ما تراه يتأفف ، ثم لا يلبث ان يتذمر على احكام الرب وتدبيره وعنايته . وهذا ما يسبب متاعب شتى للمرشدين الروحيين في ارشادهم لمثل هذه النفوس »[1] .

فلا يجدر اذاً بنا ان نطلب من الله الصليب والآلام ، او نوعاً خاصاً من الشدائد والمحن . واذا ما شعرنا بميل الى مثل هذه العبادة وجب علينا قبل ان نباشر منها عملاً ما ان نستشير مرشداً فطناً ونسير على حسب ما يرسمه لنا من منهاج واضح في هذا المعنى .

وقد لخص هذا التعليم الاب كابيل (P. Capelle)

---

(1) *Notre vie surnaturelle. T. II, p. 260*

الاختصاصي في هذه الدروس ، فقال في كتابه « النفوس الجوادة » [1] : يجب علينا ان نضع نصب اعيننا اموراً ثلاثة : اولها ان الفادي الالهي هو الذي يختار ضحاياه ؛ ثانيها انه هو ذاته يشعرها قبل الاوان بالشدائد التي سوف يفتقدها بها ؛ ثالثها انه قبل ذلك يطلب رضاها وموافقتها بكامل معرفتها وحريتها .

فعلى النفوس المتعطشة الى الآلام ، الراغبة في مشاركة الفادي الالهي في عذاباته واوجاعه ان لا تبادئه هي بطلب البلايا والمحن بل ان تقبل برضى من يديه ما يأمر هو به ، ثم تصبر عليه . اما اذا تفضل هو ودعاها الى شرف تقدمة ذاتها ضحية لحبه او لعدله ، وسمح لها مرشدها بذلك ، فعليها اذ ذاك ان لا تتوانى في اجابة سؤله ، والخضوع لرغائب قلبه .

(1) *Les âmes généreuses.*

﴿ حادث تاريخي ﴾

صبر ايوب [١]

لقد بقي ايوب الصديق مثلاً اعلى للصبر على البلوى . ونحن نقتبس من الكتاب المقدس وصف ما ابتلاه الله به من الشدائد وكيف صبر على بلاياه العديدة بايمان صادق ونفس كبيرة وقلب لا يعرف ان يتزعزع .

« كان رجل في ارض عوص اسمه ايوب . وكان هذا الرجل سليماً مستقيماً يتقي الله ويجانب الشر » .

« وولد له سبع بنين وثلاث بنات » .

« وكانت ماشيته سبعة آلاف من الغنم ، وثلاثة آلاف من الابل ، وخمس مئة فدان بقر ، وخمس مئة اتان . وله عبيد كثيرون جداً . وكان ذلك الرجل اعظم ابناء المشرق جميعاً » .

« وكان بنوه يذهبون فيصنعون مأدبة في بيت كل منهم في يومه . ويبعثون فيدعون اخواتهم الثلاث ليأكلن ويشربن معهم . فاذا تم مدار ايام المأدبة كان ايوب يبعث فيقدسهم ، ثم يبكر في الغداة فيصعد محرقات على عدد جميعهم . لان ايوب كان يقول : لعلّ بني خطئوا وجدفوا على الله في قلوبهم » .

وسمح الرب للشيطان ان يضربه ليمتحن تقواه وصبره . « فقال الرب للشيطان : ها ان كل شيء له في يدك . ولكن اليه لا تمدد يدك » .

« واتفق يوماً ان بنيه وبناته كانوا يأكلون ويشربون خمراً في بيت اخيهم الاكبر . فاقبل رسول الى ايوب وقال : كانت البقر تحرث والأتن

(١) سفر ايوب ١ و ٢

ترعى بجانبها ، فوقع عليها اهل سبأ وأخذوها ، وقتلوا الغلمان بحدّ السيف . وأفلتُ انا وحدي لأُخبرك » .

« وفيما هو يتكلم أقبل آخر وقال: قد سقطت نار الله من السماء واحرقت الغنم والغلمان وأكلتهم . وأفلتُ انا وحدي لأُخبرك » .

« وفيما هو يتكلم اقبل آخر وقال: وقد افترق الكلدانيون ثلاث فرق وهجموا على الابل وأخذوها وقتلوا الغلمان بحدّ السيف . وأفلتُ انا وحدي لأُخبرك » .

« وفيما هو يتكلم اقبل آخر وقال : كان بنوك وبناتك يأكلون ويشربون خمراً في بيت اخيهم الأكبر . فاذا بريح شديدة قد طلعت من عُرض الصحراء وصدمت زوايا البيت الأربع فسقط على الغلمان فماتوا وأفلتُ انا وحدي لأُخبرك » .

« فقام ايوب وشقّ رداءه وجزّ شعر رأسه وخرّ على الارض وسجد . وقال : عرياناً خرجت من جوف امي وعرياناً اعود الى هناك الرب أعطى والرب أخذ ، فليكن اسم الرب مباركاً » .

« في هذا كله لم يخطأ ايوب ، ولم يقل في الله جهلاً » .

ثم سمح الرب للشيطان ان يزيد على ما أنزل به من شدة وان يضربه بجسده ليمتحن ثباته في تقواه وصبره .

« فقال الرب للشيطان : ها انه في يدك ولكن احتفظ بنفسه » .

« فخرج الشيطان من لدن وجه الرب وضرب ايوب بقَرح خبيث من باطن قدَمه الى قمته . فأخذ له خزفة ليحتكّ بها وهو جالس على الرماد » .

« فقالت له امرأته: أإلى الآن انت معتصم بسلامتك . جدّفْ على الله ومُتْ . فقال لها : انما كلامكِ كلام احدى السفيهات . أنقبَلُ الخيرَ من الله ولا نقبل منه الشر » .

« في هذا كله لم يخطأ ايوب بشفتيه » .

الفصل التاسع

في فضيلة الثبات

ماهيتها . — الثبات هو فضيلة مسيحية تحمل الانسان على الاستمرار في الصبر والجهاد والاحتمال حتى النهاية من غير ان يستسلم للضجر او للقنوط او للكسل .

ان الانسان ميّال بطبيعته الى التقلّب والتغيُّر والملل . ويضجر من الجهود المتواصلة ، ويتهرّب من متابعة السهر على نفسه ، ويتراءى له مراراً انه لا يستطيع الاستمرار على مقاومة التجارب والصمود الدائم للمحن . فيتعرض للتراخي والكسل . فلئلا يستسلم للملل والضجر تلزمه فضيلة الثبات . فالثبات هو القوة المنيعة التي تحرس سائر الفضائل وتحميها من الضياع والاضمحلال . لذلك كانت هذه الفضيلة فرعاً من فروع الشجاعة .

ويجب على المسيحي الذي يطلب ان يحافظ على كنوز النعمة التي في قلبه ان يعلم ان الفضيلة لا تتأصل في قلبه ولا تصبح ملكة في حياته الا بتكرار الافعال ومرور الزمان ؛ وان الضجر يسبّب القنوط والكسل فتبرد الهمم ، وتتراخى الارادة ، ويذهب النشاط ؛ فتنبعث الاميال من مكامنها .

وكثيراً ما ينصبُّ المرء من جديد بشره على ما يكون قد حرم نفسه منه زماناً ، من شهواته وملذاته . وهكذا يعرض نفسه لخسارة فضائله وثمار جهوده .

كيفية الحصول على فضيلة الثبات . – ان الثبات على الصلاح والتقوى والفضيلة هو نعمة من الله يسبغها تعالى علينا بتحننه ورحمته . لذلك كان علينا ان نطلبها بالصلاة الحارّة المتواصلة ، متوسلين الى قلب يسوع ينبوع المراحم والنعم ، والى البتول الطاهرة شفيعة النفوس التقية المسيحية ، ان يحفظانا بالنعمة ، ويثبتانا في مقاصدنا ، ويقويانا على الدوام في اعمال تقوانا وفي شدائدنا . فالصلاة هي الواسطة الاولى الكبرى للثبات .

والواسطة الثانية الفعّالة هي التأمل في العقائد الكبرى المسيحية وفي عواقبنا الاخيرة . فعندما ننظر الى الدنيا وجهاً الى وجه نراها زائلة ؛ واذ نتأمل الابدية فنشعر بانها راكضة الينا مسرعة ؛ وعندما تتشبع نفوسنا من حقيقة محبة يسوع لنا ، ومن ملكوته الذي ينتظرنا ، تنشط نفوسنا ، وتتجدد على الدوام قوانا ، وتنتعش قلوبنا ، فنداوم السعي في طلب الفضيلة ، ونثبت في خدمة الله ومحبته وعبادته . ولا يغرب عن فكرنا ان الله لا يطلب منا النجاح في اعمالنا ، بل يريد حسن النية وصدق الجهد .

حادث تاريخي

اغسطينوس ومونيكا

قضى اغسطينوس شبابه في قلق واضطراب . واستغرقته بدعة المانيشيين فتبعها ، وصار من المجاهدين في ميدانها . واستسلم من بعد ضلال العقل الى ضلال القلب فسقط الى احط درجات الاثم والرذيلة .

لكن قلب والدته مونيكا القديسة كان ساهراً عليه ، وعينها يقظى ترقبه فتألمت كثيراً لضلاله وغروره ، وذرفت دموعاً غزيرة عليه . ولكنها كانت تصلي لاجله بثبات ، وتتضرع الى الله بلا انقطاع ، مثابرة على الدعاء والصوم والاماتات والآمال . وبقيت عشرين سنة لا تيأس من رحمة الله ولا من رجوع ابنها الى ايمانه وواجباته واليها . حتى فازت ببغيتها وربحت ابنها ، وكافأ الله بجود لا نظير له ذلك الثبات العجيب ، فوهب كنيسته نابغة من النوابغ التي يندر ان تظفر الاجيال بمثلها في تاريخها .

وما كاد يرجع اغسطينوس عن غروره بفضل دموع مونيكا امه . وبسعي وقداسة امبروسيوس اسقفه وصديقه حتى سار بخطى جبارة في طرق القداسة ، وانبرى يدافع عن الايمان القويم بعزيمة لم تثنها الايام ولا المكاره ولا الشدائد ، حتى صار نجماً ساطعة في سماء الكنيسة ، واضحى على ممر الاحقاب الفيلسوف الكبير بين فلاسفة النصرانية والدنيا .

والنصر ما زال ثمرة الثبات والتضحية والمحبة الصادقة .

الفصل العاشر

في فضيلة القناعة

تعريفها . — ان الشجاعة تنصرنا على عاطفة الخوف وتقوي ارادتنا في الشدائد اما القناعة فانها تمكّننا من الغلبة على ما نشعر به من الميل المفرط الى المتعة الدنيوية وانواع الملذات الارضية .

فالقناعة هي فضيلة ادبية مسيحية تلطِّف جماح اندفاعنا في طلب ما نجده من اللذات في حاستي الذوق واللمس ، وتقيده في الحدود المشروعة الحسنة .

ان القناعة تشرف على حسن انتظام كل متعة ، وكل لذة يمكن ان يطلبها الانسان ويتمتع بها . إلّا انها تنظر بالاكثر الى تلطيف جماحه في الاندفاع نحو ما يجده من اللذة في الأكل والشرب ، وفي العلاقات الجنسية . ان المرء ميال بطبيعته الى الافراط في طلب المتعة ، ويشعر برغبة داخلية عنيفة تدفعه الى الشره في استعمال اللذة . وكثيراً ما يُعرض عن الغاية الشريفة التي لاجل تسهيل الوصول اليها ، وضع الله اللذة . فيسعى في طلب هذه اللذة لاجل اللذة نفسها ، فيجعلها غاية بدل ان تبقى واسطة ،

ويطرح عنه الواجب الذي لاجله ولاجل تسهيل القيام به ، وضع الله تلك اللذة . وعندما تصبح اللذة غاية، تؤدي الى عكس غايتها مراراً ، فتسبب أضراراً ، وتكون هذه الأضرار عقاب من حاد عن جادة الواجب والصواب .

فالقناعة تلطف هذا الجماح ، وتنظم حركته ، وتقيده في حدود العرف والشرع والقانون ؛ بل تذهب الى ابعد من ذلك فتلجمه احياناً حتى عن طلب ما هو حق مشروع لتكبحه وتأسره فيبقى خاضعاً لا يتمرد على الارادة ، ولا يخرج عن دائرة العدل والمنطق والغاية الشريفة التي انما وضعت اللذة لاجلها .

البحث الاول

القناعة في الاكل والشرب

ان الله وضع اللذة في الاكل والشرب ليسهل لنا واجب المحافظة على صحتنا وحياتنا . ان الحياة هي هبة منه تعالى ، فلا حق للانسان عليها ، فهي ملك الخالق كما يشاء يتصرف بها . وان الله مبدع الطبيعة لكي يحمل الانسان على احترام حياته وضع لذة الأكل والشرب قواماً لها وعوناً على بقائها .

ولما كان الانسان ميالاً الى إفساد ما صلح ، جعل يطلب في الأكل والشرب اللذة ، ويُسرف في طلبها ، ويفرط في استعمالها ، متناسياً الغاية الشريفة التي وضعت لاجلها . فاضحى لذلك شرهاً آثماً .

فالشراهة هي الافراط في استعمال لذة الاكل والشرب ؛ هي طلب اللذة لاجل اللذة . فبدل ان يستخدم الانسان لذة الاكل والشرب ليشبع جوعه ويحفظ صحته وحياته ، يجدُّ في طلبها ، ويفرط في استعمالها الى حدٍّ أنها تصبح في غالب الاحيان سبب امراضه وموته . لان من الناس من يجعلون بطونهم آلهتهم [1] . فيقضون ايامهم لا همَّ لهم الا موائدهم .

فالانسان الشره يأكل في كل آن من غير ان تدعوه الى ذلك ضرورة الصحة والحياة . الانسان الشره يتفنن كثيراً في تحضير افخر المآكل والمشارب ليزيد فوق العرف المقبول في لذة طعامه وشرابه . الانسان الشره لا يكتفي باشباع جوعه بل يأكل ويشرب فوق طاقته واكثر بكثير من شبعه بدافع اللذة التي يجدها في مأكله . الانسان الشره يهجم على الموائد كما يهجم الحيوان على فريسته ، فيأكل بنَهَم ، ولا يأبه لما في ذلك من غلاظة وقلة ادب وعدم كياسة .

---

(١) فيلبي ٣ : ١٩

شر الشراهة . — فالشراهة دناءة واساءة معاً . هي دناءة لانها تحدر المرء الى درجة الحيوانات ، فيصبح اسير شرهه ونهمه ، لا يفكر الا بأكله ولا يهمه إلا مَلأ بطنه ، وينسى انه انسان فينزل الى رتبة الحيوان ، بل يصبح احط من الحيوان ، لان الحيوان يعاف الاكل حينما يشبع ولو كان لديه شهياً ، أما الانسان الشره فلا يعرف الشبع ابداً .

والشراهة هي ايضاً اساءة . فهي اساءة الى الله ، والى المرء الشره ذاته ، والى قريبه . لان الشره ينسى وصايا الله ، فينبذ شريعة الصوم ؛ ويبذر امواله في الاكل والشرب مهملاً عائلته وزوجته واولاده ؛ ويسيء الى صحته وربما الى حياته .

ولقد ابدع الخطيب الكبير الاب جانفيه في وصف مفاعيل الشراهة فقال : « ان الإفراط في الاكل والشرب يمهد السبيل لرذيلة الدنس ، لان هذه الرذيلة الدنيئة تكون مراراً نتيجة الشراهة . وهكذا تتدنس الآذان والعيون وتصبح تطاب شهوتها السافلة في الملاهي وفي البذيء من الاغاني . وتتدنس المخيلة فتضطرب . وتتدنس الذاكرة فتقوم تبحث في حوادث الماضي عمّا يهيج الشهوة الفاسدة . وتتدنس الافكار فلا تقع إلّا على المواضيع المحرمة . ويتدنس القلب فلا يتشوق ألا الى الحب الحسي والعشق الجسدي . وتتدنس الارادة فترمي سلاحها

وتستسلم لاستبداد الحواس الجسدية بها... وشراهة الاكل تقود الى شراهة اللسان. ويعلم الله كم يزلُّ اللسان وكم يتهور الانسان وهو جالس على الموائد الفخمة يلتهم اطعمتها ويغرق في مشروباتها. فينسى المرء فيها مقامه، ويرمي الى الحضيض هيبته، ويمتهن وظيفته، ويفضح اسراراً كان قد وعد بكتمانها، بل يفشي اخباراً تقضي مهنته بان يحترم قدسيتها، وربما عرض صيت زوج بل سمعة زوجةٍ وامٍّ للريبة والاهانة. وقد يسبب احياناً تدنيس شرف عائلة باسرها؛ وربما عرَّض مستقبل شعب باسره لأسوإ الشرور. ويا ما يخطئ الانسان الشره اثناء الولائم ضد فضائل العدل والمحبة. فلا رادع يردعه عن النميمة والافتراء، وعن الفضيحة بكل انواعها، لا بل يطلق العنان لحرية ذميمة مستغربة ليس لها ما يبررها. ويا ما يتعدى ايضاً حدود الفطنة العاقلة فيرتبط بمواعيد، ويتعهد بالقيام باعمال يعسر عليه اتمامها ما لم يضحِّ بكل الشرائع المقدسة» [1]. ألم يأمر هيرودس بقطع رأس يوحنا المعمدان اثناء وليمة بعد ان كانت الخمرة قد لعبت في رأسه وتهيجت اعصابه؟

وتكون الشراهة اثماً خفيفاً فقط عندما يتجاوز الانسان في اكله وشربه مألوف عادته ومطالب صحته والظروف المشروعة المحيطة به.

(1) *Carême 1921, Ret. Pasc. Excès de table.*

دواء الشراهة : الدواء الاول هو النية الصالحة في جلوسنا على موائدنا . والنية الصالحة معناها ان نجلس الى الطعام بعاطفة مسيحية فنأكل لنتغذى ونتقوى ونتمكن من حسن القيام بواجباتنا وخدمة الله وخدمة قريبنا . معناها ان نشكر الله على ما أنعم به علينا من الغذاء ، وان نتواضع امامه معترفين باننا غير اهل لما يجود به علينا من كفافنا وخبز يومنا ، وان نحبه ونعده بان نضع قوانا في خدمته . « فاذا اكلتم او شربتم او عملتم شيئاً فاعملوا كل شيء لمجد الله »[1] . وقيل في سفر طوبيا : « ثم تقدموا الى الوليمة إلا أنهم اتخذوا وليمة العرس بخوف الله »[2] .

والدواء الثاني هو التقشف . ان القناعة معناها الاكتفاء بما يشبع جوعنا . اما التقشف فهو حرمان ذاتنا شيئاً مما يحق لنا تناوله من طعامنا وشرابنا . وهي عادة طيبة يستعملها المسيحيون لينجوا من شرور الشراهة الذميمة . ولقد طالما كان رجال الله متقشفين في مآكلهم ومشاربهم لأنهم يعلمون ان لا قوام للحياة المسيحية الا بالزهد والتقشف . وان الحياة الرهبانية ، وهي الحياة المسيحية الكاملة ، مؤسسة على الزهد والاصوام الكثيرة واماتة الشره بانواعه من حيث انواع المآكل وكميتها واوقات

(١) ١ كور ١٠ : ٣١ (٢) طوبيا ٩ : ١٢

تناولها . وهذا ما حمل الكنيسة المقدسة ايضاً على وضع شريعة الصيامات الاسبوعية والسنوية .

اما بخصوص المشروبات الروحية فخير ما نعمله ان نأخذ القليل منها مما يوافق مزاجنا وصحتنا . وان امتنعنا عنها امتناعاً كاملاً يكون افضل لنا لان هذا النوع من التقشف مفيد جداً لتقوية ارادتنا واعطاء المثل الصالح لقريبنا .

البحث الثاني

في فضيلة العفاف

العفاف هو القناعة فيما هو من حاسة اللمس ، وعلى الاخص في كل ما له اتصال بالعلاقات الجنسية ، من حيث الافكار والاقوال والافعال . لذلك كان العفاف تلك الفضيلة المسيحية البهية الزنبقية التي تلجم فينا كل ما يخالف النظام الموضوع من الله في اللذات الجسدية . ولما كان الله قد رتب هذه اللذات لاجل غاية شريفة وهي دوام بقاء الجنس البشري ، وجعل الزواج المقدس الشرعي واسطة لتحقيق تلك الغاية الشريفة ، كان كل عمل يخالف هذا الترتيب الالهي شراً واثماً معاً .

ولما كان الانسان يندفع بطبيعته اندفاعاً عنيفاً نحو المتعة الجسدية دُعيت فضيلة العفاف الفضيلة الملائكية لانها تقرب الانسان العفيف من الملائكة الذين لا جسم لهم ولا يشعرون بتلك الاميال الجسدية . لذلك كان السلوك في طريق العفاف عسراً ، شديد المتاعب . ولا يتسنى للمرء ان يسير فيه الا بكبح جماح اهوائه واميالهِ، وباستعمال انواع التقشف والزهد المسيحي.

درجات العفاف . — للعفاف درجات : اولها ان نحرص كل الحرص على ان لا نقبل برضانا اي فكر او تصور او شعور او عمل يخالف فضيلة الطهارة .

وثانيها ان نبعد حالاً عن مخيلتنا وعن ذاكرتنا كل فكر او ذكر او صورة او شعور من شأنه ان يشوّه جمال هذه الفضيلة الملائكية .

وثالثها ان يصل بنا تحكمنا بعواطفنا واميالنا الى حدٍّ اننا لو دعتنا الضرورة لكي نتحدث عن الامور التي لها اتصال بالعلاقات الجنسية ، من القاء درس ، او شرح ، او ارشاد ، او تحذير ، لا نشعر باي اضطراب داخلي او خارجي ، كما لو كنا نتحدث عن مواضيع غريبة عن هذا الموضوع . وهذا ما لا نصل اليه الا بعد جهاد طويل وتقشف مديد .

ورابعها ان يبقى الانسان منزهاً عن كل شعور يخالف

العفاف والطهارة فلا يشعر بميل من الاميال الجسدية ولا بشهوة ما من الشهوات اللحمية ، بل يبقى ساكناً هادئاً في افكاره ومخيلته وقلبه واعضائه . انما لا يكون هذا الا بنعمة خصوصية وموهبة فائقة مجانية من لدن الله ، كما كانت حال البتول مريم مدة حياتها كلها ، وكما حصل لبعض القديسين في شطر من حياتهم . فان القديس توما الاكويني مثلاً نَعِمَ بهذه الموهبة السامية الملائكية من بعد حادث عظيم كانت فيه فضيلته عرضة لأشدِّ المخاطر فخرج منه منتصراً ظافراً . لذلك كافأه الله بان عصمه من كل ميل يخالف فضيلة الطهارة البهية ، وصار التاريخ يدعوه المعلم الملائكي .

انواع العفاف . — العفاف على نوعين : العفاف في الزواج ؛ والعفاف في العزوبة ، او الطهارة الكاملة . وسنتكلم بايجاز عن كل منهما .

العفاف في الزواج

يانه . — القناعة في الزواج او العفاف في الزواج هو الاعتدال في طلب اللذات الجسدية ، وتقديس النية في استعمالها .

ولقد رفع السيد المسيح الزواج الى درجة سامية فجعله سراً من الاسرار السبعة المقدسة ليعلن للبشر ان الزواج طريقة

نبيلة ، والغاية منه شريفة . فهو قوام وجود وتكاثر الجنس البشري على الارض ، وأصل نعيم جماهير القديسين في السماء . لذلك كان الزواج شيئاً عظيماً . فليس هو لذة وقتية جسدية دنيئة ، بل هو قبل كل شيء رسالة الهية . وهو غبطة روحية تعقبها ثمرة علوية . هو اغتباط روحين وقلبين ببعضهما وتعاونهما على الحياة وتكانفهما لحسن أداء واجباتهما . وثمرة تلك المحبة والارتباط والغبطة والتعاون هو الولد الذي يعمِّر الارض ويملأ السماء .

فالزواج هو من المهمات الكبرى المقدسة . لذلك ضلَّ وسقط من طلب فيه مجرد اللذة الجسدية الحيوانية ، وجرَّده من غايته النبيلة الانسانية الالهية . فالمرأة هي شريكة الرجل في حياته الاجتماعية ورسالته السامية ؛ ومقامها لا ينقص عن مقامه شرفاً واعتباراً ، ولو كانت واجباتها الاجتماعية والعائلية غير واجباته ، ووضعها غير وضعه . فهي قلبه النابض وغبطته المقدسة ، كما هو فخرها وسبب هنائها . وان واجباتها تساوي واجباتهِ في المسؤولية ، وحقوقها كحقوقهِ في الاجور السماوية . فهي ملكة متوجة في بيتها وليست أمَةً مشتراة لمجرد متعة صاحبها او زوجها . فالزواج هو اتحاد قلوب قبل ان يكون اتحاد اجسام . وغايته الكبرى الولد ؛ والغاية القصوى السماء . لذلك يأثم اثماً فظيعاً من يطلب لذة الزواج في غير محلها ويدنسها . ولهذا كان

العفاف في الزواج من اكبر فضائل الحياة الزوجية . فالعفاف هو الامانة في المعاشرة ، والاستقامة في المحبة المتبادلة ، والاعتدال في الاستعمال ، والتضحية في الحياة المشتركة .

وما ابدع ما وضعه بولس الرسول من شريعة اساسية لسرّ الزواج المسيحي المقدس . ففيه كل عوامل الهناء والسعادة والقداسة معاً : « ايها الرجال أحبُّوا نساءكم كما احبَّ المسيح الكنيسة وبذل نفسه لاجلها . . . من احبَّ امرأته احب نفسه ... ان هذا السرُّ عظيم ... لتخضع النساء لرجالهن كما للرب لان الرجل هو رأس المرأة كما ان المسيح هو رأس الكنيسة »[1] .

فاذا ما احب الرجال نساءهم كما احبَّ المسيح الكنيسة، ليس شهراً او شهرين ، او سنة او سنتين ، في ايام الصبا والجمال والغنى ، بل في كل ايام الحياة ، وكل اطوارها وتقلباتها وبذلوا في سبيلهن نفوسهم كما فعل المسيح مع الكنيسة ، عَبَدَتْهم نساؤهم وخضعت لهم كما تخضع الكنيسة للمسيح . وبذلك سعادة الحياة الزوجية والاولاد الصالحون .

فالزواج اذاً ليس هو لذة ومتعة فقط بل هو غبطة وسعادة . لان مجرد طلب اللذة الجسدية هو اصل شرور كثيرة ومتاعب كثيرة ، والافراط فيها يسبب امراضاً وعاهات لا تبرأ . اما الغبطة

---

(١) افس ٥ : ٢١ – ٣٢

فهي روحية ولا تجدها الا في الحياة الحقة المسيحية .

ويقول القديس فرنسيس السالسي في ذلك : « ايها الرجال احبوا نساءكم محبة قلبية صادقة دائمة . فاذا اردتم ان يحفظن لكم الامانة الزوجية فعليكم ان تكونوا انتم لهن في ذلك خير مثال . وانتنّ ، ايتها النساء ، ان شرفكنّ هو في عفافكُنّ وطهارتكن . فحافظْنَ على هذا المجد بغيرة صادقة . إيّاكُنّ ان تعرّضنَ صيتكن لما يذبل نضارته . واحذرنَ مَن يأتيكن بعبارات الثناء ، ولاسيما مَن يحتقر ازواجكن امامكن ، لانها تكون اهانة لَكُنّ . فان من يجسر على مثل هذا ، لا يرغب في سقوطكن فحسب ، بل يعتبر انكن قد بدأتنّ فعلًا بالسقوط» .

والقديس غريغوريوس النزينزي يخاطب الرجال بجرأته المعتادة ويقول :- « باي عين وقحة تجسرون على مطالبة زوجاتكم بالامانة والعفاف اذ تكون حياتكم انتم ملطخة بالادناس» .

الواجبات الزوجية . — ان العفاف في المعاشرة الزوجية يقضي باشياء ثلاثة : يقضي اولاً بان تكون النية في الزواج طاهرة . ونجد مثالاً لذلك في الكتاب المقدس في سيرة طوبيا الصغير البار : « ووعظ طوبيا البكر وقال لها : يا سارة قومي نصلي الى الله اليوم وغداً وبعد غدٍ فإنا في هذه الليالي الثلاث نتحد بالله ؛ وبعد انقضاء الليلة الثالثة نكون في زواجنا . لأنا بنو

القديسين فلا ينبغي لنا ان نقترن اقتران الامم الذين لا يعرفون الله . فقاما معاً وصلّيا كلاهما بحرارة حتى يعافيهما . وقال طوبيا : ايها الرب اله آبائنا ، لتبارككَ السماوات والارض والبحر والينابيع والانهار وجميع خلائقك التي فيها . . . والآن يا رب ، انت تعلم انني لا لسبب الشهوة اتخذ اختي زوجة ، وانما رغبة في النسل الذي يبارك فيه اسمك الى دهر الدهور . وقالت سارة ايضاً : ارحمنا يا رب ، ارحمنا حتى نشيخ كلانا معاً في عافية »[1] .

وهو يقضي ثانياً بان لا يمتنع الزوجان عن بعضهما ، بل يقبلان على المعاشرة بأمانة واخلاص ورضى ، عالمين ان كل ما من شأنه ان يساعد على ولادة الاولاد فهو حسن ومقبول عند الله ، وان كل ما يحول مباشرة دون هذه الغاية الشريفة فهو اثم ومعصية . « ليكن المضجع طاهراً » يقول القديس بولس . ولهما ان يتركا بعضهما الى حين عن اختيار وموافقة بروح التقشف مثلاً ، او لغير ذلك من الاسباب المشروعة . ولكن ليكن ارشاد بولس الرسول في ذلك نوراً لهما يستضيئان به : « ليقضِ الرجل امرأته حقها وكذلك المرأة ايضاً رجلها . ان المرأة لا تتسلط على جسدها بل رجلها ، وكذلك الرجل ايضاً لا يتسلط على جسده بل امرأته . لا يمنع احدكما الآخر عن ذاته الا على موافقة الى حين لكي تتفرغا

(١) طوبيا ٨ : ٤ – ١٠

للصلاة ثم عودا الى ما كنتما عليه لئلا يجربكما الشيطان لعدم عفتكما »[١] .

وهو يقضي ثالثاً بالاعتدال في استعمال الحقوق الزوجية . ان الافراط هو في كل شيء ضرر وخسارة ، وعلى الاكثر في الامور التي لها علاقة بالزواج . انما الوصول الى هذا لا يمكن الا اذا اعتاد المرء اخضاع شهواته لواجباته . وان المصاعب في ذلك تذلل بالصلاة والتقشف والشجاعة ونعمة الرب يسوع .

العفاف في العزوبة والبتولية

ان الطهارة الكاملة هي واجبة على كل انسان غير مرتبط بسر الزواج المقدس . والغير المتزوجين انواع :

منهم العزاب الذين لم يتزوجوا بعد ولكنهم يرغبون في الزواج . ومنهم الارامل . ومنهم الذين عاهدوا الله على ان يحافظوا طوال حياتهم على البتولية ، رهباناً كانوا ام راهبات ، كهنة ام علمانيين . فالواجب المسيحي يقضي على هؤلاء كلهم ان يحافظوا على طهارة قلوبهم واجسادهم اتم المحافظة بكل قواهم . وان طهارة القلب ونقاوة العاطفة وبتولية الارادة هي قبل طهارة وبتولية الجسد ، حتى لقد يفقد المرء هذه وتبقى

(١) ١ كور ٧ : ٣ — ٥

الاولى على كمالها وبهائها. وكم من مرة في تاريخ النصرانية جاهرت البتولات العفيفات امام المستبدين من الحكام الوثنيين، لما كانوا يتهددوهن بفضّ بكارتهن وانزال العار بهن ان هُنَّ أصررْنَ على التمسك بأيمانهن بأن البتولية هي قبل كل شيء فضيلة القلب وانها بعيدة عن متناول المغتصبين.

ويفقد الانسان فضيلة الطهارة ليس بالفعل الدنس فحسب، بل بكل فكر او عاطفة او نظرة او لمسة غير مرتبة وغير نقية. لذلك وجب على المسيحي، لكي يكون طاهراً عفيفاً، ان يسهر على طهارة افكاره: «وبعد ايها الاخوة، مهما يكن من حق او عفاف او عدل او طهارة ... ففي هذه فلتكن افكاركم»[1]. — وعلى طهارة رغائبه: «ايها الاحباء اسألكم كالغرباء والنزلاء ان تبتعدوا عن الشهوات الجسدية التي تحارب النفس»[2]. — وعلى طهارة نواظره: «قد عاهدت عينيَّ ان لا أتأمل في عذراء»[3]. وايضاً: «ان كل من نظر الى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه»[4]. — وعلى طهارة اقواله: «فالزنى وكل نجاسة او بخل لا يذكر ولا اسمها فيما بينكم على ما يليق بالقديسين»[5]. — وعلى طهارة اعماله: «طوبى للانقياء

(١) فيلي ٤ : ٨ (٢) ١بطرس ٢ : ١١ (٣) ايوب ٣١ : ١
(٤) متى ٥ : ٢٨ (٥) افس ٥ : ٣ و ٤

القلوب فانهم يعاينون الله »[١] . وايضاً : « فاسألكم ايها الاخوة براحم الله ان تقربوا اجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادة منكم عقلية »[٢] .

ولما كانت فضيلة الطهارة من اصعب الفضائل المسيحية ممارسة لانها فضيلة ملائكية في خلائق بشرية لها مع ارواحها اجساد لحمية ، كان لا بد لها من وسائط فعالة قوية لحفظها وصيانتها . وترجع هذه الوسائط الى مناهج اربعة رئيسية : اولها التواضع ، وثانيها التقشف ، وثالثها ادمان المطالعة وحسن القيام بالواجبات اليومية ، ورابعها تغذية القلب بعواطف المحبة الالهية .

١ التواضع . — سوف نتكلم باسهاب عن هذه الفضيلة المسيحية السامية ، ونشرح في فصل خاص ماهيتها ودرجاتها ومنافعها . اما الآن فاننا نكتفي بان نلمس الموضوع لمساً مما يناسب المقام فقط فنقول :

ان التواضع الذي يحمي فضيلة الطهارة فينا يحملنا على ان نخاف من نفسنا ومن ضعفنا ، فلا نتكل على ذواتنا وعلى فضيلتنا وعلى قوانا في صيانة طهارة نفوسنا واجسادنا ، بل نتكل على الله ومعونة نعمته . ونضع فيه كل ثقتنا وآمالنا . وكثيراً ما يكون السقوط في رذيلة الدنس نتيجة كبريائنا وزهونا

(١) متى ٥ : ٨ (٢) رومية ١٢ : ١

وخيلائنا . فيعاقبنا الله بانه يتركنا لنحمي نفسنا بنفسنا ، فنتهور ونستسلم لاهوائنا ، ونسقط سقطات تشيننا وتذلنا . « وقد زعموا انهم حكماء فصاروا حمقى ... فلذلك اسلمهم الله في شهوات قلوبهم الى النجاسة لفضيحة اجسادهم في ذواتهم »[١] .

ويسمح الرب احياناً بتجارب رائعة تهاجم الاتقياء من الناس والمتعبدين حين يراهم وقد استكنوا الى فضيلتهم والى حسن ونقاء ماضيهم ، فتركوا التقشف والسهر على نفوسهم .

وما اصدق ما قال المعلم الروحي اوليبه في معنى ما تقدم : « لما كان الله يأنف كثيراً من ان يرى المرء مزهواً بنفسه فيعمل على اذلاله ، ويسمح بان يصير الى احط دركات الهوان . ولكي يجعله تعالى يتحقق ضعفه وعدم اهليته لان يقاوم الشر بنفسه ويصون الطهارة في قلبه من غير معونته تعالى ونعمته ، يسلمه الى التجارب الدنسة الفظيعة ، بل قد يسمح به فيسقط فيها ، لكونها احط من سواها كلها ، وتترك من بعدها شعور خزي وعار أليم . نعم هكذا يعاقب الله الانسان المتكبر المعتد بنفسه ، المتكل على قوته وفضيلته . اما الانسان المتواضع فانه ينال نعمة وطمأنينة وقوة وثباتاً . ولقد كان القديس فيلبس نيري يخاطب الله ويقول له : «يا رب خذ حذرك من فيليب لئلا يخونك» .

(١) رومية ١ : ٢٢ و ٢٤

ويجب علينا ان لا نتراخى في حذرنا من نفسنا ، وفي سهرنا على ابواب قلبنا ، وفي اتكالنا على معونة الله طول ايام حياتنا ، ولو صرنا في سن الشيخوخة ، ولو قضينا السنين الطوال في الفضيلة والطهارة الملائكية . لان للعدو ردّات عنيفة ومفاجآت غريبة مخيفة . الا ان الذي يخاف من نفسه ، ويحسب دائماً حساباً لضعفه ، ويستمر في طلب معونة الرب كل يوم من ايام حياته ، ولاسيما في تجاربه ، لا يسمح الله بان يجرب فوق طاقته . اما التجربة فهي حسنة لنا لانها تذكرنا بضعفنا وباحتياجنا الى العون الالهي في كل شؤوننا وعلى الاخص في امر خلاصنا . « فإنا لا نريد ان تجهلوا ايها الاخوة من جهة ما اصابنا من الضيق في آسية انه ثُقِّلَ علينا بافراط فوق الطاقة حتى مللنا من الحياة نفسها ، لئلا نتكل على نفسنا بل على الله »[1] .

والتواضع الذي يحملنا على الخوف من ضعف ارادتنا يجعلنا نبتعد عن الاسباب المثيرة لاهوائنا ولحواسنا . اما الاسباب الكبرى المسببة للاضطرابات الجسدية فيمن وقفوا حياتهم على خدمة الله في حال البتولية فهي مجالسة النساء والبنات لاجل مجرد التسلية ، ومسامرتهن ومغازلتهن ، والانفراد معهن ، والاسترسال في الاحاديث العاطفية والشؤون الزواجية بحضرتهن .

(١) ٢ كور ١ : ٨ و ٩

وعلى الكاهن بنوع اخص ان يحرص كل الحرص على نقاوة قلبه في معاملته مع السيدات ، وفي زيارة المريضات منهن ، وفي ارشاده للعذارى البتولات او للمتزوجات ؛ فيجتنب كل ما من شأنه ان يجرح سمعته ويعرض اسمه لسهام اللوم والشك . لذلك يجدر به ان يتسلح بالرصانة ، وان يترك ارشاد النساء الى منبر الاعتراف ، وان لا يستعمل في مخاطبتهن كلاماً معسولاً ، وان لا يتظاهر لهن بالعطف المثير لعواطفه وعواطفهن . لان المرأة طبعت على ان تنظر الى عطف الرجل عليها بعين الجسد اكثر مما تنظر اليه بعين الروح .

اما الاسباب الاخرى المهيجة للاميال الفاسدة فهي كثيرة ولا تقع تحت حصر . والرئيسية منها : قراءة الروايات الخلاعية ، والنظر الى الصور البذيئة ، وحضور الحفلات السينمائية المريبة او الفاسقة ، والاشتراك في الاجتماعات الراقصة المتهتكة ، وغشيان الحمامات البحرية وبرك السباحة الخصوصية حيث تباح انواع العري المستهترة وشتى الالعاب المثيرة للدعارة . ولا يقول قائل ان هذه الموضات العصرية اضحت لازمة ضرورية ، وانها لكثرة انتشارها وما أَلِفَهُ الناس من استعمالها يخفُّ او يتلاشى شرها او يذهب الكثير من وطأتها : ليس المخاطر بمحمود ولو سَلِمَ .

٢ التقشف . — لقد طالما كان التقشف الرادع الكبير للشهوات الجسدية . ولطالما حارب به القديسون ميولهم ونزعات حواسهم وانتصروا عليها بنعمة الرب ومعونته .

والتقشف يشمل الجسم كله مع الحواس الداخلية والخارجية باجمعها . فاذا ما بقي الجسم اسير الروح سهل على النفس الظفر بميوله ونزعاته : « بل اقمع جسدي واستعبده »[١] . لذلك كانت وصية الصيام ، والقناعة في الاكل والشرب ، وجلدُ الجسد بالمجالد ، وغير ذلك من افعال الاماتة ، خير معين على حفظ فضيلة الطهارة ، وعلى انتصار الارادة على ثورات الجسد النارية .

ان زنبقة الطهارة لا تصان نضارتها الّا بين اشواك انواع الاماتات الخارجية والداخلية معاً .

فنها اماتة العين : لان العيون هي الابواب الكبرى التي منها تدخل جيوش اعداء الطهارة . « قد عاهدت عيني ان لا اتأمل في عذراء »[٢] ، يقول ايوب الصديق . وابن سيراخ يقول ايضاً : « لا تتفرس في العذراء لئلا تعثرك محاسنها »[٣] . وايضاً : « اصرف طَرْفَك عن المرأة الجميلة ولا تتفرس في حسن الغريبة ، فان حسن المرأة اغوى كثيرين وبه يتلهب العشق كالنار »[٤] .

---

(١) ١ كور ٩ : ٢٧ (٢) ايوب ٣١ : ١
(٣) سيراخ ٩ : ٥ (٤) سيراخ ٩ : ٩ و١٠

ولقد قال رب المجد في الانجيل : « ان كل من نظر الى امرأة لكي يشتهيها فقد زنى بها في قلبه »[١] .

ومن اماتات الحواس اماتة الآذان واماتة اللسان : « فالزنى وكل نجاسة او بخل لا يذكر ولا اسمها فيما بينكم على ما يليق بالقديسين »[٢] . فاين سفاهة الكلام والاغاني البذيئة من هذه الوصية البولسية ؟

والاماتة هي على الاكثر اماتة اللمس . ما اجمل ما كتب في ذلك المؤلف الروحي بيريف (Perreyve) : « يا الهي اني اكرس لك يديّ الآن اكثر من كل آن . لك اكرسهما واقوم الى حد الوسواس على حراستهما . ان يديّ هاتين ستصبحان بعد ثلاثة ايام يدين كهنوتيتين ، وسوف تلمسان وتحملان جسدك ودمك . لذلك اريد ان احترمهما ، اريد ان اجلّهما كما أُجلُّ الاواني المقدسة التي على هياكلك »[١] . وسأل احد الكهنة يوماً القديس منصور دي بول قائلاً : هل يحسن به ان يلمس يد امرأة مدنفة . فاجابه القديس : « حذارِ من ذلك . لانه سهل على الشيطان ان يستخدم هذه الواسطة لكي يجرب الكاهن والمدنفة معاً . حذار ان تلمس ابنةً او امرأة ، مهما دعت الاسباب الى ذلك » . وان

(١) متى ٥ : ٢٨ (٢) افس ٥ : ٣

(1) *Méditations sur les saints Ordres*, p. 105. éd. 1874

من الاسباب المهيجة للعواطف وللحواس معاً لمس الاولاد وملاطفتهم وتقبيلهم . ما عدا ان هذا النوع من لعب الايدي يثير الشكوك في قلوبهم الغضة وربما يفقدهم نقاوتهم وسذاجة طويتهم .

واماتة الحواس الخارجية تشمل ايضاً حاسة الذوق . وقد تكلمنا عنها في حديثنا عن القناعة في الاكل والشرب .

وهي تشمل ايضاً حاسة الشم . لان التضمّخ بالعطور الى حد الافراط يثير الشهوات فينا ومن حولنا .

اما اماتة الحواس الداخلية فهي اماتة المخيلة والذاكرة ، وعلى الاخص اماتة القلب وما ينشأ فيه من شتى العواطف ، وما يصبو اليه من انواع الرغائب .

ان للمخيلة فعلاً كبيراً وتأثيراً خطيراً في امور الطهارة والعفاف . لان التصورات الغير المرتبة تثير في الاعضاء اضطرابات قوية . وان الكثير من التجارب الدنسة يهاجمنا بواسطة مخيلتنا . فلا ينجو منها لا كبير ولا صغير ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا رجل ولا امرأة ، ولا ناسك ولا قديس . وان افضل وسيلة للخلاص من هذه التصورات هي الصلاة ، ثم ابعادها عنا باشغال فكرنا ومخيلتنا بغيرها . ومثل هذه التصورات تلازم الناس الاتقياء احياناً ملازمة متعبة مزعجة . ولكن لا بأس عليهم اذا تواضعوا

امام الله وتذللوا وصلوا وابتعدوا عن الاسباب .

واكبر معين للمخيلة في عملها هو الذاكرة؛ لانها تحفظ الصور وتعرضها امام المخيلة فتقبل هذه عليها تلتهمها ، وتزيد في ابرازها وتكبيرها وتزيينها . فمن اراد صون طهارته من هجمات مخيلته عليه ان يطفئ انوار الصور الغير اللائقة التي سبق له ان رآها او سمع بها ، وحفظتها له ذاكرته في خزائنها .

والاماتة الكبرى التي تحفظ الطهارة هي اماتة القلب ؛ وهي اصعب الاماتات كلها . لذلك هي افضلها . ان الذين كرسوا الله بتوليتهم وعاهدوه على حفظ طهارتهم ، نظير الكهنة والرهبان والراهبات وبعض رجال الله من العلمانيين والعلمانيات، عليهم ان يسهروا على قلوبهم وعواطفهم لكي تبقى له تعالى ، فلا تذهب وراء الخلائق والدنيا . فاماتة القلب ، والتقشف في عواطف القلب ، هي لمثل هؤلاء الوسيلة الكبرى لحفظ البتولية .

ان الانسان طبع على الحب . والحب هو من ضروريات حياته . وان من مات قلبه ماتت عواطفه ، وهمدت احساساته ، وانطفأت مروءته ، واضحى حجراً قلَّ ان يرجو منه احد خيراً . فكيف نوفق بين اماتة القلب وبين ضرورة تغذية عاطفة المحبة والمروءة والتفاني فيه لكي يثابر الانسان على عمله؟ ان الامر لا يخلو من صعوبة ومن انتباه ودقة . فان العاطفة تخدم كثيراً في القيام

بالواجبات وحسن الاجادة فيها ، لاسيا في اوقات المصاعب والشدائد . فأفضل وسيلة لكي نبقي للقلب حرارته وعاطفته حتى يتابع بها عمله هي ان نوجّه نحو الله محبته ، فتبقى النار فيه تغذيه . وبذلك يسهل علينا ان نلجمه عن التعلق بالدنيا ، وعن السير كما يشتهي ويهوى ، ونجرده بالاماتة المتواصلة عن الارضيات فيبقى للسماويات ، لانه سريع التحول من وجهته الروحية الى عاطفته البشرية . وكثيراً ما بدأ القلب بالمحبة الالهية وانتهى به الامر الى المحبة الشهوانية . فالفطنة والشجاعة والحذر الدائم والتواضع والصلاة والاتكال على الله من ضروريات حياة اصحاب العفة والبتولية .

وما اجمل ما قاله القديس فرنسيس السالسي في فلسفة الحب : « كثيراً ما يتراءى لنا اننا نحب هذا الانسان لاجل الله ، والصحيح اننا نحبه محبة لنا ولاجل ذواتنا . نقول ان محبتنا له هي خالصة لوجه الله ، ولكننا نحبه لما نجد فيه من تعزية لنا ومن غبطة لنفوسنا » . ويعزى الى القديس اغسطينوس هذا القول : « ان الحب الروحي ينشئ الحب العاطفي ، وهذا يبعث على الحب الخدوم المتفاني ، وهذا التفاني يولّد الحب الأليف الطليق ، والألفة توصل الى الحب الشهواني » .

فالمحبة التي تولدها الصداقة بين رجل وامرأة ، وبين استاذ

وتلميذه ، وبين كاهن وافراد رعيته ، وراهبة وتلميذاتها ، وصبي ورفيقه ، لكي تبقى صداقة بريئة ومحبة نقية مسيحية يجب ان لا تتعدى الحدود المعقولة ، وان تتنزّه عن الالفة الطليقة الحرّة التي غالباً مـا تولّد الشهوات الجسدية . لذلك لا بد من اتقاء المحادثات المعسولة ، والعشرة الخفيفة ، والمداعبة المسترسلة .

ونتيجة القول ان زنبقة الطهارة لا تصان نضـارتها الا بالتواضع والتقشف مع جهادٍ دائم لا يعرف الكلل ولا الملل . وهذه الزهرة السماوية هي مجد الديانة المسيحية ، فهي نبتة جنانها ، وزينة رجالها ونسائها ، وبهاء شبانها وشاباتها .

بقي علينا ان نقول كلمتين في الوسيلتين الاخريين لحفظ الطهارة وهما الاقبال على الدرس والمطالعة ، وتغذية القلب بعواطف المحبة الالهية .

٣ الاقبال على الدرس والمطالعه وحسن القيام بالواجبات اليومية . —

لما كانت البتولية الدائمة هي حال الرهبان والكهنة كان الهرب من البطالة والانصباب على الدرس والمطالعة من اقوى الاسلحة لهم وانجعها لصون فضيلة الطهارة في قلوبهم واجسامهم . « فان الفراغ يعلم ضروب الخبث »[1] ، يقول ابن سيراخ . ويقول المثل الروحي السائر : « المكب على عمله يجربه شيطان واحد واما البطال

(١) سيراخ ٣٣ : ٢٩

فيجربه منه شيطان» . والمثل العامي في هذا طريف ايضاً: «رأس الكسلان دكان الشيطان» . ولا غرابة في ذلك لان من لا عمل له يستسلم لأحلامه واوهامه وتصوارت مخيلته . وافكاره تحمله عادة ليس الى السماوات والالهيات بل الى الارضيات والجسديات، فيعرض زنبقة طهـارته لأرياح السموم فتذبل، وربما يبست وسقطت . اما المكد والمجد والمطالع والكاتب، والمنهمك في شغل يتطلب امعان فكر وجهود عقل، فمثل هذا لا يجد متسعاً من الوقت ليعير تجارب الشيطان التفاتاً، او ليترك لنزعات الطبيعة وميولها مجالاً . وهكذا يعيش عادة بعيداً عن كرّات العدو وحيله ودهائه، ويسلم من غوائله .

لذلك كان الاقبال على المطالعة، وعلى اعمال الغيرة الرسولية وخدمة النفوس، من انجع الوسائل لحفظ العفة . لانها تملأ القلب ثقافةً وغذاءً روحياً، وتبدد الاوهام، وتشغل الاوقات، وتوفر على رجال الله تعباً وعناءً .

٤ تغذية القلب بعواطف المحبة الالهية . — ان الشغل والدرس يحصنان عقلنا ضد هجمات الافكار الدنسة والتصورات القبيحة . اما محبتنا لله فهي تحمينا من الميل العاطفي الحسي نحو الخلائق البشرية، وتبعد عنا الكثير من التجارب الغير اللائقة .

لقد خلق الانسان لكي يعيش من الحب . «ان الله

محبة »[١] . ولقد خلق الانسان على صورته ومثاله . وهكذا خُلِقَ الانسان ليحيا مغموراً بعواطف الحب . لذلك كان الحب غذاء قلبه والمتسلط الاكبر على حياته . وان افضل ما يريده الله من الانسان قلبه : « يابني اعطني قلبك »[٢] . ولقد جمع السيد المسيح الناموس والانبياء كلهم في كلمتين : محبة الله ومحبة القريب . فالمسيحي الصادق في ايمانه هو الذي يحب الله محبة صحيحة قوية وينبذ لاجله كل حب سواه . ولقد جاء في كتاب « سلّم الفضائل » للقديس يوحنا السيناني قوله : « ان صاحب الفضيلة هو الذي عشق جمال السماويات حتى صار يأنف النظر الى جمال الارضيات . فهو لا يشعر بالنار التي يتأجج سعيرها في قلب غيره »[٣] .

الا ان حب المرء ليسوع لا يشغل قلبه عما سواه الا اذا كان قوياً مضطرماً جواداً . هكذا احب القديسون ، هكذا احب رجال الله الصالحون ، فشغَلَهم حبهم لله عن كل شيء سواه . فلم يبقَ محل لغيره ، ولا عاطفة تستهوي القلب بدونه . لان من طبيعة الحب ان لا يجمع في آنٍ واحد بين حبيبين : « لا تقدرون ان تعبدوا الله والمال »[٤] .

---

(١) ١ يوحنا ٤ : ٨ (٢) امثال ٢٣ : ٢٦ (٣) سلم ، درجة ١٥ : ٧
(٤) متى ٦ : ٢٤

وما ابدع ما قالت في هذا المعنى حبيبة يسوع الكبيرة ، تريزيا الصغيرة : « يا يسوع حبيب قلبي ، لقد فهمت وعرفت ما هي دعوتي . ان دعوتي هي الحب . . . انا اعلم يا الهي ، ان الحب لا يقابل الا بالحب . لقد سعيت وراء وسيلة اقدر بها ان اريح قلبي فوجدتها في ان اقابل حبك بحبي . . . يا يسوع قد كان يجب ان يكفيني ان اكون لك عروسةً ، ان اكون راهبة كرملية ، ان اكون اماً للنفوس باتحادي بك . لكني اشعر بدواخلي بدعوات كثيرة ايضاً غير هذه الدعوة السامية . اشعر بداعٍ يدعوني لأكون جندية من جنودك ، لأكون كاهناً من كهنتك ، لأكون رسولاً من رسلك ، لأكون من معلمي كنيستك ، لأكون شهيدة من شهدائك . اشعر بدافع يدفعني للقيام بجميع اعمال البطولة الفائقة . اشعر في قلبي بشجاعة الصليبيين ؛ اني اتشوّق الى الموت في ساحة الوغى دفاعاً عن الكنيسة المقدسة . . .

» آه يا حبيب قلبي ، كم انا تواقة الى انارة العقول على مثال الانبياء والمعلمين ! وكم شهوتي عظيمة لأن اطوف اقطار الارض مبشرة باسمك ، ورافعة صليبك المجيد بين الامم التي لا تزال تجهلك . الا اني لا أكتفي برسالة واحدة ، بل اشتهي ان ابشر بالانجيل في اقطار الدنيا كلها ، حتى في الجزائر النائية منها . اتشوق ان اكون من طغمة المرسلين ليس مدة سنين معدودة ،

بل منذ دائماً ، منذ خلق الدنيا الى منتهى الاجيال .

« آه ! يا حبيب قلبي ، اني اشتهي فوق كل شيء ان اكون شهيدة . آه ! ما اشهى الاستشهاد على فؤادي . لقد طالما كان شهوة حياتي منذ حداثتي ؛ وترايد شغفي به وانا في مخدعي الصغير الكرملي . وجنوني في هذا انني لا ارغب في نوع واحد من العذابات ، بل اشتهيها كلها لأُشبع نفسي بها .

« يا عروس نفسي المعبود ، انني على مثالك اشتهي ان اجلد وان اصلب . اشتهي ان القى في الزيت المحمي على مثال يوحنا الحبيب ، وان أطحن بأسنان الوحوش كما طُحِن القديس اغناطيوس الانطاكي لأكون خبزاً لائقاً بالله . اشتهي ان اقدِّم عنقي لسيف الجلاد نظير القديستين اغنيس وسيسيليا . اشتهي ان أُحرق بنار متقدة كما احرقت جان دارك بينما شفتاي ترددان اسم يسوع !

« يا يسوع فؤادي افتح كتاب الحياة الدائمة : فان كل ما ترى فيه من اعمال القديسين ، اشتهي لو كنت انا عملتها كلها في سبيل حبك » [١] .

فعندما يملأ حب يسوع قلباً كما كان قلب تريزيا ، هل يبقى فيه محل يتسع لحب آخر من الخلائق كلها مهما عظمت وحَسُنت . ولكي نصل الى مثل هذا الحب المتأجج ، علينا بالصلاة ،

---

(١) في كتاب حياتها : صفحة ٢٥٣ – ٢٥٧

وعلى الاخص بالصلاة العقلية ، وبالمناولات الخشوعية ، وبالعبادة البنوية لأم الطهارة والمحبة سيدتنا والدة الاله الدائمة النقاوة والبرارة .

***

ثاوطوكيون لوالدة الاله

ان جبرائيل قد اندهل من بهاء بتوليتكِ وفائق لمعان طهارتكِ . فهتف نحوكِ قائلًا : يا والدة الاله ، ايما مديح واجب اقدّم لك او بماذا اسميك ! انني اندهل واتحير ! ولكن كما أُمرتُ اهتف اليكِ : افرحي يا ممتلئة نعمة .

حوادث تاريخية

الشابة بوتامينا

كانت بوتامينا شابة رائعة الجمال وكانت من بنات الاسكندرية المسيحيات في الاجيال الاولى للنصرانية . وكانت ذات تقوى رائعة وحرص شديد على طهارتها .

الا انها كانت مملوكة لرجل وثني ، فكانت تخدمه باخلاص وامانة ، وكان هذا معجباً بحسن سلوكها . وما لبث ان شغف بها فاخذ يعمل على اغوائها بكل اساليب الوعد . فلم ينل منها مأرباً ، بل بقيت معتصمة بمحافظتها على نقاوة قلبها وطهارة جسدها .

فلما اعيته الحيل شكاها الى والي المدينة بكونها مسيحية . فتهددها هذا بان يطرحها في برميل من الزفت المحمي ان هي أصرَّت على عنادها . فلم تهب ولم تجزع بل قبلت بنفس هادئة مطمئنة تلك الميتة الفظيعة دفاعاً عن ايمانها وطهارتها .

وتولّى جلاد يدعى باسيليدوس تلك المهمة الجائرة . فتوسلت اليه لكي لا يعريها من ثيابها ، بل يطرحها كما هي حرصاً منها على حشمتها . فسمع هذا الجلاد لها وبالغ في احترامها . فالتفتت اليه وقالت له وهي تحترق وتتألم : اني اعدك بان اصلي الى الله لكي يهبك خلاص نفسك . وماتت وطارت نفسها النقية الى الاخدار العلوية .

ولم تمض ايام قلائل على استشهادها حتى آمن باسيليدوس بالمسيح ، واعترف جهاراً به ، ومات شهيداً في سبيله .

مدام دي لافاليير

لما تابت مدام دي لافاليير محظية الملك لويس الرابع عشر دخلت دير الكرمليات وترهبت ، وقامت تكفر بالصلاة وانواع الاماتات عن ماضي حياتها وذنوبها . وانطرحت امام رئيستها وقالت لها : يا امي ، اني اسأت استعمال ارادتي وحريتي . فها انا اضعها بين يديكِ لكي لا ارجع فاستردهما ابداً اليَّ .

وقضت خمساً وثلاثين سنة في الكرمل ، وكانت مثال التقوى والطاعة والامانة .

انوفريوس الناسك

كان انوفريوس من النساك المتوحدين ، وكان قد ذاع صيته في الاسكندرية وسائر بلاد مصر البحرية حتى كان الناس يتحدثون باعجاب عن اماتاته وطهارته وقداسته .

فاعترضت يوماً احدى النساء المشتهرات على هذا الثناء وقالت انا كفيلة بان اغويه واسقطه . لان مثل هؤلاء النساك لا يحفظون طهارتهم الا ببعدهم من النساء . الا انهم يسقطون امام اول امرأة تغريهم . وسوف آتيكم بالخبر اليقين .

واختارت يوماً بارداً ماطراً ، وحملت معها كل زينتها ، واخفتها في حقيبة لها ، وتردَّت ثياب النساء المتعبدات ، وقصدت الى صومعة الناسك في البرية عند المساء .

فوقفت عند بابه تحت المطر المنهمر واخذت تبكي وتتوسل اليه لكي يقبلها عنده في تلك الليلة ، ويقيها البرد والامطار ، ويحميها من الوحوش التي لا بد ان تفترسها في تلك البرية . فرثى الناسك لحالها ورقّ لها ، وقام فترك لها منسكه ، وذهب هو فقضى الليل في مغارة باردة بعيداً عنها .

فلما كان الصباح اتى ليراها فاذا به امام امرأة بارعة الجمال ، وعليها من الحلي والزينة ما يبهر الابصار . واندفعت تتملقه وتغويه . فنظر اليها باندهال . ولكنه ما لبث ان فرّ من امامها ، وهرع الى نار كانت قد اوقدتها هناك وطرح رجله فيها حتى احترقت وصار الدهن يسيل منها .

فارتاعت المرأة ، وندمت على ما أتته من الخبث والدهاء ، واخذت تتوسل اليه لكي يصفح عنها . فطرحت زينتها ووعدته بان تتوب الى الله توبة صادقة ، ورجته ان يرسلها الى احد الاديار لتقضي حياتها في التكفير عن آثامها .

وهكذا كان . فان تلك المرأة الساقطة تابت وصارت واحدة من الكثيرات من المجدليات القديسات .

الفصل الحادي عشر

في فضيلة التواضع

١ بيانها . — ان فضيلة التواضع هي عدل وهي قناعة . فهي عدل لانها تحمل الانسان على ان يقدر نفسه على قدر نفسه . وهي قناعة لانها تكبح جماح الميول البشرية الى حب الترفع والعظمة والزهو والخيلاء .

فالتواضع المسيحي هو فضيلة سماوية فائقة الطبيعة تجعلنا نعرف ذاتنا ونقدر نفسنا على قدر نفسنا . ولاجل هذه المعرفة الحقة وهذا التقدير الصادق نرغب في عدم الترفع والظهور ، بل في طلب الاذلال والتحقير .

ان التواضع هو فضيلة سماوية ، لذلك لم تعرفها الديانات الوثنية ، لانها لم تفهمها ؛ بل كانت تؤلّه الكبرياء ظنّاً منها بانه يعلي المرء فوق مستواه ، فيسبغ عليه شيئاً من العظمة يرفعه فوق ما هو عليه من صغر وحقارة . اما التواضع المسيحي فهو مؤسس على معرفة المرء قدر نفسه وقدر إلٰهه ، فيتصاغر امامه ؛ ويعترف بفضل الله تعالى عليه ، وبذلّه نظراً لإساءاته وذنوبه ، وبافتقاره الدائم الى نعمته تعالى ومعونته في كل اعمال حياته . وبذلك

العظمة الحقة لانها قائمة على الحق : « من وضع نفسه ارتفع »[١] .

فالتواضع هو فضيلة مسيحية حقة لان المبدأ الذي تقوم عليه هو اولاً طبيعة الله وعظمته وقدرته واحسانه وتسامحه ؛ وثانياً طبيعة الانسان الخليقة الصغيرة الحقيرة الآثمة المفتقرة الى رحمة الله ومعونته ومسامحته . ولقد عرف اليهود هذه الفضيلة وقدسوها ، بل قد تفرد بعضهم بها فَسَما الى درجة فائقة من القداسة ومن العظمة ، نظير موسى النبي ويوحنا المعمدان ويوسف البتول ، وعلى الأخص العذراء مريم الفائقة القداسة ، وهي القائلة : « ها انا امة للرب »[٢] ، وايضاً « لانه نظر الى حقارة امته »[٣] .

ولقد تتجلى هذه الفضيلة بكل بهائها وجمالها ، لانها بهية جميلة ، بل من ابهى الفضائل واعذبها على عين كل من رآها ؛ تتجلى في حياة السيد المسيح رب الفضائل كلها ومكملها ومتممها . فهي ليست ذلاً بل شرف ، لانه لا اشرف من الحق ؛ وما إذلالنا لنفسنا الا لنقرّ بحقارتنا وآثامنا ، ونطلب من الله المعونة والغفران في اعمالنا وفي كل اطوار حياتنا . ولقد عرّف القديس برنردوس فضيلة التواضع بقوله : التواضع فضيلة اذا ما عرف بها الانسان حقاً مقدار نفسه احتقر نفسه . لاننا من نفسنا لا صلاح لنا ، انما صلاحنا من الله . اما اساءاتنا فهي منا ولنا .

---

(١) لوقا ١٤ : ١١ (٢) لوقا ١ : ٣٨ (٣) لوقا ١ : ٤٨

فكيف يحق لمن كان مذنباً او مجرماً ان يتعاظم ويتسامى ، سواء كان امام الناس ، او امام نفسه ، وعلى الاخص امام الله ؟ بل عليه ان يحتقر نفسه ويذلها امام الرب ويقرّ أن « لملك الدهور ، الله الواحد الذي لا يموت ولا يرى ، الكرامة والمجد الى دهر الدهور » [1] . وان يهتف ايضاً مع الملائكة ويقول : « آمين . البركة والمجد والحكمة والشكر والكرامة والقوة والقدرة لإلهنا الى دهر الدهور . آمين » [2] .

والمعلمون الروحيون يسمّون التواضع ، الحق . لانه يعطي الله مقامه السامي الاعلى ، ويجعل الانسان في مكانه الحقيقي الحقير الادنى . وهذا ما دعا الرب يسوع الى ممارسة اسمى درجات التواضع لانه كان يمثل البشرية الضعيفة الحقيرة ويحمل اوزارها كلها .

هكذا تذلل موسى امام الرب لما عبد بنو اسرائيل عجل الذهب ، وقال : « والآن ان غفرت خطيئتهم والّا فامحُني من كتابك الذي كتبته » [3] .

هكذا تذلل داود امام الرب لما اتاه النبي ناتان يقول له ما اوحاه اليه الرب ، ان : « انا اكون له اباً وهو يكون لي ابناً . واذا أثم أؤدّبه بقضيب الناس وبضربات بني البشر . واما رحمتي

(١) ١ تيموثاوس ١ : ١٧ (٢) رؤيا ٧ : ١٢ (٣) خروج ٣٢ : ٣٢

فلا تنزع عنه... بل يكون بيتك وملكك ثابتين الى الدهر امام وجهك، وعرشك يكون راسخاً الى الابد... فدخل الملك داود وجلس امام الرب وقال: «من انا ايها الرب الاله وما بيتي حتى بلغت بي الى ههنا» (١).

وهكذا تذللت استير وكانت ملكة عظيمة الشأن: «وان استير الملكة ايضاً التجأت الى الرب خوفاً من الخطر المشرف، فخلعت ثياب الملك ولبست ثياباً للحزن والبكاء. وعوض الاطياب المختلفة ألقت على رأسها رماداً وزبلاً وذللت جسدها بالصوم. وجميع المواضع التي كانت تفرح فيها من قبلُ ملأتها من نتاف شعر رأسها. وكانت تتضرع الى الرب اله اسرائيل قائلة: «ايها الرب الذي هو وحده ملكنا أعِنّي انا المنقطعة التي ليس لها معين سواك...» (٢)

هكذا تذلل الانبياء والشهداء وجميع القديسين: «اجابهم يوحنا وقال: انا اعمد بالماء، ولكن بينكم من لستم تعرفونه. هو الذي يأتي بعدي وقد جعل قبلي الذي انا لا استحق ان أحلَّ سير حذائه» (٣).

لما دنت الساعة السعيدة الاخيرة لرحيل تريزيا الطفل يسوع

---

(١) سفر الملوك الثاني ٨ : ١٦ – ١٨ (٢) استير ١٤ : ١ – ٣

(٣) يوحنا ١ : ٢٦ و ٢٧

الى الاحضان الابوية السماوية نظرت الى امها الرئيسة الواقفة امام سريرها وقالت لها : « يا امي ارجوك ان تهيئيني لاموت موتاً صالحاً » . فاجابتها رئيستها : « يا بنيتي لا تخشي فانت على اتم الاستعداد للمثول امام عرش الله ، لانك طول حياتك قد عرفتِ ما معنى التواضع » . فاجابت تريزيا بسذاجة وقالت : « نعم انا اشعر بانني لم ارغب في حياتي ألا فيما هو حق . نعم لقد عرفت ما معني تواضع القلب » (١) .

فالانسان ضعيف في جسده ، ضعيف في عقله وارادته ، ضعيف في نفسه وروحياته . يولد في الخطيئة الاصلية ، ويعيش في الخطيئة الفعلية ، ويشعر على الدوام بميول منحرفة تدفعه الى الشر والى الشهوات الرديئة . لذلك يجدر به ان لا يترفع ولا يتباهى ولا يزهو بنفسه ، ولا يتعاظم لا امام الله ، ولا امام غيره ، ولا امام نفسه ؛ وخليق به ان يصبر على الآلام والمعاكسات والإذلال وانواع الاضطهاد كعقاب يستحقه ؛ وان لا يحتقر غيره ، بل يعذره ويصفح عنه ، كما يريد ان يصفح الرب عنه هو ذاته وينسى ذنوبه .

وفي هذا يقول الكاتب الروحي السيد اوليه : « علينا في حال المرض والاضطهاد والتحقير والهوان ، ان نتحالف مع الله ضد

(١) في كتاب حياتها فصل ١٢ ص ٦ : ٣

ذواتنا ، وان نقول : اننا نستحق ذلك بل اكثر منه ايضاً ؛ وانه يحق لله ان يستخدم كل خليقة لكي يعاقبنا بواسطتها ؛ واننا نسجد لمراحمه بكل رضى عالمين انه في يوم غضبه سيكون اشد من الآن في معاملته لنا »[١] .

هذه هي المبادىء الاساسية التي عليها تنشأ فضيلة التواضع المسيحية : حقارة الانسان وخطيئته ، وعظمة الله وحنانه ورحمته . « من الذي يميزك يا هذا واي شيء لك لم تنله . فان كنت قد نلته فلماذا تفتخر كانك لم تنله »[٢] .

٢ درجات فضيلة التواضع . — لقد افاض الكتبة الروحيون في الكلام عن فضيلة التواضع واجادوا في وصفها وشرحها واظهار جمالها ومنافعها ، وبينوا باسهاب طرقها ودرجاتها . ولما كانت هذه الفضيلة الجميلة اساساً وحصناً لكثير من الفضائل اخواتها ، نظير الصبر والطاعة والرحمة والوداعة ، فانهم بحثوا كثيراً في ميزاتها ، وذهب كلٌ مذهباً في تعداد وتمييز درجاتها ، على حسب ما ابتغاه او ما رآه من غرضه ومن طريقته فيها . فكاسيانس جعل درجات التواضع عشرة . والقديس بندكتوس ، ابو الرهبان الغربيين ، قسمها الى اثنتي عشرة ، لانه اتخذ التواضع اساساً لما بين الله والراهب من العلاقات الروحية . فالراهب هو انسان ، وانسان

(١) التعليم المسيحي – الجزء الاول – القراءة ١٨ (٢) ١ كور ٤ : ٧

خاطئ؛ ثم يصير بالتبني ابناً للعلي. لذلك جمع القديس بند كتوس بين التواضع والطاعة والصبر والحشمة، وجعلها كلها تحت اسم واحد وسماها: التواضع.

اما القديس اغناطيوس دي لويولا فيقول ان للتواضع درجات ثلاثاً: الاولى: اذلال النفس. — الثانية: التجرد عن كل رغبة ارضية الى حد ان يصبح سيان عند الانسان ان يكون غنياً او فقيراً، مكرماً او محتقراً؛ سيان عنده الحياة الطويلة او القصيرة. لان رغبته الوحيدة هي تمجيد الله الى اقصى حد ممكن في ما اعطي من حياة. — الثالثة وهي الاكمل: ان يعتنق المرء الفقر باختياره حباً ليسوع الفقير؛ وان يحب الهوان والعار حباً ليسوع المذلَّل المهان؛ وان يرغب في احتقار الناس له، ونبذهم اياه، واستصغارهم لشأنه، واعتبارهم انه احمق معتوه شارد العقل تشبهاً بيسوع الذي احتقره اليهود وازدروه وهزئوا به والبسوه ثوب الحمقى المعتوهين. وهذا منتهى التواضع ومنتهى الحب وركن القداسة.

اما السيد اوليبه في كلامه عن درجات التواضع فيجعلها ايضاً ثلاثاً، ولكنه يخصها بالنفوس التقية الحارة فيقول:

الاولى: ان يعرف الانسان حقارته ونقائصه وذنوبه ودناءته، ويرضى بها، ويتذلل امام الله بسببها، ويفرح لكونها تظهر بجلاء

عظمة الله وقداسته وجوده ورحمته . لانه لا يكفي الانسان ان يعرف مساوئه ليكون بذلك متواضعاً ، بل يجب ان يرضى بها ، وان يحقر نفسه امام الله لاجلها . لان من الناس من يدفعهم حب الظهور والزهو الى التبجح بذنوبهم ليكون لهم السبق فيها على غيرهم ؛ وهذا هو نوع من الكبرياء الجنوني الاحمق . ومنهم من يعرفها ولكن يعمل على سترها والتظاهر بما يناقضها رغبة في المجد العالمي والثناء الكاذب .

والدرجة الثانية : ان يرغب الانسان في ان يعرف الناس حقارته وقلة شأنه . فيكون قد نال ما تستحقه ذنوبه من اطراح الناس له واستخفافهم بامره . لان منهم من لا يكتفون بالتظاهر بما ليس فيهم من حسنات وفضائل ومؤهلات ، بل يحزنون ويضطربون ويغضبون اذ تنكشف امام الناس بعض عيوبهم ونقائصهم . اما النفوس التقية المتواضعة فانها تهرب من اكرام الناس لها ، ولا تحزن لاحتقارهم لها ، ولا تغضب لأطراحهم لشأنها .

اما الدرجة الثالثة : فتقوم بان لا يرغب الانسان فقط في ان يعرف الناس حقارته ودناءته ، بل يريد ايضاً ان يعاملوه كما يستحق بإذلالهم له ، وباحتقارهم لعقله ولفضيلته ولأهليته . لان العدم لا يستحق الاكرام ، ولا بد للمجرم من العقاب . وبهذا الشعور نقبل من يد الله ما يسمح به من معاكسات واضطهادات

وآلام ومضايقات ، قصاصاً لما تستحقه ذنوبنا وآثامنا . فيرضى الله عنا ، ويغفرها لنا ، وتنتصر فضيلة التواضع في قلوبنا فتجملنا وتكملنا وترفعنا وتقدسنا : « من رفع نفسه اتضع ومن وضع نفسه ارتفع »[1] . — « تواضعوا امام الرب فيرفعكم »[2] .

٣ جمال التواضع وفوائده . — اذا نظرنا الى التواضع في ذاته نراه اقل شاناً من الفضائل الالهية التي انما غايتها المباشرة هو الله . والتواضع اقل شأناً ايضاً في كنهه وطبيعته من الكثير من الفضائل الادبية ، نظير الفطنة والعبادة والعدل والطاعة ، لان عملها أعمّ وأجلّ من عمله .

واما اذا نظرنا الى ما يقدمه للفضائل كلها من الخدم الجليلة نراه مفتاح الكنوز السماوية ، واساس جميع الفضائل المسيحية .

فان الله يحب الانسان المتواضع ، لانه لا يسلبه مجده تعالى ، ويعطف عليه ، ويفيض عليه نعمه وغزير مواهبه . وهو تعالى يعلم ان الانسان المتواضع لا يزهو بما يجود به عليه من مكارمه كأنها منه ، ولا يتعالى بها ويعجب بوجودها كان مرجعها اليه . لذلك يسبغ عليه من هباته ما يجعله ينوء تحت حملها ويطلب الاكتفاء بما ناله منها . هذا ما يعلمه بطرس الرسول في رسالته الاولى : « وكذلك انتم ايها الشبان اخضعوا للكهنة ، وتسربلوا

(١) لوقا ١٨ : ١٤ (٢) يعقوب ٤ : ١٠

بالتواضع بعضكم نحو بعض ؛ فان الله يقاوم المتكبرين ويؤتي المتواضعين نعمة »[١] . ويقول الآباء القديسون: ان التواضع هو جلّاب النعم .

وفوق هذا فان التواضع هو أساس الفضائل جميعها ، لانها منه تنال غذاءها وقوّتها . ان الفضيلة التي لا يدعمها التواضع تكون كالبيت المبني على الرمل لا يلبث ، ان يسقط . اما المؤسسة على التواضع فهي قوية ثابتة لا تهاب الزوابع ، ولا تخشى الصدمات .

فكما ان الكبرياء هي المانع الاكبر عن قبول الايمان، كذلك التواضع هو الوسيلة الفضلى لإخضاع عقلنا وقلبنا لأنوار الايمان وحرارته ، فيثبت فينا ويكيّف حياتنا : « اعترف لك يا أبتِ رب السماوات والارض لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والعقلاء وكشفتها للاطفال »[٢] . فالانسان المتواضع يقبل حقائق الايمان بسذاجة قلب وصفاء نية ، بلا تردد ولا اعتراض . واذا ما تأصّل فيه الايمان فيقويه ويزيده تواضعاً وفضيلة .

التواضع هو ايضاً اساس الرجاء . لان المتكبر يتكل على نفسه فيسقط . اما المتواضع فانه يتكل على الله ويرجو من جوده وعطفه ، نعمَه في الحياة وفي الممات ، وملكوتَه في الابدية

(١) ١ بطرس ٥ : ٥ (٢) متى ١١ : ٢٥

السعيدة التي ليس لها فناء .

التواضع هو اساس المحبة . ان المحبة تتنافى مع الكبرياء ؛ لان المتكبر لا يمكن ان يحب ؛ وهو خالٍ من العاطفة ، ما خلا محبة ذاته وانانيته . واذا ما تظاهر بمحبة قريبه فليس الا طمعاً بمال يرجوه منه او جاه يصل اليه بواسطته . اما الانسان المتواضع فمحبته صادقة لانها مجردة .

وهكذا قل عن سائر الفضائل :

فان الانسان المتواضع لا يأنف من استشارة غيره في اعماله، بل يستأنس برأي قريبه ، وبذلك يكون فطناً حكيماً .

الانسان المتواضع يحترم قريبه ويوقره، ويعلي شأنه، ويقدس حقوقه ؛ فهو خير من قام بواجبات فضيلة العدل .

الانسان المتواضع قوي بما يسبغ الله عليه من قوة ، لانه لا يتكل على نفسه بل على الله . والرب لا يخيّب المتكلين عليه . لذلك كان المتواضع الشجاع الحقيقي .

الانسان المتواضع يبقى عفيفاً ، لان الدنس غالباً ما يكون عقاب الكبرياء .

الانسان المتواضع يكون صبوراً ، فهو حليم مع قريبه ، شفوق عليه ، يعذر هفواته ويحتمل نقائصه ؛ وهو يصبر على ما يحلُّ به من الشدائد لانه يعتبرها عقاباً لخطاياه . فهو

متقشف صبور .

فالتواضع هو حقاً اساس الفضائل كلها ينشطها ويغذّيها ويقويها . وما اجمل ما كتب في ذلك القديس اغسطينوس فيلسوف النصرانية الاكبر في تعليقه على كلام الرب: «من وضع نفسه ارتفع» ، قال : «اتريد ان ترتفع ؟ ابدأ فاتضع . اتطلب ان تشيّد قصراً يناطح السحاب ؟ فأسِّسْهُ على التواضع . وبقدر ما تريده عالياً شامخاً يجب ان تجعل أسسه غائرة في الارض عميقة» . فالمتواضع مَلِكٌ . وللتواضع ملك الدنيا . فهو يلين القلوب ويسحرها ويربحها للرب .

٤ التواضع في الاعمل . – ان المبتدئين في الحياة الروحية يمارسون التواضع بمقاومة ما يثور فيهم من الميل الى الكبرياء . فانهم يعيدون المجد لله فيما يجدون فيهم من حسنات ومؤهلات ومزايا روحية وادبية وجسدية، فلا يزهون بصفاتهم ولا يستعلون بآرائهم وافكارهم : «لا لنا يا رب ، لا لنا ، لكن لاسمك أعطِ المجد»(١) . ويعترفون بأخطائهم ونقائصهم وذنوبهم : «لاني عارف بآثامي وخطاياي امامي في كل حين»(٢) . ولا يلجأون الى اطراء صفاتهم وفضائلهم ؛ ولا يصنعون برّهم بفخفخة امام الناس دعاية لهم ولاسمهم ليأخذوا منهم مجدهم ؛ ولا يترفعون على غيرهم ؛

(١) مزمور ١٠٦ : ١ (٢) مزمور ٥٠ : ٥

ولا ينتقدون رؤساءهم ؛ ولا يعصون اوامر مدبريهم ومرشديهم . بل يعترفون بان الله هو مصدر كل خير فيهم ، وان الشر هو منهم ومن ضعفهم ومن قلة فضيلتهم . ويحترمون قريبهم ؛ ويعظِّمون افضاله ، ويكرمون فضائله ؛ ويقرّون له بالسبق الى المكارم ؛ ويصنعون برَّهم بالتستّر لوجه الله وطلباً لمرضاته ؛ ويوقّرون رؤساءهم ، ويقدسون اوامرهم وارشاداتهم ؛ ويقبلون بشكرٍ ما يفتقدهم به الرب من رزايا ومحن ، لانهم واثقون من انها عقاب لهم على ذنوبهم . وهكذا تكون حياتهم حياة مسيحية متواضعة .

اما المتقدمون في الكمال المسيحي فانهم يذهبون الى اكثر من ذلك . فيتخذون السيد المسيح مثالاً لهم في ممارسة افعال التواضع ، كما يتخذونه دائماً مثلًا اعلى لهم في سائر الفضائل المسيحية الالهية والادبية معاً .

لقد دعا الرب يسوع جميع الاجيال للتشبه بوداعته وتواضعه: « تعلموا مني أني وديع ومتواضع القلب » . ولقد كانت فضيلة التواضع حقاً ميزة حياته ، وشعاره الاكبر في كل اعماله :

فانه بتجسده حجب عن الناس انوار لاهوته وضياء مجده : « ليكن فيكم من الافكار والاخلاق ما هو في المسيح يسوع الذي اذ هو في صورة الله لم يكن يعتدُّ مساواته لله اختلاساً ؛

لكنه اخلى ذاته آخذاً صورة عبد صائراً في شبه البشر وموجوداً كبشر في الهيئة . فوضع نفسه وصار يطيع حتى الموت موت الصليب . فلذلك رفعه الله ووهبه اسماً يفوق كل اسم لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة مما في السماوات وعلى الارض وتحت الارض »[١] .

وفي حياته الخفية ستر الرب يسوع حتى غناه وقدرته وعلمه وسائر مؤهلاته ليس فقط كإله بل ايضاً كانسان : ولد في مغارة ، واضجع في مذود ، وختن كسائر الاولاد ؛ وهرب الى مصر من وجه انسان ؛ وعاش في الناصرة نسياً منسياً من الناس ؛ وخضع لأمه وليوسف ، وهو الذي كان قد كوّنهما ، وابدعهما ، وزيّنهما بكل ما كان فيهما من جمال وكمال ؛ وعُرف بين الناس نجاراً بسيطاً وابن نجار .

وفي حياته العلنية كان ايضاً مثالاً مكملاً للتواضع حتى انه استطاع ان يدعو الناس ، حتى اعداءه ، ليتشبهوا به . لقد اعلن مراراً انه ابن الله ، وانه مساوٍ للآب ؛ ومع ذلك عاش مع الناس اقلّ من الناس . عمل عجائب باهرة حيّرت العقول واشعلت بنار حبه القلوب ؛ ولكنه كان يتوارى امام الامجاد ، ويهرب من الحفاوات . واختار رسله من عامة الناس ؛ وكان يؤثر مخالطة

(١) فيلبي ٢ : ٥ – ١٠

المساكين والضعفاء والفقراء والخطأة والصغار فيبشرهم بالانجيل ، ويشفي مرضاهم ، ويغفر ذنوبهم ، ويلاطف اولادهم ، ويشبع في البراري جوعهم . وكان تعليمه بسيطاً يفهمه الكبير والصغير وابن القرية وابنة الشعب . ولما اختطفوه وارادوا ان يجعلوه ملكاً افلت من بين ايديهم وتوارى عنهم .

ولقد كان متواضعاً ليس في افعاله فحسب ، بل ايضاً في افكاره وفي عواطفه وفي صميم قلبه . فلم يكن يحكم على احد بل يترك الحكم للآب [1] . ولم يكن يتكلم من عنده ، بل ما كان يسمعه من الآب به يتكلم [2] . ولم يكن تعليمه له بل للآب الذي ارسله [3] . ولم يكن يفتخر باعماله الجيدة بل ينسبها كلها الى ابيه السماوي [4] . ولم يكن يطلب مجده بل مجد الآب الذي ارسله [5] . ولم يكن يسعى ليتسلط ويخدمه الناس ، بل انما جاء ليخدم ويبذل نفسه عن البشرية جمعاء [6] . وفي العشاء السري قام ولبس ثياب الخدم واخذ يغسل ارجل تلاميذه وينشفها بيديه .

الا انه تجاوز كل حدود التواضع في آلامه . فلقد حمل ذنوبنا برضاه وقام يكفر عنها بالآلام والخزي والعار ، وهو رب المجد . وبهذا منتهى التواضع . خانه يهوذا فلم يوبخه بل عاتبه

(١) يوحنا ٨ : ١٥ (٢) يوحنا ١٤ : ١٠ (٣) يوحنا ٧ : ١٦
(٤) يوحنا ٥ : ٣٠ (٥) يوحنا ٨ : ٥٠ — ١٧ : ٤ (٦) متى ٢٠ : ٢٨

بلطف : يا صاح ألهذا جئت ؟ – أهانه الخدم وضربوه ولطموه وهزئوا به. وقالوا عنه انه معتوه احمق ؛ فصمت ولم يتذمر ولم يتململ ولم يردّ على قباحاتهم جواباً. – انكر الشعب ورؤساؤه حسناته وفضائله وعجائبه وحنانه وقدرته وحسن نواياه ، وحكم عليه بيلاطس بالموت مسايرة للحسد وخوفاً من اللوم ، وصلبوه بين اللصوص كأكبر الجناة ، وهو هو الذي اقام لعازر ووحيد ارملة نائين من الاموات؛ ومات على الخشبة عرياناً مخذولاً منكسراً امام اعدائه ، مهملاً من اصدقائه ومن تلاميذه ، حتى صدق فيه قول النبي داود جده : « انا دودة ، لا انسان ، عار عند البشر ورذالة في الشعب »[1]. ورغم ذلك كله لبث خاضعاً صابراً متواضعاً ، طالباً الغفران لمن صلبوه : « يا ابتِ اغفر لهم »[2]. وفي هذا قال بطرس الرسول : « لان المسيح ايضاً تألم لاجلنا وابقى لكم قدوة لتقتفوا آثاره. الذي لم يصنع خطيئة ولم يوجد في فمه مكر. وكان يشتم ولا يرد الشتم. وكان يتألم ولا يهدد »[3].

فالمسيح من يوم ان تجسد لاجلنا ، وحمل خطايانا ، رضي بهذه الآلام ، وتواضع هذا التواضع العميق ، لان الخطيئة التي حملها كانت تقضي بذلك. فهل يحق لبشر بعد هذا ان يتذمر او يتكبر.

(١) مزمور ٢١ : ٧ (٢) لوقا ٢٣ : ٣٤ (٣) ١ بطرس ٢ : ٢١ – ٢٣

وماذا نقول في حيـاة الرب يسوع في القربان . ما هذا التلاشي ، وما هذا التحجب وراء اعراض حقيرة مادية . اليس هو صانع الارض والسماء ، ومزين الدنيا بالبهاء . اليس هو مفيض كل صلاح وكل فضيلة وجمال . فما باله يخفي عن الدنيا مجده وقدرته ورحمته . وفوق هذا فانه لا يكتفي بحجب لاهوته وضياء مجده ، بل يصبر ايضاً على نسيان اصدقائه وبنيه له ، وعلى نكران المسيحيين لجميله ؛ وعلى اهانتهم له في سر محبته . ومع ذلك فهو يهتف دائماً نحونا من اعماق خلوته : « تعالوا الي ، يا جميع المتعبين والمثقلين وانا اريحكم . احملوا نيري عليكم وتعلموا مني أني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لأنفسكم »[1] .

فهل من مثال اعظم من هذا المثال ليحملنا على التواضع ؟ الكبرياء بدأت فاهلكت الدنيا ودهورت البشرية الى اسفل دركات السقوط والانحطاط . فجاء الرب وخلص العالم بتواضعهِ وآلامهِ ، واوصانا ان نقتفي أثره في أمر نجاحنا وخلاصنا .

ولكن كيف نمارس نحن التواضع على مثال الرب ؟ — ان الحياة لهي ملأى بالمناسبات المختلفة التي يمكننا ان نمارس التواضع فيها ، سواء كان امام الله ، او امام قريبنا ، او امام انفسنا .

نتواضع امام الله اولاً بممارستنا روح العبادة نحوه تعالى .

(١) متى ١١ : ٢٨ و ٢٩

فنعترف امامه بشكر وارتياح ورضى اننا عدم، واننا خطأة. ونغتبط لكونه هو الكائن، وهو القدوس، وهو الخالق، وهو الغفور؛ ونعبده، ونسبحه، ونسجد له من اعماق قلوبنا، ونستغفره، ونتصاغر امامه، ونتلذذ بحقارتنا لتظهر عزته وجبروته. وكلما خطئنا من جديد نعود اليه متذللين طالبين مراحمه. لان الاستغفار هو التواضع، والتوسل هو التواضع. وكثيراً ما يسمح الرب بسقوطنا ليزيدنا توسلاً وتواضعاً، كما تقول القديسة تريزيا الكبيرة الافيلية (1).

نتواضع ايضاً امام الله بممارستنا روح الشكر ومعرفة الجميل. لان من شكر تواضع. فالشكر هو الاقرار بجميل المحسن؛ والجميل هو عز ورفعة. ولما كان كل ما فينا من خير قد أتانا من الله فشكرنا له تعالى يجب ان لا يكون له حد. والشكر كما قلنا هو تواضع، وهو يذكرنا بحنان الباري وباحتياجنا الدائم الى نعمه. والشكر حقاً هو مزيج من الحب ومن التواضع ومن الخضوع ومن التوسل ومن الثناء. وما احلى ما قال الشاعر:

لك الحمد حمداً تستلذ به ذكرى ... وان كنت لا احصي ثناء ولا شكرا
لك الحمد حمداً طيباً يملأ السما ... واقطارها والارض والبر والبحرا
لك الحمد مقروناً بشكرك دائماً ... لك الحمد في الاولى لك الحمد في الاخرى

نتواضع امام قريبنا. فنبتهج لرؤيتنا ما افاض الله عليه من

(1) *Histoire de Ste Thérèse, T. II, p. 229.*

محاسن ومواهب ونعم سماوية وخيرات ارضية، ونفرح له ونطلب له المزيد، ونعترف امام الله بانه يستحق الخير اكثر منا؛ ونشكره تعالى على ما اعطاه؛ ولا نحزن لانه اختاره لاعمال مجيدة وتركنا، ودعاه الى المناصب واهملنا. نفرح له طالما يتمجد الله بعمله، ونكرمه ونعلي شأنه: «ليبادر بعضكم بعضاً بالاكرام»[١].

ونتواضع امام قريبنا في افكارنا وفي اعمالنا بان نعذر حتى في باطننا نقائصه، ونغضّ الطرف عن زلاتهِ. الا اذا دعانا واجب الرئاسة او الادارةِ او الارشاد الى تنبيههِ او الى توبيخهِ. وتواضع الفكر معناه ايضاً بان نقرّ في دواخلنا اننا لولا نعمة الله لكنا اشقى الناس حالاً، واكثرهم اثماً، واقلّهم دراية ومروءة وعقلاً وادباً وفضلاً وفضيلة. وهذا ما حمل القديسين على ان يعتبروا ذاتهم اول الخطأة: «ومن اصدق ما يقال والجدير بكل قبول ان المسيح يسوع انما جاء الى العالم ليخلص الخطأة الذين اولهم انا»[٢]. هكذا كتب بولس الرسول الى ابنه تيموثاوس، وهكذا كان يعتقد. وهذا هو اعتقاد رجال الله الاتقياء اجمعين. وهم في ذلك على صواب: اولاً لانهم يعرفون بصدق واخلاص نقائصهم وذنوبهم، وتقصيرهم في حسن استعمال النعم السماوية المعطاة لهم. وثانياً لانهم يعرفون ان لا حق لهم في الحكم على

(١) رومية ١٢ : ١٠ (٢) ١ تيموثاوس ١ : ١٥

قريبهم : « لا تدينوا لئلا تدانوا »[1] . ولانهم يعرفون ايضاً ان ما يرونه ظاهراً من سوء عمل القريب ربما يكون له عذر فيه . فهم يجهلون نياته ، ولا يقدرون ان يَزِنوا مقدار النعم المعطاة له بالنسبة لما أوتوا هم من نعم ومن انوار . ولا يمكنهم تقدير الاوضاع الخصوصية التي وجد فيها ، ولا الوقوف على الظروف والعوامل النفسية والجسدية والداخلية والخارجية التي تعرض لها . ثم انهم يجهلون مقدار فضيلته ، وكمية حسناته ، ودرجة استحقاقاته امام العلي . أما كانت المجدلية انقى واشرف من سمعان الفريسي ؟ اما كان العشار ابرّ من ذاك الفريسي الشديد المحافظة على ظواهر وصايا الناموس ؟ اما كانت المرأة التي أخذت في زنى اقل اثماً من اولئك المتسترين بلباس الشرف والبرارة ، الذين تألبوا عليها يشكونها؟ اما كان اللص وهو على الخشبة اكثر فضلاً من رؤساء الكهنة الطلقاء ؟ لذلك حق لبولس الرسول ان يقول ما قال ؛ ولقد كان مخلصاً في كلامه . وحق للناس الانقياء المتواضعين ان ينسجوا على منواله . لان التواضع هو العدل والصدق والاخلاص والحق . « من انت حتى تدين عبد غيرك ؛ انه لمولاه يثبت او يسقط »[2] .

نتواضع امام انفسنا . ان الله يريد ان نعرف ما فينا من خير

---

(١) متى ٧ : ١ (٢) رومية ١٤ : ٤

وحسنات ومؤهلات ، وان نعترف لنفسنا بها ، لكي نشكره عليها ، لانه هو مصدرها وواهبها . ولقد قالت القديسة تريزيا الكبيرة الافيلية في هذا المعنى : « ان الواجب يقضي على النفوس التي وصلت الى درجة الاتحاد الكامل مع الله تعالى ان تقدّر هذه النعمة تقديراً سامياً ، وان تذكر دائماً ما وهبها الله من نعم ، وان تحذر ان تنكر هذه المواهب الالهية بداعي التواضع . أليس ان ذكر النعم يزيد في عاطفة المحبة نحو المنعم ؟ وكيف يمكن المرء ان يتكلم عن الخيرات التي يقتنيها ويوزع حوله منها ان كان يجهل وجودها »[1] . ولكن ينبغي ان لا نتناسى ايضاً حقارتنا وضعفنا ونقائصنا ، وما يمتزج في اعمالنا من المآرب الذاتية والمطامع الخصوصية ؛ ينبغي بالاكثر ان لا ننسى ذنوبنا لنتواضع دائماً امام العزة الالهية . هكذا يتواضع القديس بولس رسول الامم الذي مع انه « اختطف الى السماء الثالثة وسمع كلمات سرية لا يحل لإنسان ان ينطق بها »[2] ، الّا انه يقول عن ذاته : «وآخر الكل تراءى (اعني الرب يسوع) لي انا ايضاً كانه للسقط لاني انا اصغر الرسل ولست اهلاً لان اسمى رسولاً لاني اضطهدت كنيسة الله . لكن بنعمة الله صرت على ما انا عليه»[3] .

---

(١) النص نفسه مذكور في كتاب حياة القديسة تريزيا الطفل يسوع ، فصل ١٢

(٢) ٢ كورنثس ١٢ : ٤ (٣) ١ كورنثس ١٥ : ٨ – ١٠

وهكذا نروض انفسنا على دوام التواضع في افكارنا ، وفي عواطفنا ، وايضاً في مظاهرنا الخارجية وفي سائر اعمالنا .

اما تواضع الفكر فاننا نمارسه بحذرنا اولاً من الاتكال على نفسنا ؛ ومن اعتدادنا بقوتنا وفضيلتنا وصلاحنا ؛ ثم باستسلامنا لارشادات الرب وايحاءاته ؛ عالمين ومقرّين بان لا صلاح لنا الّا بنعمته ومعونته ؛ ولا ثبات لفضيلتنا الّا بجوده وفضله . وبذلك لا نعظِّم مؤهلاتنا فوق ما هي عليه ؛ ولا نتباهى بما ليس فينا . وفي هذا يقول بولس الرسول : « واني بالنعمة المعطاة لي اوصي كل من فيكم ان لا يسمو بعقله فوق ما ينبغي بل ان يتعقَّل تعقل الحكمة على مقدار ما قسم الله لكل واحد من الايمان »[١] .

وقال احدهم يوماً للقديسة تريزيا الافيلية ، وكان قد اعجب كثيراً بما تفعله من الاعمال الجيدة : « حذارِ يا امي الرئيسة من ان تستسلمي للزهو والمجد الباطل . فاجابته لفورها : المجد الباطل وكيف يمكنني ان اقبل به . انني بالاحرى اطلب من الرب ان يعينني لكي لا اقطع رجائي من خلاصي انا الخاطئة المسكينة »[٢] .

وتواضع الفكر يقوم ايضاً بان نهرب من الظهور ونتوارى امام اعجاب الناس بنا ؛ وبان نحاذر ان نعمل ما يستجلب الانظار

---

(١) رومية ١٢ : ٣

(2) *Histoire de Ste Thérèse, T. II, p. 369*

طمعاً في الصيت والشهرة وثناء التقدير . بل يكون رائدنا مجرد عمل الخير وتمجيد الله وخدمة نفسنا في روحياتها ، وخدمة قريبنا . والا فاننا لا نكرز بالمسيح ، بل بذواتنا . وكان القديس منصور دي بول يحذِّر كهنة جمعيته من ذلك ويقول لهم : « ماذا يفعل ، يا ترى ، من تعاطى الوعظ ليكرز بنفسه طمعاً في تصفيق الناس له ، وثنائهم عليه ، واعجابهم بصفاته ، وتحدثهم عنه ! انه يقع في خطيئة انتهاك القدسيات . نعم انه ينتهك القدسيات . لان من استخدم كلام الله والاشياء المقدسة الالهية ليحصل منها على شرف وجاه ، ينتهك بلا ريب القدسيات »[1] .

وتواضع الفكر معناه ايضاً اخضاع العقل لارشادات الكنيسة ، ولرأي الكنيسة ، ولوجهة نظر الكنيسة ، عالمين ان الحبر الروماني ودوائره العالية ، وان بطريركنا واساقفتنا لهم انوار سماوية غير انوارنا ، وان الرب يسدد خطواتهم في ارشادهم لنا ، وفي شق الطريق لمسيرنا ، حتى في الامور الثقافية والاجتماعية والوطنية التي تعرض لنا في حياتنا .

وتواضع الفكر يحملنا ايضاً على احترام رأي غيرنا ، وان خالف به رأينا ، وعلى التساهل في حديثنا معه في الامور التي ليست عقيدة دينية لاهوتية مثبتة . لان لكل انسان حرية

(1) Maynard: *Vertus et Doctrine de St. Vincent de Paul*, p. 214.

الرأي والعقيدة في الامور المباحة .

اما تواضعنا في عواطفنا فمعناه اننا نرضى بما قسم الله لنا من رزق ومن مال ومن شرف ومن وظيفة ومن مكانة اجتماعية . ولكن هذا يتنافى مع حقنا في السعي والاجتهاد للحصول على حالة افضل ونجاح اوفر ، اذا كان في ذلك تمجيد الله وخدمته وحسن القيام بواجباتنا . هذا شأن كل التجار والصناع والفنانين والادباء والمخترعين ، ورؤساء ومديري الجمعيات الدينية والادبية والثقافية والاجتماعية . وهذا شأن كل مصلحي الرهبانيات الكاثوليكية ، نظير القديسة تريزيا الافيلية والقديس يوحنا الصليبي وغيرهم . ولكن مع السعي والاجتهاد والفلاح والنجاح يبقى الانسان متواضعاً ، ويلبث في سلام ورضى وطمأنينة وقناعة ، واضعاً امره وعمله بين يدي الرب مدبره ومعينه وموفق اعماله .

التواضع في العواطف معناه ايضاً ان يرغب الانسان في ان يبقى في الدنيا نسياً منسياً ، وان يختار له بين الوظائف المعروضة عليه ما كان حقيراً ؛ وان يسدل ستراً على كل ما من شأنه ان يجلب له حب الناس وثناءهم وتقديرهم واعجابهم ؛ بل كل رغبته في ان لا احد يأتي بذكره .

ويقول صاحب الكتاب الرائع البديع « الحرب الروحية » :

« انه يجب علينا ان نتذلل في افكارنا وعواطفنا امام الله ، وامام قريبنا ، وامام انفسنا ، لانه لا شيء فينا مما هو لنا يستحق الاعتبار والتمجيد . وان ما فينا من خير يتلاشى امام عظم ما فينا من شر . وكم نستسلم حتى في عمل الخير والصلاح لأفكار الزهو والطمع ، او لعواطف اغتباط المرء المعجب بنفسه ، المرتاح الى نجاحه في عمله ، ناسين ان الفضل الحقيقي يعود الى الله والى معونة نعمته . كيف نتباهى وقد صَمَمنا مراراً آذاننا عن اجابة ما يدعونا الله اليه من عمل الخير ! وكم تظهر حقارتنا اذ نقيس انفسنا بمقياس الرسل والشهداء وآباء الكنيسة ومعلميها ومؤسسي رهبانياتها ؛ اذ نقيس انفسنا بمقياس القديسين العظام اثناسيوس وباسيليوس والذهبي الفم واغسطينوس وايرونموس واغناطيوس دي لويولا وتريزيا الافيلية وسواهم ؛ اذ نقيس انفسنا بمقياس يسوع المسيح ، بمقياس العزة الالهية » (١) .

ولقد كتب في هذا المعنى القديس منصور دي بول الى كهنة جمعيته يرشدهم ، قال : « يجب علينا الا نلقي بنظرنا الى ما نعمله من الخير في سبيل قريبنا ، بل بالاحرى ان نطيل النظر الى المساوئ التي تصدر عنا ، لان ذلك مما يحفظ فضيلة التواضع في قلوبنا . ان موهبة اعادة النفوس الى التوبة وغير ذلك من المزايا

(1) *Le Combat Spirituel*, ch. XXXII.

والمؤهلات الخارجية لم يهبها الله لنا لاجلنا بل لاجل قريبنا . فنحن وكلاء عليها وحمّالون لها . بل يمكن مع وجودها فينا ان نهلك نفوسنا . لذلك وجب على من يستخدمه الله ليعمل بواسطته اعمالاً عظيمة ان لا يتباهى بذلك ولا يزهو به ولا يتلذذ به كانه منه وله . بل عليه ان يتواضع امام العلي ويعترف بانه انما هو آلة حقيرة يستعملها الرب في تدبيره الالهي »[1] .

اما تواضعنا في مظاهرنا الخارجية فانه يكون مرآة التواضع الداخلي الذي يكون فينا . وهذا التواضع الخارجي يساعد بدوره عواطف التواضع الداخلي وينشطه . وهكذا يكون التواضع عمل الروح وعمل الجسد معاً .

فالتواضع الخارجي يكون اولاً في وضاعة اللباس وحشمته ؛ وفي بساطة المسكن وقلته . فان التأنق في الثياب وفي الأثاث ، وكل ما هو تبرج وفخامة يعرض للزهو والخيلاء . ولذلك فالمتواضعون من الرهبان والراهبات يرغبون الثياب الخلقة والمخادع الفقرية والآلة البسيطة والخدمة المتواضعة .

التواضع الخارجي يكون في هيئتنا ومشيتنا ونظرنا ؛ فلا يفوح من هذا كله سوى عبير الوداعة والمسالمة والعاطفة الطيبة البعيدة عن الترفع والتبجح والعظمة واحتقار الناس .

---

(1) Maynard: *Vertus et Doctrine...* p. 218

التواضع الخارجي يكون بتوقيرنا لغيرنا ، واعطائهِ المقام الاول علينا ، وخدمتهِ بما يمكن من جهودنا ومساعينا ، ولاسيما من كان فقيراً او صغيراً او ضعيفاً او قاصراً واحتاج الى معونتنا ومساعدتنا . « ان عادة التواضع الخارجي المسبب عن عاطفة صادقة قلبية تحفظ لشخص الانسان هيئة لطف ووداعة دائمة . وما ذلك سوى مزيج من التؤدة والرصانة والحلم ، مما يفيض على الهيئة كلها جمالاً فتاناً وتناسباً كاملًا وسحراً حلالاً ، يعبر عنه بكلمة واحدة رائعة هي الاحتشام . فيبدو هذا الاحتشام في النظر ، وفي الصوت ، وفي الضحك ، وفي كل حركة واشارة من الانسان . ولا ابعد عن الاحتشام الحقيقي من اندفاع المرء الى الظهور . ولقد قال الرسول : « ليظهر حلمكم امام الناس فان الرب قريب »[1] . هذا هو السر فيما يبدو من الروعة والقدسية في الهيئة الوضيعة . فان الله قريب من هذه النفس ؛ وهي لا تنسى ذلك ، بل تعيش في حضرته ، وتعمل تحت نظره ، وتشتغل بمساعدة ملائكتهِ »[2] .

التواضع الخارجي يظهر على الاخص في كلامنا وفي حديثنا. فنمسك مثلًا عن الكلام لنترك الدور لغيرنا ؛ ولا نفيض

---

(١) فيلبي ٤ : ٥

(2) Mgr. Gay: *Vie et Vertus chrétiennes, T. I, p.* 357.

في ذكر اعمالنا ووصف مواقفنا وسرد تاريخ حياتنا ؛ ولا نستعرض اشغالنا ووظائفنا ومواقفنا ، وما نجح من مساعينا ، وما بهر من خطبنا ، وما انتشر من كتاباتنا ؛ ولا نشيد بذكر اقربائنا واصدقائنا ومعارفنا ؛ ولا نذمّ امام الناس انفسنا لنظفر بمديحهم لنا وثنائهم على امجادنا . ان بعض القديسين تظاهروا بالحمق طلباً لاحتقار الناس لهم، «فيجب ان نعجب بهم ولكن من غير ان نقتفي اثرهم ، يقول القديس فرنسيس السالسي ، لانه لا بدّ أن كان لهم اسباب حملتهم على ما اتوه من شذوذ وافراط في اعمالهم . فلا يحق لغيرهم ان يأخذوا ذلك منهم»[1] .

***

فالتواضع اذاً هو فضيلة عملية جليلة النفع، كثيرة الاجور، ترافق الانسان في كل اطواره ، وفي كل دقائق وتفاصيل حياته ، وتمكنه من حسن النجاح في اموره ، وتفيض عليه سحراً وتنشر عنه عرفاً يبقى طويلاً من بعده .

(1) *Introduction à la vie dévote, IIIᵉ p, ch. V.*

حادث تاريخي

تواضع القديس ارسانيوس

كان ارسانيوس من اشراف روما . وكان شديد التقوى ، عالي الثقافة ، كثير الادب . فاختاره الامبراطور تاودوسيوس في اواخر القرن الرابع ليكون استاذاً ومربياً لولديه اركاديوس واونوريوس . ووصل الى اعلى مراتب الدولة ، ولقب بابي القياصرة ، واصبح من اغنى اغنياء دهره .

الا ان نفسه الكبيرة كانت تعاف دائماً تلك المباهج الزائلة التي كانت مسراتها ممزوجة على الدوام بشيء من الاكدار والنقصان . فلما صار ابن اربعين سنة ، هجر العالم وافراحه واعياده وامواله ، وهرب خلسة الى صعيد مصر ، وطلب من رهبان تلك الصحارى ان يقبلوه فيما بينهم ويرشدوه في طرق العبادة والاختلاء .

وانهم رغم تكتمه عرفوه ؛ فاستعظموا شأنه ، وتهيبوا مقامه ، واخذوا يتساءلون من منهم يمكنه ان يكون مرشداً لهذا الاستاذ الكبير والعالم الخطير .

فقادوه الى واحد منهم كان قد طعن في السن . وكان ناسكاً عطاً مجرباً . فدخلوا عليه في عشته ، ودخل ارسانيوس وراءهم ، وبقي واقفاً على الباب متأدباً . فاعلموه بامره فسكت ولم يلتفت اليه .

وحان وقت الغداء فقام الناسك وقدم لضيوفه خبزاً ناشفاً وتمراً مجففاً . ولم يَدعُ ارسانيوس للاكل ، بل تركه واقفاً على الباب كما كان ، وتناسى شأنه . وبعد برهة اخذ ذلك الناسك رغيفاً ورماه لارسانيوس وقال له : كُلْ اذا كان لك رغبة في الاكل . فأكبَّ ارسانيوس على الارض واخذ

الرغيف وقام يأكله وهو واقف في مكانه .

فلما رأى الناسك المحنك منه ذاك التواضع العميق قال لجلسائه : ان هذا الرجل سوف يصل الى شأوٍ بعيد في القداسة . وهكذا كان . لان ارسانيوس ما عتَّم ان صار من ائمة النساك وقادة الرهبان وكبار القديسين . ولما سألوه بعد حادث الرغيف ماذا خالج فكره من الافكار لما رماه الناسك العجوز له ، اجاب بكل بساطة : اعتبرت نفسي كلباً من الكلاب لا يأنف من أكل ما يرمون به اليه .

تواضع مسيحي !

الفصل الثاني عشر

في فضيلة الوداعة

ان الرب يسوع بقوله : « تعلموا مني اني وديع ومتواضع القلب »[1] . قد جمع بين التواضع والوداعة لانهما فضيلتان شقيقتان متعانقتان مكمّلتان الواحدة للأخرى .

بيانها . — الوداعة هي فضيلة مسيحية فائقة الطبيعة تقف في وجه الغضب ، وتلطف من ثوراته ، وتحلم امام نقائص القريب واساءاته ، وتعامله باللين رغم غلظته واثقاله .

والوداعة لا توجد الا فيمن ملك ناصية امور نفسه بالقناعة. وتسلّح بالشجاعة ، وكان محباً جواداً كريماً . فالوداعة هي مجموعة طيبة من الفضائل المسيحية ، واثارها غزيرة شهية . فهي بعيدة عن الرئاء ، فلا تضمر الحقد والعداوة ، وتتظاهر بالمسالمة والموافقة والمسامحة . وهي ليست ضعفاً في الاخلاق وجبانة امام مصاعب الحياة . بل هي فضيلة داخلية يلزم لصاحبها كثير من الشجاعة ، ومن ضبط النفس ، ومن التغلّب على نزعات الطبيعة واميالها وثوراتها . خصوصاً وان اطباع البشر متباينة ، ومشاربهم

(١) متى ١١ : ٢٩

مختلفة ، وثقافاتهم منوعة ؛ فاحتكاكهم ببعضهم يدعو بطبيعته الى المضايقة والنفور والانفعالات النفسية ، والثورات الداخلية القوية . فالوداعة تلطف جماح النفس وتهدئ ثورات الغضب لاجل الله ومحبة لله ، وتبدّل العنف باللين ، وانفجار الطبيعة بالحلم والتؤدة .

ثمارها . – اما ثمارها فكثيرة ومنافعها عظيمة ، لانها في ذاتها مجموعة فضائل سامية ، ولانها من الوسائل الكبرى لنشر السلام في الدنيا . يقول المسيو اوليه : ان الوداعة لا توجد الا في النفوس النقية التي لم تعرف الخطيئة المميتة . فانّ سكنى السيد المسيح فيها مدة طويلة قد طبع فيها طابعه الخاص بهِ ، اعني الصبر العطوف والمسامحة الناشئة عن المحبة .

فثمرة الوداعة كما قلنا هي السلام ، السلام مع الله ، السلام مع القريب السلام مع ذاتنا .

يكون الوديع في سلام مع الله لانه يكون على استعداد كامل دائم لقبول ما تسمح بهِ عنايته الالهية من خير او شر ؛ ويكون راضياً بما يناله من ضيق او سعة . وهكذا يعيش ناعم البال رغم شدائده ، ويتمتع بسلام القلب حتى في مضايقه . ويشعر ان الله راضٍ عنه وساكن في قلبهِ . وما احلى ما قال الرسول في هذا : « لاننا نعلم ان الذين يحبون الله كل شيء يعاونهم

للخير »[١].

ويكون الانسان الوديع في سلام مع قريبه لانه يقابل نقائصه ومطامعه واثقاله وجهله وثوراته حتى اساءاته ايضاً بحلم وهدوء وعطف ومسامحة: « وعبد الرب يجب عليهِ ان لا يشاجر بل يكون ذا رفق نحو الجميع صبوراً مؤدباً بوداعة المخالفين عسى ان يؤتيهم الله التوبة لمعرفة الحق »[٢]. فلا يبقى من داعٍ للخصام، بل تنتصر المحبة المسيحية ويسود السلام: « طوبى للودعاء فانهم يرثون الارض »[٣].

ويكون الانسان الوديع بسلام مع ذاتهِ لانه يكون قد وطّن النفس على الصبر والتواضع، والرضى بالشدائد للتكفير عن الخطايا، والتسليم لارادة المولى بقبول ومحبة. عند ذاك لا يبقى محل للغضب. فلا يغضب لما يأتيه من المحن؛ ولا يثور لما يصادفه من الشدائد؛ ولا يحزن لنقائصهِ وغلطاتهِ وهفواته؛ ولا يغتمّ حتى لخطاياه. بل يتواضع ويندم ويجدد ثقته بالله، ويصلي، ويستغفر، ويعود الى السير في عمل الخير، والى حسن مواظبتهِ على واجباتهِ بكل طمأنينة وسلام. ولا يفعل ما يفعله بعضهم فيغضب لانه غضب، ويحزن لانه استسلم للحزن، ويثور على نفسهِ لانه خضع لنزعات قلبهِ.

---

(١) رومية ٨ : ٢٨ (٢) ٢ تيموثاوس ٢ : ٢٥ (٣) متى ٥ : ٦

والمثل الاعلى للوداعة هو السيد المسيح . — فان الوداعة هي شارته الكبرى . ولقد سبق الانبياء وبشروا بهِ انه سوف يكون ملكاً وديعاً : « لكي يتم ما قيل باشعيا النبي القائل : هوذا فتاي الذي اخترته ، حبيبي الذي سُرَّت بهِ نفسي . أحِلُّ روحي عليه فيخبر الامم بالحكم . لا يماري ولا يصيح ولا يسمع احد صوته في الشوارع . قصبةً مرضوضة لا يكسر وكتاناً مدخناً لا يطفئ حتى يخرج الحكم الى الغلبة ، وعلى اسمهِ تتوكل الامم »[1].

ولقد حقق هو تلك النبوءة ، لانه ظهر في كل اطوار حياتهِ مثالاً رائعاً لاروع واجمل واكمل ما في الوداعة من معانٍ سامية . ووصف هو نفسه بانه وديع ومتواضع القلب . وهو يدعو المتعبين والمثقلين والحزانَى والمضايقين الى نيره الطيب لكي يجدوا راحة لانفسهم وطمأنينة لقلوبهم وسلاماً لحياتهم[2].

يكفينا ان نقرأ بضع صفحات في الانجيل لتتجلى امامنا باكمل بهاء وداعة المسيح . ما اجمل حقاً وداعته مع تلاميذه ، وحلمه عليهم ، وصبره على نقائصهم وجهلهم ومطامعهم وقصر نظرهم وغلاظة قلوبهم ، وهو ملك الملوك وهم السوقة العبيد .

ومـا اعذب وداعته مع الاولاد ، واحتضانه لهم ، وملاطفتهم ، ومنحهم بركته ، ودفاعه عنهم ضدّ ما بدا من المضايقة

(١) ٢١ اشعيا ٤٢ : ١ — ٤ و متى ١٢ : ١٧   (٢) متى ١١ : ٢٩

عند تلاميذه لجلبتهم، ودعوته الناس لكي يتشبهوا بهم: «حينئذٍ قُدِمَ اليه صبيان ليضع يديه عليهم ويصلي. فزجرهم التلاميذ. فقال لهم يسوع: دعوا الصبيان ولا تمنعوهم ان يأتوا الي لان لمثل هؤلاء ملكوت السماوات. ووضع يديه عليهم» [١].

وما احنّ وداعته مع الخطأة، وقبوله لهم، وتحدثه اليهم، واقتناصه لقلوبهم. ان مواقفه الخالدة مع السامرية، ومع المرأة الزانية، ومع المخلع، ومع اللص، لهي أروعُ ما جاء عن الوداعة في تاريخ الدنيا: «لم آتِ لأدعو صديقين بل خطأة الى التوبة» [٢].

ومـا ابدع وداعته مع الجماهير الملتفة حوله وهي تزحمه وتضايقه. «فلما خرج يسوع أبصر جمعاً كثيراً فتحنّن عليهم لانهم كانوا كخرفان لا راعي لها وطفق يعلمهم اشياء كثيرة» [٣]. ألم يزجر تلاميذه لما غضبوا لعدم قبول السامريين له وقال لهم: «ان ابن البشر لم يأتِ ليهلك نفوس الناس بل ليخلصها» [٤].

وما اكرم وداعته مع المرضى، وكم تحمَّل من لجاجتهم، ومن اثقالهم، ومن مضايقتهم له، ومن اعتراضهم له في طريقهِ.

ولقد فاقت وداعته كل حدٍّ في آلامهِ: مع يهوذا «يا صاحب لاي شيء جئت» [٥]. ومع العبد ملكس، ومع الخادم الذي

---

(١) متى ١٩ : ١٣ – ١٥ (٢) مرقس ٢ : ١٧ (٣) مرقس ٦ : ٣٤

(٤) لوقا ٩ : ٥٦ (٥) متى ٢٦ : ٥٠

لطمه على خدّه ، ومع بطرس الذي انكره ، ومع اليهود الثائرين عليه : « يا رب اغفر لهم »[١] .

لذلك حقّ له ان يوصي تلاميذه والمؤمنين بهِ ان يكونوا وديعين على مثاله :

« اما انا فاقول لكم : أحبوا اعداءكم ، واحسنوا الى من يبغضكم ، وصلّوا لأجل من يعنتكم ويضطهدكم »[٢] .

« اما انا فاقول لكم : لا تقاوموا الشرير بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر . ومن اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فخلّ له رداءك ايضاً »[٣] .

« كونوا حكماء كالحيات وودعاء كالحمام »[٤] .

فالمسيحي الحقيقي يتأمل في حياة السيد المسيح ، ويسمع اقواله ووصاياه ويسعى لكي يتشبه بهِ ويسير بحسب تعاليمهِ . فيتجنب الخصام ، وثورات الغضب ، وانواع الشتائم ، وقوارص الكلام ؛ ويتحلى بالبشاشة في معاملتهِ مع الناس . فالوداعة هي قناصة القلوب ، وجلّابة النعم ، وأصل الخير العميم على الارض .

« طوبى للودعاء فانهم يرثون الارض »[٥] .

---

(١) لوقا ٢٣ : ٣٤ (٢) متى ٥ : ٤٤ (٣) متى ٥ : ٣٩ و ٤٠
(٤) متى ١٠ . ١٦ (٥) متى ٥ : ٤

﴿ حادث تاريخي ﴾

وداعة القديس منصور دي بول

كان القديس منصور دي بول قد اصبح علماً عظيماً في المملكة الفرنسية على عهد الملك لويس الثالث عشر. وكان قد اسس جمعيات المرسلين اللعازريين وراهبات المحبة ، وانشأ الملاجئ والمستشفيات ، ورفع مستوى الدروس اللاهوتية ، واضحى رجل المملكة والكنيسة الاكبر في بلاد فرنسا .

وكان الملك قد وكل اليه انتخاب الاساقفة لكرسي الابرشيات وتعيين كبار موظفي الكنائس والمعابد . فصار الكثيرون يطمعون بعطفه لكي ينالهم شيء من انظاره وتقديره . لكنه كان رجلاً قديساً متجرداً متزهاً عن كل اغراض الدنيا ومطامع الارض. ولم يكن يدعو الى شرف الاسقفية الا من تحقق اهليته الدينية والعلمية والادارية معاً بقطع النظر عن اسمه وشهرة عائلته ، او عن نفوذه وثروته . لذلك كثر اعداؤه ومبغضوه .

ففي ذات يوم بينما كان راكباً فرساً وسائراً في طريقه اذ ادركه واحد من اولئك الطماعين في الدنيا ، الناقين عليه ، واخذ يكيل له الشتائم بلا حياء ولا حساب . ومما قاله له : ان كل ما يحلُّ بفرنسا من المصائب انما هو نتيجة جهله وغروره ومطامعه .

فما كان من منصور الا ان نزل عن فرسه وركع امام شاتمه وقال له بمنتهى الحلم والوداعة : نعم يا اخي ، الحق معك. انا سبب مصائب فرنسا . يا ليت الملك يعرف ضعفي وجهلي ومسكنتي ويطرحني فابقى في الدنيا نسياً منسياً . ويا ليتك تحسن اليَّ وتساعدني على ذلك .

فذهل الرجل من هذه الوداعة وهذا التواضع ، فهجم عليه يقبل يده ويستغفر منه .

الباب الثاني

في الفضائل الالهية

تمهيد

ان الفضائل الالهية ثلاث : الايمان والرجاء والمحبة . فالقديس بولس في رسالته الاولى الى اهل كورنثس يتكلم باسهاب عن المحبة ويسمو الى حد الابداع في كلامه عن هذه الفضيلة الالهية التي انما هي الظاهرة الكبرى لتجلي الألوهة ، والشعار الاعظم للديانة المسيحية[1] . ثم بعد ذلك يقول : « والذي يثبت الآن هو الايمان والرجاء والمحبة ، هذه الثلاثة واعظمهن المحبة »[2] . وفي رسالته الى اهل تسالونيكي يعود مرتين الى ذكر هذه الفضائل الالهية الثلاث فيقول في الفصل الاول : « متذكرين عمل ايمانكم وتعب محبتكم وصبر رجائكم بربنا يسوع المسيح »[3] . وايضاً في نهاية الرسالة : « اما نحن اهل النهار فنصبح لابسين درع الايمان والمحبة وخوذة رجاء الخلاص »[4] . فكلام القديس بولس واضح فيما يختص بهذه الفضائل الالهية ، وعليه سارت الكنيسة المقدسة في تعليمها .

---

(١) ١ كور ١٣ : ١ – ٨ (٢) ١ كور ١٣ : ١٣

(٣) ١ تسا ١ : ٣ (٤) ١ تسا ٥ : ٨

وتدعى هذه الفضائل الثلاث الهية لان غايتها هو الله . فهي اكبر الوسائل لاتحادنا به تعالى ، فنسمو فوق ما نحن ، والى اعلى من مطالب طبيعتنا ، ويتبدل الانسان البشري فيصير انساناً سماوياً ، وهكذا نقترب من الالوهة ، ونتحد بها بواسطة سيدنا يسوع المسيح .

فالايمان يقربنا من الله ، ويجعلنا نتحد به تعالى اتحاداً روحياً وثيقاً ، لاننا بالايمان نعرفه تعالى كما شاء ان يتجلى لنا ، ونؤمن بكلامه لانه الصدق الاسمى ، ونقبل بلا تردد ايحاءاته ، ونعد نفسنا للتمتع في السماء الى الابد برؤيته حسب وعده ؛ وهكذا يشاطر فكرنا فكره ، وعلمنا علمه ، فتتحد روحنا بروحه ، وعقلنا الضعيف بحكمته الازلية وكلمته .

وبالرجاء نصعد ايضاً اليه ، ونصبو الى التمتع بنعيمه ، ونعلل آمالنا بان سوف ينيلنا ما وعدنا به من ملكوته ؛ لانه رحيم وجواد وصادق ، ولانه خلقنا وأحبّنا وخلّصنا ولا يزال شغوفاً بنا، عطوفاً علينا ، راثياً لضعفنا، مساعداً لنا في جهاداتنا ، الى ان نحط رحالنا امام عرشه ونسعد مدى الابدية برؤيته .

اما بالمحبة فان قلبنا يذوب في نار حبه ؛ لاننا نرى فيه كل الخير وكل البهاء والجمال والكمال ، فنحبه بكل جوارحنا وعواطفنا ، حتى نصير معه بالمحبة واحداً . وهكذا يكون اتحادنا به وثيقاً على الارض ، ريثما نتحد به بالمحبة في السماء الى الابد .

فبحق سُمّيَت هذه الفضائل فضائل الهية لان الله هو محورها وغايتها الاولى والقصوى . وها نحن آخذون بالكلام بايجاز عن كل واحدة منها .

الفصل الاول

في فضيلة الايمان

١ بيانها . — الايمان هو فضيلة فائقة الطبيعة تحمل ذهننا ، تحت تأثير ارادتنا الحرة ومعونة النعمة الالهية ، على قبول وتصديق الحقائق التي اوحاها الله لنا ، لانه هو الحق الازلي الذي لا يمكن ان يغلط ، ولا يمكن ان يضلّلنا .

فعمل هذه الفضيلة هو اذاً عمل روحي عقلي ، لانه عمل قبول وتصديق لحقيقة عقلية . كما ان للارادة ايضاً فيه حظاً وافراً . لان الحقيقة المعروضة على العقل ليست في ذاتها وجوهرها من الوضوح والظهور مما يجعل العقل يقبلها بلا تردد ولا ارتباك . لذلك كان لا بد للارادة من ان تنزل هي ايضاً الى الميدان وتعمل عملها ، وتحمل الذهن اولاً على بحث الاسباب الموجبة لقبول تلك الحقيقة وتصديقها . فاذا ما وجد العقل تلك الاسباب كافية منطقية ، وارتاح الى صوابيتها ، عادت الارادة الكرّة عليه وأمرته ان يصدق تلك الحقيقة ويقبلها ، فيؤمن العقل حينئذٍ بها . فالايمان هو نتيجة فعل العقل وفعل الارادة معاً .

ولما كانت الحقائق المعروضة على عقلنا لتصديقها وقبولها

والايمان بما هي الهية سماوية تفوق مداركنا وتسمو على قوى طبيعتنا كان لا بد لنا من النعمة الالهية لتضيء عقلنا وتشدد ارادتنا ، فتمكننا من ممارسة افعال الايمان ، ويكون لنا من ذلك اجور سماوية غزيرة .

والايمان يشمل الحقائق كلها التي اوحاها تعالى للبشر ؛ سواء تلك التي لا يستطيع المرء بانواره الطبيعية ان يدركها ، نظير حقيقة الثالوث الاقدس مثلاً ، او سر التجسد الالهي ؛ او تلك التي يستطيع ان يدركها بقوة عقله ومنطقه ، وهو بالفعل قد ادركها ، ولكنه يزيد بواسطة الوحي معرفة بها وادراكاً لكيفيتها ، نظير وجود الله ، وابداعه للعالم ، ومكافأته للخير ومجازاته للشر .

ومعظم الحقائق التي اوحاها الله قد جمعتها الكنيسة المقدسة في قانون الايمان ؛ وهي ترجع كلها الى الله والى السيد المسيح . فالله هو الكائن الواحد الازلي المثلث الاقانيم ، القادر على كل شيء ، خالق ورب الكل . والمسيح يسوع الابن الحبيب ، الاقنوم الثاني من الثالوث الاقدس ، الذي تجسد في احشاء العذراء مريم ، وافتدانا ، واسس كنيسته وسلحها بسلطانه ، ووضع بين يديها كنوز نعمه واسراره لتكمل رسالته وتقود البشرية بمعونة الروح القدس الى الملكوت الابدي الذي استحقه المسيح لها

بالآمه. هذه هي المجموعة الكبرى للحقائق الالهية التي اوحاها الله والتي أمرنا ان نؤمن بها ونصدقها ونسير في حياتنا على ضوئها، وان كنا لا ندرك كنهها وجوهرها؛ فيقودنا الايمان بها والعمل بمقتضاها الى الحياة الابدية: « وهذه هي الحياة الابدية ان يعرفوك انت الاله الحقيقي وحدك والذي ارسلته يسوع المسيح »[١].

٢ منافع الايمان. — الايمان هو حقاً اساس حياتنا المسيحية، وهو مقدّسها ومكيّفها ومنشّطها ومعزّيها. لاننا بالايمان نعلم ما هو الله، وما هي قدرته وسلطانه ورحمته وحنانه، ولأيّ شيء خلقنا وماذا يريد منا وكيف احبنا، وبماذا وعدنا. فهو النور الذي به نستضيء في حياتنا وفيما نصبو اليه من آمالنا، وهو القوة التي تشجعنا وتنشطنا، وهو التعزية التي تلطّف شدائدنا، وبه الاجور الدائمة التي تغنينا وتضفر للسماء اكاليلنا.

فالايمان هو نور لعقولنا لان به نستمد من الله المعارف الحقة الصحيحة الصادقة، فيمتزج فكرنا بفكره، وروحنا بروحه، وحياتنا بحياته، فنعرفه كما هو، ونفهم كيفيته وكيفية مخلوقاته على قدر ما تستطيع طبيعتنا البشرية الضعيفة ان تفهم كنهه وطبيعته وعمله. الا ان معرفتنا له بالايمان تكون صحيحة،

(١) يوحنا ١٧ : ٣

منزهة عن الضلال ، بعيدة عن ترهات الفلسفات السخيفة السقيمة الباطلة . «بالايمان يصبح نور الله نورنا ، وحكمته حكمتنا، وعلمه علمنا ، وروحه روحنا ، وحياته حياتنا »[1] .

بالايمان يتميز الانسان المسيحي عن الفيلسوف الطبيعي . فان علم الفلسفة ناقص لاعتماده فقط على المنطق العقلي والنور الطبيعي . اما العلم الصادر عن الايمان فهو كامل لان الله هو مصدره ؛ والله هو رب كل فلسفة ، ومصدر كل علم وينبوع الانوار كلها . انتم ابناء النور ، يقول لنا المسيح . واذ نرى العقل البشري يتخبط في دائرة ضيقة مظلمة ، ويسير على ممر الاجيال من شكوك الى شكوك ، ومن ظلمات الى ظلمات ، اذ نرى جموع الفلاسفة يسعون بكل قواهم ليصلوا الى النور ، ليظفروا بالحقيقة فلا ينال المقدم منهم الا النزر اليسير منها ، اذ نراهم وكل منهم ينبذ ما وصل اليه غيره من انوار ، ويقبح طريقته وينكر عليه تعليمه ، نرى المسيحي يسير بطمأنينة في بحر فائض بالانوار ، فلا يتردد ، ولا يخالج فكره شك ، ويعرف بجلاء حقائق سامية رائعة بديعة الهية ، فيرتاح عقله اليها ، وينعم بطمأنينة بها ، ويسير بسلام وفرح على ضوئها . يعرف ان الله موجود ، وانه روح ازلي سرمدي ، لا حد لقدرته ، ولا حصر

(1) Mgr Gay: *Vie et vertus chrétiennes*, T. I, p. 150

لحكمته ، وانه هو الذي ابدع من العدم الانسان وسائر الكائنات ، وانه واحد في طبيعته ، مثلث في اقانيمه ، وان حكمته الازلية هي بهذا المقدار سامية حتى انها تؤلف اقنوماً ثانياً ، هو الكلمة ؛ وان محبته هي بهذا المقدار فائضة حتى انه يصدر منها اقنوم ثالث هو الروح القدس ، الروح المعزي ، الروح المقدس للنفوس ، الروح الموزع النعم والمفيض النور ؛ وان الاقنوم الثاني تجسّد في احشاء بتول ، ونزل على الارض ، وتردد بين الناس ، وعلمهم حقيقة الاسرار الالهية ، ورفعهم الى الالوهة ، وافتداهم بدمه الاطهر ، وترك لهم اسراراً سبعة مقدسة محيية لنفوسهم ، وسكن على الدوام في القربان فيما بينهم ، في كنائسهم ، وفي قلوبهم ، وجعل للكنيسة التي اسسها سلطاناً الهياً ، وعصمها عن اغلاط الفلاسفة ، ونزهها عن اضاليل العقل البشري الضعيف الساقط المتحزّب الطمّاع المتكبر ، وفتح ابواب الملكوت لجميع الامم والشعوب ، اعني لكل من يريد ان يعبد الله بايمان وتقوى ومحبة .

هذه هي خلاصة الحقائق السامية السماوية الحقة ؛ وعلى ضوئها يسير الادب المسيحي ويسمو على كل ادب فلسفي طبيعي ، لانه يستمد انواره من الحكمة الازلية السامية الالهية .

اما الفلسفة الطبيعية فهي ناقصة ، والعلوم البشرية فقيرة

بائسة فلا تشبع العقول ولا تروي القلوب . ولقد كتب في ذلك الشاعر الفرنسي الكبير فرنسوا كوبيه قال [1] : « ان العالم الكيماوي ، في كل مرق تحليلات معمله ، لا يستطيع ان يجد الدواء الواقي من الشكوك والاحزان » .

« وان ما يرسله القمر من الانوار مدة صيف كامل ، وهو ما نقدر ان نحصره في قنديل من قناديل اديسون الكهربائية ، لا يتوصل الى تبديد ظلمات قضية واحدة من القضايا التي تشغل النفوس البشرية الحائرة » .

« ما هو قدر الاختراعات العلمية كلها التي يفاخر مجتمعنا العصري بها ، والتي هيهات ان يصل الى القلب البشري اثرها ، امام الكلمات التي فاه بها المسيح منذ الف وتسع مئة سنة ، على مسمع بعض البؤساء من سكان الجليل : ان اصبر على آلامك برضى ، واقبل على الموت بعاطفة الرجاء . هذا هو السر العظيم الذي نزل وحيه علينا من قمة الجلجلة . ونحن احوج اليه لاجل اسعادنا من الاسيتيلين والفونوغراف » .

فهل من تعليم يا ترى ، اسمى من تعليم يسوع على الجبل ، وهل من ادب ارفع واوقع في القلوب من الادب الذي يدعو اليه هذا المعلم الالهي ؟ «طوبى للمساكين بالروح ، طوبى للحزانى ،

(1) *Cfr* G. Hoornaert, S J.: *A propos de l'Evangile*, p. 226.

طوبى للودعاء، طوبى للجياع والعطاش الى البر، طوبى للرحماء، طوبى للانقياء القلوب». فالقداسة التي يدعو اليها يسوع هي قداسة القلب، وقداسة النية؛ هي القداسة السماوية المترفعة عن المطامع الارضية وعن المصالح السخيفة الذاتية. هي القداسة الصحيحة الروحية، وليس القداسة المادية الجسدية الظاهرة التي تعنى فقط بالعيون التي ترى وبالآذان التي تسمع. هي القداسة التي تضع محبة الله في رأس اعمالها، وتحب القريب محبة لله، وتعطف عليه لاجل الله، وتحسن اليه لوجه الله. هي القداسة التي تجعل السيد المسيح مثالها، وتعاليمه دستوراً لحياتها. هي القداسة التي تعتمد على نعمة الله في عملها، فيصبح هذا العمل سماوياً ابدياً.

الايمان هو قوة لارادتنا؛ فهو خير مشجع لنا في مضايق هذه الحياة وشدائدها. لاننا بالايمان نعرف ان المسيح سار في طريق الشدائد قبلنا، وانه يدعونا الى اللحاق به، وانه يعطينا القوة لنسير في اثره، وانه يعدنا بالسعادة الدائمة ويمنحنا اياها اذا حفظنا وصاياه وكنا أمينين في طاعته. بالايمان نعرف «ان ضيقنا الحالي الخفيف ينشئ لنا ثقل مجد ابدياً لا حدّ لسموّه» [(1)]. بالايمان نعرف مع بولس الرسول «ان آلام هذا الدهر لا تقاس بالمجد المزمع ان يتجلى فينا» [(2)]. وهكذا نتقوى ونتشجع، لا

---

(١) ٢ كور ٤ : ١٧ (٢) رومية ٨ : ١٨

بل نصل الى حد اننا « نفتخر ايضاً بالشدائد لعلمنا بان الشدة تنشىء الصبر، والصبر ينشىء الامتحان، والامتحان الرجاء، والرجاء لا يخزي لان محبة الله قد افيضت في قلوبنا بالروح القدس الذي اعطي لنا »[١]. وما ابدع ما كتبه بولس الرسول في رسالته الى العبرانيين عن ايمان الآباء والانبياء والشهداء : « بالايمان نفهم ان الدهور اتقنت بكلمة الله حتى ان المنظورات صُنعت من غير المنظورات . . . انه يضيق بي الوقت لو اخبرت عن جدعون . . . والانبياء الذين بالايمان قهروا الممالك وعملوا البر ونالوا المواعد وسدُّوا افواه الاسود واطفأوا حدة النار ونجوا من حد السيف وتقوَّوا من ضعف وصاروا اشداء في القتال وكسروا معسكرات الاجانب واسترجعت نساء امواتهن بالقيامة وعُذِّب آخرون بتوتير الاعضاء والضرب ولم يرغبوا في النجاة ليحصلوا على قيامة افضل . . . »[٢]. فالايمان هو القوة الصادقة لنا عندما توشك ان تخور عزائمنا امام زوابع الحياة وشدائدها .

وما ابلغ ما كتب الروائي الفرنسي الشهير بول بورجه اذ قال: « ما هو قدر هذه العلوم وما هو نفع هذا الدخان عندما يصل الانسان الى نقطة توجيه الحياة ويضطر ان يتخذ له قراراً وطريقاً. ما هي قيمتها عندما يحتاج القلب في محنته الى معونة علوية ، الى

---

(١) رومية ٥ : ٣-٥ (٢) عبرانيين ١١ : ٣ و ٣٣

حقيقة ثابتة يستطيع ان يتمسك بها ويثبت عليها »[١].

وقال الفيلسوف جوفروا: « كيف يمكن الانسان ان يعيش بسلام اذا كان لا يعرف من اين اتى، وما هو مصيره، وما هي الطريق التي يلتزم ان يسير عليها ».

« اعترف لك يا ابتِ ربَّ السماوات والارض لانك اخفيت هذه عن الحكماء والعقلاء وكشفتها للاطفال ... تعالوا الي يا جميع المتعبين والمثقلين وانا اريحكم »[٢].

«السلام استودعكم . سلامي اعطيكم »[٣].

الايمان هو التعزية الصحيحة الكبرى لقلوبنا عند حلول المصائب وهجوم الشدائد والنوائب . فحين يخطف الموت من بين ايدينا شخصاً عزيزاً علينا، ولداً محبوباً، او اماً حنوناً، او اباً سيداً سنداً، او صديقاً مخلصاً، فالايمان وحده يمكنه ان يعزينا، ويطفئ اجيج نيران قلوبنا، ويبدد السحب المظلمة المتجمعة في آفاقنا وفي آمالنا . لانه هو وحده يستطيع ان يسمعنا صوته عند اشتداد العاصفة ويقول لنا : « لا تحزنوا كما يحزن باقي الناس الذين لا رجاء لهم ... من يسمع كلامي ويؤمن به فله الحياة الابدية »؟ وان الدنيا هي دار شقاء وفناء، وان الابدية هي حقاً دار النعيم

(1) Paul Bourget: *L' Etape*, p. 343.

(٢) متى ١١ : ٢٥ و ٢٨ (٣) يوحنا ١٤ : ٢٧

والبقاء ؛ وان الذين يموتون بالرب ، لا يزالون متحدين بالمسيح مع الاحياء ، وعائشين معنا وهم في النعيم ؛ واننا بصلاتنا لاجل راحة نفوسهم ، وبطلبنا شفاعتهم ، نسجل الى الابد اتحادنا معهم وقربنا اليهم .

الايمان هو ايضاً ينبوع فائض للكثير من الاجور السماوية . اولاً لان فعل الايمان هو فعل سامٍ له اجره واستحقاقاته . فبه نُخضِع لصوت الله عقلَنا وارادتَنا ومدار كنا وانوارَ علومنا . وحينما تعصف حولنا زوابع الالحاد بالكتابات الكفرية المنوعة ، والخطابة اللادينية ، وانواع المظاهرات العلمانية المعادية للمبادئ القويمة الالهية ، فان تمسكنا بايماننا يكون عنوان فضلنا وسبب اجورنا .

والايمان ايضاً اذا كيفنا به اعمالنا ، وجعلناه اساس حياتنا ، فاصبح الدافع الحقيقي لافعالنا ، فان كل حركة وسكنة من حياتنا تصبح ذات صبغة سماوية ، فنستحق عليها النعم على الارض والاجور في السعادة الابدية . فبدل ان يكون درسنا مثلاً ، او شغلنا ، او اكلنا ، او شربنا ، لاجل غاية بشرية ، يصبح بالايمان لاجل الله ، وعملاً بارادة الله ، ومطابقاً لتعليم الله ، وبذلك يكون تمجيداً لله ، ومستحقاً لرضى الله وللملكوت الله . وفي هذا المعنى يقول بولس الرسول : « فاذا اكلتم او شربتم ،

او عملتم شيئاً فاعملوا كل شيء لمجد الله »[١] .

٣ كيف نمارس فضيلة الايمان . — ان الايمان هو نعمة وموهبة من الله ، وهو ايضاً فعل بشري صادر عن القوى العقلية بملء علمها وحريتها . لذلك كان لا بد له من الصلاة التي تستمد له النعمة العلوية فينمو ويتقوى ؛ وكان لا بد له ايضاً من الجهود الشخصية لكي يكون عمله صادقاً ومستحقاً للاجور السماوية .

واعمال فضيلة الايمان هي انواع مختلفة ودرجات متعددة على حسب استعداد وكمال كل فئة من المؤمنين المسيحيين .

فالمبتدئون في الحياة الروحية يثبتون ايمانهم اولاً باسداء آيات الشكر لله على نعمة الايمان التي انعم بها عليهم ، عالمين ان الايمان هو اساس سائر النعم : « فشكراً لله على موهبته التي لا توصف »[٢] . وشكرهم هذا يزداد حرارةً وخشوعاً اذ يلقون بانظارهم الى ما حولهم ويرون ان هذه الموهبة العظيمة قد حُرِمَ منها الكثيرون من ذات مواطنيهم العائشين بينهم . وترتفع نفوسهم الى الله بالصلاة لكي يديم عليهم هذه النعمة ويزيدها في قلوبهم : « يارب زدنا ايماناً »[٣] . وهكذا يرددون فعل الايمان ما امكنهم .

---

(١) ١ كورنتس ١٠ : ١٨ (٢) ٢ كورنتس ٩ : ١٥ (٣) لوقا ١٧ : ٥

ثانياً انهم يُقوُّون ايمانهم بمطالعة الكتب العلمية والتقوية والتاريخية والدفاعية التي من شأنها ان تزيدهم معرفة بالله، وبحقيقة ايحاءاته، وبجمال تعاليمه. ان تيار الكفر قد طغى على البشرية، فكثرت المؤلفات الالحادية التي تهاجم عقول وقلوب المؤمنين لتنتزع منها نور الايمان وتعزية الايمان، وتزرع بدلاً منها الشك والفساد والحريات المستهترة. ان الكاتب الكبير «بالمس» (Balmes) يقول: «لا ينكر عليَّ احد تمسكي الشديد بالعقائد المسيحية الصحيحة. ورغم ذلك فاني كلما قرأت كتاباً من الكتب الممنوعة اشعر بعوز جديد الى قراءة الانجيل وكتاب الاقتداء بالمسيح ومؤلفات لويس الغرناطي. فالى اي المهالك تتعرض تلك الشبيبة الحمقى التي تجسر على قراءة كل شيء من غير ان تحتاط لنفسها بما يقوي معارفها ويغذي خبرتها. ان مجرد افتكاري بذلك يملأني خوفاً وأسفاً».

فالواجب والمنطق معاً يقضيان بان نطالع الكتب التي تثبّتنا في ايماننا، وتعلمنا الفلسفة الحقة المسيحية التي هي ثمرة التعاليم الصادقة الالهية الابدية. فكم وكم من الكتب، ومن الصور، ومن افلام السينما، ومن المجلات، ومن المحاضرات التي تهاجم المبادئ الالهية مهاجمة علنية لتهدم صرح المدنيّة الصحيحة الثابتة الهنيئة. وكم وكم نرى حولنا من الوسائل الجهنمية التي تعمل

بكل قواها لدكِّ اسوار الايمان المسيحي المقدس، تحت ستار العلم والحرية والتساهل والاشتراكية الكاذبة.

ثالثاً يصون المبتدئون بالحياة الروحية ايمانهم من الضعف والفتور بمقاومتهم ما يثور في عقولهم من روح الكبرياء العلمي والتمرد على التعاليم الالهية بداعي الحرية العقلية والمقدرة المنطقية. لانهم يعلمون ان العقل البشري هو لا شيء بازاء العقل الالهي والحكمة الازلية، وان الفلسفة الطبيعية الصادقة، فلسفة ارسطو وافلاطون، هي سراج ضئيل امام شمس الفلسفة الالهية. ولذلك اذ يتأكد لديهم ان الله قد تكلم بفم انبيائه ورسله وكنيسته يبادرون الى اخضاع عقولهم وقلوبهم واعمالهم وكل دقائق حياتهم لتعاليم الرب واحكام الرب.

« في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله. كل به كُوِّن وبغيره لم يُكوَّن شيء مما كُوِّن. فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس »[1].

اما التجارب ضد الايمان فهي اما ان تكون عامةً واما ان تكون خاصة. اما العامة فهي التي لا تتناول قضية معينة من قضايا الايمان، بل تهاجم الايمان كله، كقول احدهم مثلاً: ان الوحي لا وجود له، او ان كل ما لا يرى هو وهم؛ او ان كل

(1) يوحنا ١ : ١ - ٤

ما لا يفهمه العقل فهو مردود. وغير ذلك من الاراجيف التي يظنها اصحابها مبادئ ثابتة ويتمسكون بها ظناً منهم انها تُعليهم فوق سواهم، ناسين في وهمهم ان الفلسفة الطبيعية هي ارضية، وان الايمان هو الفلسفة السامية السماوية.

اما التجارب الخاصة فهي التي تتناول بالاعتراض والشك قضية معينة من قضايا الايمان، نظير سر التجسد مثلاً، او سر الفداء، او سر القربان، او بتولية مريم العذراء، او ابدية جهنم.

فامام التجارب العامة يجب علينا ان نردد في اذهاننا ان ايماننا هو مؤسس على كلام الله؛ وانه لا شك لدينا في ان الله كلمنا؛ وانه جلت حكمته وقدرته، لم يترك وسيلة الا استخدمها ليوصل تعاليمه ووصاياه الى اذهاننا، فاوحى لنا كلامه بواسطة الانبياء، وعلى الاخص بواسطة ابنه الكلمة المتأنس؛ وان لدينا على ذلك ادلة واضحة اكيدة لا تقبل الشك ولا يمكن ان يتسرب اليها الريب، كالمعجزات العظيمة التي اثبتها التاريخ الصحيح الثابت؛ وان عقولاً عظيمة اسمى من عقلنا، واكثر علماً، واحدّ فهماً، قد بحثت في قضايا الايمان وبيّنتها وشرحتها، وثبّتت حقيقتها وآمنت بها.

وبعد ان نقنع انفسنا بمثل هذه المبادئ الاساسية يجب ان نلجأ بتواضع وخشوع الى الصلاة؛ لان الايمان هو فضيلة الهية

فائقة الطبيعة ، وان نهتف نحو الرب : « انا اومن يا رب فأعِنْ ضعف ايماني »[1] .

اما اذا هاجمتنا التجارب ضد قضية معينة من قضايا الايمان فيجب ان لانستسلم للشك في حقيقتها ، بل نبقى على ايماننا بها ريثما نسأل من هو اعلم منا عن معناها وصحتها وثبوتها ؟ او ريثما نبحث نحن بذاتنا عنها اذا كان في استطاعتنا وفي متناولنا ان نفعل ذلك . ويجب ايضاً ان لا نغفل عن الصلاة ، طالبين الى الرب ان ينير اذهاننا ويقوي قلوبنا لكي لا نذهب ضحية ضعف نظرنا و كبرياء عقلنا . وعلينا ان لا ننفى ان من المصاعب ما لا نستطيع ان نذلّله الا بعد دروس خصيصة طويلة شاقة . وهذا كثيراً ما يكون فوق متناول حتى بعض الطبقة المثقّفة الراقية . لان ايضاح بعض الحقائق يتطلب علوماً عميقة في التاريخ والجغرافيا وعلم النفس والمنطق ، وتطورات الشعوب ، وفلسفة الاجيال ، وتيارات الافكار في مختلف البلدان . فالحكمة تقضي بان لا نقبل الشك في قضية من القضايا التي تعلمها الكنيسة المقدسة ريثما تمكننا الظروف – ان هي مكّنتنا من استقصاء بيانها وشرحها وفهمها ، او الوصول الى هذه النتيجة انها لا تتنافى مع ما يقبله العقل السليم المجرد عن الهوى .

(١) مرقس ٩ : ٢٣

اما المتقدمون في الحياة الروحية فانهم لا يكتفون بان يؤمنوا بما اوحاه الله وتعلمه الكنيسة المقدسة ، بل انهم يعيشون في حياتهم بمقتضى ايمانهم ، وبروح ايمانهم : « البار بالايمان يحيا »[1] . فهم يجعلون السيد المسيح محور حياتهم ، وقبلة اعمالهم . يقرأون الانجيل بامعان وتواضع ومحبة ويقتبسون منه التعاليم السديدة والطرق الصحيحة التي تكفل لهم حياة مسيحية مطابقة لمعتقدهم وايمانهم . وهكذا ينظرون الى امور الحياة بنظر الايمان ، ويحكمون على الدنيا واهلها وتقلباتها وما فيها من حياة وموت ، وسعادة وشقاء ، وفقر وغنى ، وافراح واتراح ، بروح الايمان ، وتعاليم السيد المسيح ورسله و كنيسته .

اما الكاملون من المسيحيين فان حياتهم وافكارهم واقوالهم وافعالهم تكون مشربة بروح « موهبة العلم » التي يفيضها الروح القدس في قلوبهم ، فلا يحكمون على امر من امور الحياة مهما كان كبيراً او صغيراً الا بموجب ما له من علاقة بالله تعالى ، ولا يرون في القريب الا صورة الله ، ولا تبدو لهم في كل ما يشاهدون من الخلائق حولهم الا قدرة الله وحكمته ومحبته وحنانه : « السماوات تذيع مجد الله والفلك يخبر باعمال يديه »[2] . فالشمس والقمر وسائر النجوم تبدي بهاءه وقدرته ؛ والسحب تمطر رحمته ؛

---

(١) رومية ١ : ١٧ (٢) مزمور ١٨ : ١

والازاهر تفوح بعرف جماله ، والشعوب تترنم بحكمته ، وجماهير القديسين الذين لمعوا على الارض بكل فضيلة وكل بطولة يتلألأون بانوار نعمه ونعيمه ، « فموهبة العلم » تحمل النفوس التقية على ان ترى الله في كل شيء ، وان تسمعه في كل وجود ، في الزهرة الصغيرة المعلقة على ضفاف الغدير ، وفي الدوحة العظيمة المظللة باغصانها الجموع واليها تأوي اسراب العصافير ؛ وفي حبة الرمل المنسية على شواطئ البحور ، وفي الجبل الاشم الشامخ الذي يناطح السحاب وعلى قمه تسبح النسور ؛ وفي الطفل الرضيع النائم بهناء على صدر امه ، وفي الخطيب الخطير الذي يهزّ الجماهير بفصاحة بيانه . نعم ان الله يبدو لهم في كل شيء ، في كل حركة وكل سكنة ، فيرونه بأعين قلوبهم ، ويطربون لجماله ، ويسبّحون عظمته وقدرته وحنانه ورحمته وجماله وبهاءه ويباركونه في الحياة ، ويباركونه في الممات مدى الدهور والآباد .

حادث تاريخي

ايمان الاب دي راتسبون

كان دي راتسبون قد بلغ سن الشباب وهو يهودي . وكان معروفاً في الاوساط التجارية بفرنسا . وكان شاباً مستقيماً ومثقفاً ثقافة عالية . وخطب لنفسه عروساً من بنات جنسه ومن طبقته . وراح يعلل الآمال بمستقبل باسم وحياة هنيئة .

وقبل زواجه ترك فرنسا وذهب يريد زيارة البلاد الفلسطينية بقصد العبادة والتجارة والسياحة معاً . فمرَّ في طريقه بروما ونزل عند اناس من اصحابه التجار ممن كانوا يتعاملون معه في اشغاله وتجارته . فاستقبلوه على الرحب والسعة ، وكانوا من خيرة العائلات الايطالية الكاثوليكية الطيبة .

وكانت لتلك العائلة ابنة شابة كثيرة التدين ، جميلة التهذيب فاخذت على نفسها خدمة هذا الشاب والعناية به . ورأت منه اخلاقاً حلوة وآداباً عالية ، فاسفت اسفاً شديداً لما علمت انه يهودي . فاخذت تباحثه بلطف في امور الدين فتارة تمازحه ، واخرى تناظره بجد وتجادله . وكان هو يصغي اليها بلطف ، ولكن بشيء كثير من الريبة المستملحة والتهكم الظريف .

ونزل يوماً عند ارادتها فقبل منها ايقونة صغيرة للبتول العجائبية وعلقها في طيات ثيابه .

وراحت الابنة تصوم وتصلي وتتوسل الى البتول لكي تهدي هذا الشاب الطيب المهذب المستقيم الى الايمان المسيحي القديم .

وما هي ايام قلائل حتى دخل دي راتسبون يوماً احدى الكنائس الرومانية على سبيل الفرجة ، واخذ يطوف في انحائها وينظر الى بدائعها .

فوصل الى هيكل للبتول ووقف يتأمل في التمثال المنصوب فوقه وكان تام الشبه بالصورة المطبوعة على الايقونة التي كان يحملها . وما هي لحظة واذا بذلك التمثال يتحرك والبتول تنزل من عرشها ، وتقترب منه ، وتبسم له . وينتشر من حولها نور ساطع يملأ كل ما حوله ضياء وبهاء .

فانطرح على الارض مذهولاً مذعوراً . وشعر كأن كل جوارحه قد تغيّرت وتبدلت ، وكأنه قد صار انساناً ثانياً . وشعر بقوة لا تعاند تجتذب عقله وقلبه الى الديانة المسيحية . فآمن ووعد البتول مريم بان يتنصّر ، ويعتنق ديانة ابنها الحبيب .

وقام لساعته وذهب الى بيت صديقه وباح لهم بسره وبعزمه . فظنوه في بدء الامر يمازحهم ويضحك . ولكنه أكّد لهم ذلك ، وقص عليهم ما حدث له وما رأى ، وكيف رمقته البتول بعينها وظهرت له . فطربوا لذلك وهنأوه وكانت الشابة ابنتهم اكثر الجميع غبطة وحماسةً وتهليلاً .

وما لبث ان أتمّ ما وعد الله والبتول به . فتعلم امور الدين المسيحي واعتمد واصبح مسيحياً مؤمناً .

وكتب الى خطيبته فاعلمها بما جرى له وطلب اليها ان توافقه على ما عمل وتتبعه . لكنها رفضت . فتركا بعضهما .

فلما صفا له الجو وتحرر من قيود الخطوبة والزواج دخل احد الاديار ، وتعلم الدروس اللاهوتية ، وصار كاهناً . ثم اسس رهبانية للرجال واخرى للنساء لاجل العناية بالاحداث ولاسيا اليهود منهم .

اما النسائية فهي رهبانية راهبات صهيون Les Dames de Sion ولهن دير ومدرسة في مدينة القدس في المقام الذي قدّم فيه الوالي بيلاطس يسوع مكللاً بالشوك ومخضباً بالدم لجموع اليهود الصاخبين وقال لهم : هوذا الرجل : Ecce Homo .

ورهبانية الرجال تدعى رهبانية مار بطرس ولهم ايضاً دير عظيم ومدرسة للايتام على شرفة عالية من ضواحي القدس .

عظمة الخالق

« ما اعظم اعمالك يا رب كلها بحكمة صنعت »[1].

ان عظمة الخالق تتجلى في كل ذرة ، وفي كل ظاهرة ، وفي كل موجود من هذا الكون . الا انها تظهر بنوع اروع ، نقف امامه حيارى وقد اخذتنا الدهشة والانذهال امام النجوم والكواكب التي تتلألأ فوق رؤوسنا ، مما نراه باعيننا في سماء صافية ، ومما لا نراه الا بالمنظارات العظيمة المعلّقة في قباب المراصد الفلكية .

ان الانسان لا يستطيع ان يرى بالعين المجردة اكثر من ستة آلاف نجم اذا كان جو الليل غاية في الصفاء . اما في رحاب الفضاء فان علم الفلك يقول بوجود ملايين من المجموعات الكونيّة التي هي على شاكلة مجموعتنا الشمسية ، بل تفوقها عظمة بشموسها وكواكبها وسياراتها ونظام دورانها .

ان الضوء يسير بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية ومع ذلك فانه يوجد مجموعات شمسية تبعد عنا ٣٠ الف سنة ضوئية تقريباً .

حدثتنا الرحالة موريس ماركي[2] انه صعد الى المرصد القائم على جبل ولسون في كاليفورنيا ، قال : وجدت في هذا المرصد اكبر منظار في العالم وانك لترى من انبوبة هذا المنظار الجبار الف مليون نجم . وكان يرافقني

(١) مزمور ١٠٣ (٢) مجلة « المختار » عدد ايلول ١٩٤٧ ، ص ٥ - ٩

في مشاهداتي احد علماء المرصد . فحرك الانبوب الكبير الذي يحمل المرآة العظيمة فرأيت سديماً هائلاً يشبه مجموعتنا الشمسية ، وقد صدر من شمسه ضوء منذ مليون سنة ، وهو لا يزال يقطع الفضاء ولم يصل بعد الى ارضنا رغم سرعة الضوء الهائلة .

وفي الفضاء سُدُم لا تحصى على شاكلة هذا السديم ، بل قل ملايين من الاكوان ، واكثرها اضخم من كوننا ، ومنها ما يسير بسرعة عشرة آلاف ميل في الثانية ، ويبلغ قطرها مئتي مليون ميل بل اكثر ، اي ان قطرها يفوق بُعد الشمس عن الارض ضعفين ويزيد .

وادار الانبوب مرة اخرى فاذا في زجاجته ضوء لامع متوهج ، وهو ضوء طائفة جميلة من الدقائق الصغيرة تتلألأ كانها مئات من حجارة ماس منثورة على بساط من المخمل الاسود . فقال العالم الفلكي : هذا عنقود النجم الكبير وهو يبعد عنا ثلاثين الف سنة ضوئية تقريباً .

وفي المرصد خمسة او ستة من العلماء ينفقون حياتهم كلها في دراسة الشمس . ويظهر ان البقع التي على سطحها تزيد وتنقص وتذهب وتعود بانتظام فتحدث في جو الارض اضطرابات كهربائية مغنطيسية عنيفة فتضطرب امواج الراديو واسلاك البرق وتؤثر في حالة الجو . ولقد يتمكن العلماء في المستقبل القريب من معرفة حالة الجو قبل وقوعها بكثير ، من دراسة نشاط البقع الشمسية .

وادار العالم المنظار فرأيت خوخة عظيمة ذهبية كدت ألمسها بيدي . فقال : هذه هي الزُّهرة اقرب الكواكب السيارة الى الارض ، وجوها يشبه جوها ، وربما شاعت فيها الحياة كما على الارض .

ثم نظرت فرأيت اروع المشاهد : رأيت زحل ، زحل البرتقالية اللون مع حلقاتها الثلاث المحيطة بها ، وهي كالعروس المزيّنة السابحة في الفضاء

تزهو بحسنها ولمعانها واساورها وحلاها .

ثم قلت للعالم رفيقي : هل لي ان ارى « يد الجوزاء » ؟ فضبط المنظار ووجد النجم فاذا هو مليون شمس في شمس واحدة ، او هو غبار من الشموس . ففهمت اذ ذاك ما قاله العالم جينز : ان عدد النجوم يساوي عدد الرمال التي على شواطئ البحور .

فلما هبطت من قمة الجبل بدت لي المدينة اصغر شأناً واقلّ وقعاً في النفس . واحسست ان مركبات الترام ودور السينما والمباني الشاهقة ليست سوى لعب اطفال . وشعرت بالضعة تملأ نفسي من بعد نظري الى تلك الاجرام الهائلة الهادرة في رحاب الفضاء وهي تنطق بعظمة رب السماء .

« السموات تذيع مجد الله ، والفلك يخبر باعمال يديه » .

الفصل الثاني

في فضيلة الرجاء

١ بالرجاء. — الرجاء هو فضيلة الهية بها نصبو الى التمتع بالله لكونه هو تعالى سعادتنا الكاملة، مع الامل الوطيد بان نحظى بهذه السعادة الابدية وبان ننال النعم الكافية التي توصلنا اليها؛ وذلك اعتماداً منا على حنان الله وقدرته تعالى ومواعيده الالهية.

فالرجاء المسيحي هو حقاً فضيلة الهية، لاننا به نريد الله ونرغب في التمتع به في ملكوته، ونأمل من رحمته ما وعدنا به من النعم لنصل الى هذه الغاية الشريفة الفائقة الطبيعة التي دعانا اليها.

ان الرجاء هو من الاميال النفسية، وهو ايضاً عاطفة انسانية؛ لاننا به نصبو الى ما نراه خيراً لنا، ونرغب في الحصول عليه، ونقتحم ما يعترضنا من المصاعب طمعاً بالوصول اليه، مع الامل باننا سوف نفوز به. وهذه العاطفة وهذه الرغبة هي التي تكيّف اعمالنا وحياتنا كلها. لان رغائب الانسان هي التي تدفعه في مختلف الاتجاهات في حياته، سواء كان ملكاً جالساً على عرشه، او فلاحاً مكباً على محراثه. فان ما يؤمله الانسان

من الخير، او ما يظنه الخير، يحمله على بذل كل ما لديه من فكر وقوة وصحة ووقت في سبيل الوصول اليه؛ فيتجشم لاجله المصاعب، ويتحمل الشدائد، ويجاهد ويخاطر ويسهر ويسافر، غير مبالٍ بما يناله من تعب او نصب ليصل الى ما يطمع بالحصول عليه، والتمتع بهِ.

والرجاء المسيحي يحمل على مثل هذا بعينه. لان الانسان المسيحي الحقيقي يعلم بالايمان ان خيره الاسمى هو الله، وان سعادته القصوى الحقة هي التمتع به في ملكوته. لذلك فهو ينكر كل شيء من نعيم هذه الدنيا، ويعاف كل سعادة زمنية، في سبيل الحصول على السعادة الالهية الابدية. واذ يرى المصاعب تعترضه في طريقه، وقواه الذاتية دون ان تمكنه من الوصول الى ما يشتهيه، يعمد الى الصلاة، ويتوسل الى الله لكي يمدّه بعونه الالهي، فينتصر على الشدائد، واثقاً بان الله الذي دعاه الى هذه السعادة السماوية ووعده بها لا يبخل عليه بما يقوده ويوصله اليها. فقوام الرجاء المسيحي هو هذا الامل، الامل بالنعيم السماوي وبالوسائل الالهية الفائقة الطبيعة التي تمكّن من الوصول اليه.

٢ كيف تقدس فضيلة الرجاء نفوسنا. — ان فضيلة الرجاء تقدس نفوسنا بانواع ثلاثة:

اولاً – بان تنزهنا عن الارضيات ، وتجعلنا ننظر الى الله ونصبو الى السماويات .

ثانياً – بان تحملنا على ان نبتهل اليه تعالى بحرارة ومحبة وثقة لكي يجود علينا بالنعيم الابدي في الحياة الاخرى ، وبالنعم التي توصل اليه في هذه الحياة الدنيا .

ثالثاً – بان تدعونا الى ممارسة الفضائل المسيحية رغبة منا في الحصول على سعادة الملكوت الابدية .

ان الانسان ميّال بطبيعته الى السعادة ، وهو مدفوع بفطرته الى طلبها . لذلك يجدُّ في اثرها ، ويظل يغذي آماله في الحصول عليها مهما كلّفه الامر للظفر بها من مشقة وعناء ، وطول وقت ، وبعد مسافة ، واسهار واسفار . ولما كانت الدنيا هي التي تبدو امام عينيه بنعيمها وخيراتها ، وملذاتها وجاهها وكبريائها ، فان طبيعته الضعيفة تندفع نحوها اندفاعاً ، املاً منها بالظفر بها والتمتع بغبطتها . وهنا يبدأ الصراع في قلب الانسان ما بين طلبه لسعادة السماء وطلب سعادة الارض . فتنزل فضيلة الرجاء الى الميدان وتعمل عملها ، فتريه على ضوء الايمان انه شتان ما بين السعادتين ، وان سعادة السماء هي الصحيحة الدائمة الابدية ، وان سعادة الارض هي الحقيرة الوقتية الزائلة ؛ وان الله وحده هو الذي يمكنه ان يشبع نفوسنا ويروي غليل قلوبنا . وما اصدق

ما قال في ذلك إمام فلاسفة النصرانية القديس اغسطينوس : « انك ايها الرب الاله خلقت قلوبنا لاجلك ، لذلك هي تبقى حائرة الى ان ترتاح بك » . اما خيرات الدنيا فانها مهما كثرت ومهما كملت تبقى ناقصة ، ولا يمكنها ان تشبع نَهَمَ قلوبنا . ولذتها ممزوجة ابداً بشيء من المرارة ؛ وهي ان دامت يوماً فلا تدوم كل يوم . من هو الانسان الذي يستطيع ان يقول انه سَعِدَ في هذه الدنيا ، وانه شبع حقاً من نعيمها . وما اوقع في النفس ما كتبه في ذلك القديس يوحنا الدمشقي اذ يقول : « اي نعيم في الدنيا يستمرُّ خالصاً من الحزن ، او اي مجد يثبت على الارض من غير تحوُّل . جميع ما فوقها اوهى من ظل ، جميعه اخدع من منام . وما هي الَّا لحظة واحدة حتى تصبح كل هذه الموجودات في قبضة الموت » [1] . وقد قال الشاعر :

لكل شيء اذا ما تم نقصانُ فلا يُغرَّ بطيب العيش انسانُ
هي الامور كما شاهدتها دول مَن سَرَّهُ زمن ساءته ازمان
وهذه الدنيا لا تبقي على احد ولا يدوم على حال لها شان

فبالرجاء المسيحي يزدري الانسان الارضيات ويصبو الى السماويات ، ويتوق الى الاتحاد بالرب الى الابد ، وبذلك يتقدم في الفضيلة والنعمة ويتقدس .

(١) من صلوات الجناز .

ان فضيلة الرجاء تقدس ايضاً نفوسنا لانها تحملنا على الصلاة الحارة وعلى الابتهال المتواصل الى الرب لكي يمنحنا النعم التي توصلنا الى ملكوته والتمتع به. فيسارع الرب الى معونتنا، ويفيض نعمه في قلوبنا، فتنتعش افئدتنا وتتقدس نفوسنا.

وهذا ما جعل الكتاب المقدس يدعونا الى الرجاء بمراحم الله ومعوناته في كل صفحة من صفحاته: «انظروا الى الاجيال القديمة وتأملوا هل توكل احد على الرب فخزي، او ثبت على مخافته فخذل، او دعاه فأهمل. فان الرب رؤوف رحيم يغفر الخطايا ويخلص في يوم الضيق»[1].

والانجيل يفيض بكلام الرب يسوع داعياً البشرية جمعاء الى الرجاء: «الحق الحق اقول لكم ان كل ما تسألون الآب باسمي يعطيكم»[2]. وايضاً: «اي انسان منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً، او اذا سأله سمكة يعطيه حية. فاذا كنتم انتم الاشرار تعرفون ان تمنحوا العطايا الصالحة لابنائكم فكم بالحري ابوكم الذي في السماوات يمنح الصالحات لمن يسأله»[3].

ان رجاءنا بالله وبتصديق مواعيده وبفائق قدرته يسرّه تعالى أيما سرور، ويبعثه على افاضة انواره وهباتهِ علينا بلا حساب. أليس انه هكذا عمل مع الاعمى في اريحا، ومع

(١) سيراخ ٢ : ١١ و ١٢ (٢) يوحنا ١٦ : ٢٨ (٣) متى ٧ : ٩ - ١١

البرص العشرة ، ومع نازفة الدم ، ومع رئيس المجمع ، ومع قائد المئه ، وغيرهم وغيرهم .

الرجاء يقدس ايضاً نفوسنا لانه يحملنا على مباشرة اعمال كثيرة في سبيل الحصول على سعادة الملكوت . لان رغبتنا في الله وفي التمتع بهِ مدى الابدية تجعلنا نبذل الجهود الصادقة في هذا السبيل مدى الحياة ، ونقتحم المصاعب الشديدة ، طمعاً في الوصول الى هذه السعادة الخالدة . لاننا اذا ما عرفنا بالايمان عظم النعيم الذي وعدنا الرب به ، ومقداره ودوامه ، لا نتردد في بذل كل غال ورخيص في سبيل الحصول عليه . قال الرب : « يشبه ملكوت السماوات رجلًا تاجراً يطلب لآلئ حسنة ؛ فوجد لؤلؤة كثيرة الثمن فمضى وباع كل ماله واشتراها » [(١)] . وهكذا لا يكون المسيحي في طلب الآخرة اقل جرأةً واقداماً وجهوداً من اولئك الذين في سبيل خيرات ارضية وسعادة وهمية زمنية لا يهابون المصاعب ، ولا يهربون امام المشقات والاخطار والاسهار والاسفار ، سعياً وراء مال او جاه او وظيفة او علم او عشق او صحة . « وكل من يجاهد يمسك نفسه عن كل شيء . . اما اولئك فلينالوا اكليلًا يفنى ، واما نحن فإكليلًا لا يفنى » [(٢)] .

٣ كيف يمارس المسيحيون فضيلة الرجاء . — اننا نثبت قلوبنا

(١) متى ١٣ : ٤٥ — ٤٧ (٢) ١ كور ٩ : ٢٥

في الرجاء ونقوي نفوسنا فيه بتأملنا بمواعيد الرب، وبما كتبه الرسل والآباء القديسون عنه. فما ابدع ما قاله بولس الرسول: «اذا كان الله معنا فمن علينا! الذي لم يشفق على ابنهِ بل اسلمه عن جميعنا كيف لا يهبنا ايضاً معه كل شيء.. من يشكو مختاري الله! الله هو المبرر. فمن يقضي علينا! المسيح هو الذي مات بل قام ايضاً وهو عن يمين الله وهو يشفع ايضاً فينا. فمن يفصلنا عن محبة المسيح! اشدة ام ضيق ام جوع ام عري ام خطر ام اضطهاد ام سيف...» (١). وما ادعى الى الرجاء ما قاله الرب في ليلة مبارحته هذه الدنيا: «لا تضطرب قلوبكم، انتم تؤمنون بالله فآمنوا بي ايضاً. ان في بيت ابي منازل كثيرة والّا لقلت لكم فاني منطلق لأعدَّ لكم مكاناً. واذا انطلقت واعددت لكم مكاناً آتي وآخذكم لتكونوا انتم حيث اكون انا... فكل ما تسألون الآب باسمي فانا افعله ليتمجد الآب في الابن... كما احبني الآب كذلك انا احببتكم... سميتكم احبائي لأني اعلمتكم بكل ما سمعت من ابي... الحق الحق اقول لكم ان كل ما تسألون الآب باسمي يعطيكموه» (٢).

الا ان الله لا يريد ان يخلصنا وان يوصلنا الى سعادة الملكوت بدوننا وبدون جهودنا وعملنا: «فإنّا نحن عاملون مع

(١) رومية ٨: ٣١ – ٣٥ (٢) يوحنا ١٦: ١ – ٣و١٣، ١٥: ٩و١٥، ١٦: ٢٣

الله »[١]. لا ريب في ان الله هو اصل كل خير، وانه هو المفيض لكل نعمة، واننا بدونه لا نقدر ان نعمل شيئاً. ولكن لا بد لنا من مشاركته في عمل خلاصنا بمحض ارادتنا وتمام حريتنا وصدق جهودنا. وفي هذا قال بولس الرسول:

« لكني بنعمة الله صرت على ما انا عليه. ونعمته التي فيَّ لم تكن باطلة بل تعبت اكثر من جميعهم. ولكن لا انا بل نعمة الله معي »[٢].

وايضاً: « وبما انا معاونون نسألكم ان لا يكون قبولكم نعمة الله في الباطل ... بل نظهر في كل شيء انفسنا كخدام الله في الصبر الكثير والمضايق والضرورات والمشقات »[٣].

وكتب ايضاً الى تلميذه تيموتاوس: « احتمل المشقات كجندي صالح للمسيح يسوع »[٤].

والقديس بطرس يعلم بوضوح تام ويقول: « ايها الاخوة اجتهدوا بالاحرى ان تجعلوا دعوتكم وانتخابكم ثابتين بالاعمال الصالحة »[٥].

لاجل ذلك فان المبتدئين في الحياة الروحية يمارسون فضيلة الرجاء اولاً بحذرهم من الطمع برحمة الله ومن اليأس ايضا

(١) ١ كورنثس ٣: ٩ (٢) ١ كورنثس ١٥: ١٠ (٣) ٢ كورنثس ٦: ١و٤
(٤) ٢ تيموتاوس ٢: ٣ (٥) ٢ بطرس ١: ١٠

من رحمته تعالى .

فالطمع برحمة الله يحمل بعض الناس على الاتكال على مراحم الله اتكالاً كسولاً ، بل اتكالاً اثياً . فانهم يهملون حفظ الوصايا ، ويذهبون وراء الدنيا ، وينسون واجبات العبادة ، ويقولون ان الله رحيم غفور ، فيصفح عنهم ولا يهلكهم . او انهم يتكلون على قوتهم وتقواهم فيتعرضون للمخاطر ، ولا يكترثون لها ، وينسون ان من تعرض للخطر وقع فيه . اليس هذا كلام الرب : « اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة »[1] ؟ والرسول بولس يوصي ايضاً ويقول : « اعملوا لخلاصكم بخوف ورعدة »[2] .

امـا اليأس من رحمة الله فهو مرض النفوس الموسوسة والقلوب الضعيفة التي اما لكثرة سقوطها في الخطايا ، او لأجل شدة واستمرار تجاربها ، او بسماح من الباري لاجل افتقادها وتبريرها ، او بسبب الارشادات الضيقة التي تسمعها ، تضطرب وتتبلبل وتقطع رجاءها من خلاصها . ومنها من ترمي حينئذٍ سلاحها ، وتستسلم لأهوائها ، وتنغمس في معاصيها ظناً منها انها تسكت بذلك صوت ضميرها الذي يعذبها . فاليأس هو اخطر تجربة يهاجمنا الشيطان بها ليهدم اساس الحياة الروحية في نفوسنا . فعلينا ان نطالع الاناجيل المقدسة ورسائل القديس بولس و كتب

(١) مرقس ١٤ : ٣٨ (٢) فيلبي ٢ : ١٢

المعلمين الروحيين ، فهي تنعش فينا روح التقوى والنشاط والرجاء : « كونوا انتم ايضاً متسعين » ، يقول القديس بولس[١].

فبعد ان يكون المبتدئون في الحياة الروحية قد اخذوا حذرهم من هذه النقائص ، وتحرروا من شرها ، فلكي يقوُّوا فيهم فضيلة الرجاء ويتقدسوا بها ، لا بد لهم من ان يمرنوا ذواتهم بواسطة التأمل والصلاة على الزهد بالدنيا وكبح جماحهم عن السعي وراء خيراتها ونعيمها ، لكي تصبو قلوبهم الى السعادة السماوية والخيرات الابدية : « اذن ان كنتم قد قمتم مع المسيح فابتغوا ما هو فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله . افطنوا لما هو فوق لا لما هو على الارض »[٢].

اما المتقدمون في الحياة الروحية فانهم يمارسون ليس افعال الرجاء فحسب بل تكون لهم بالله ثقة بنوية يغذُّونها في قلوبهم بتأملهم في مواعظ ومواعيد وافعال السيد المسيح . فيرون ان يسوع تألم ومات على خشبة لكي يفتدينا وينال لنا من ابيه السماوي غفران خطايانا ، ويفتح ابواب الملكوت امامنا ؛ وانه ترك لنا جسده ودمه قوتاً وهناء لنفوسنا وقلوبنا ؛ وانه هو رأسنا ورئيسنا واخونا وصديقنا ؛ واننا بنعمته التي وعدنا بها ننتصر على

(١) ٢ كورنثس ٦ : ١٣ (٢) كولسي ٣ : ١ و ٢

اعداء خلاصنا ؛ وان محبته التي احبنا بها لا حد لها . « وكذلك الروح ايضاً يعضد ضعفنا . فإنّا لا نعلم ماذا نصلي كما ينبغي . ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنّات لا توصف . . . ونحن نعلم ان الذين يحبون الله كل شيء يعاونهم للخير . . . فان الذين سبق فعرفهم سبق فحدّدَ ان يكونوا مشابهين لصورة ابنه حتى يكون بكراً ما بين اخوة كثيرين »[1] . لاجل ذلك فاننا نرجو معونة الله ونعمه وتحقيق مواعيده بعاطفة بنوية وقلب مطمئن مهما اشتدت علينا وطأة المعاكسات ، وثارت في وجهنا زوابع الشدائد . لاننا نعلم ان الله هو معنا ، يرثي لضعفنا ، ويشدّ ازرنا ، ويسر بانتصارنا على شدائدنا ، ويحفظ لنا في السماوات كنوزنا واجورنا . فهل من باعث لنا على الثقة بالله اقوى من كلام الرب في الانجيل : « اي انسان منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً »[2] ؟

والقديس منصور دي بول كان يقول لرهبانه : « حينما تثور الارض كلها علينا لتهلكنا فلا يمكن ان ينالنا منها الّا ما يسمح به الله الذي وضعنا عليه اتكالنا » . وكان اذا ما اصابهم ضر او حلّت بهم مصيبة يقول ايضاً : « ان كل ما يفعله الله يفعله لاجل خيرنا الاكبر . لذلك يجب ان نضع فيه ثقتنا كلها موقنين

(١) رومية ٨ : ٢٦ — ٢٩ (٢) متى ٧ : ٩

بان هذه المصيبة ستكون لخيرنا لان الله هو الذي سمح بها »[١] .

وهذه الثقة البنوية بالله تحمل النفوس التقية على استمرار اعتصامها بالله حتى في ايام النجاح والتوفيق واقبال الدنيا عليها بانواع الخيرات والمسرات . لانها تعلم ان السرور غرور ، وانه اشد خطراً عليها من شدائدها . لان الراحة والطمأنينة تبعث مراراً على الفتور في العبادة ، وعلى نسيان الخيرات الابدية ، وعلى الزهو والكبرياء والاعتداد بالنفس . وما أحقّ ما قال في هذا المعنى المنسنيور دولست : « عندما تبسم الدنيا لآمالنا الارضية ورغائبنا الزمنية يصعب علينا ان نفلت من عناق المسرات اذ تأتينا وتحلُّ في بيتنا وفي قلبنا ؛ يصعب علينا ان نقول للسعادة المرفرفة فوق رؤوسنا : انكِ لا تكفيني ولا تشبعيني »[٢] . فالنفوس التقية لا تنسى ان افراح هذه الدنيا غرور ، وانها تعيقنا في صعودنا الى العلى . « باطل الاباطيل كل شيء باطل »[٣] . ما خلا عبادة الله وخدمته . وكتاب الاقتداء بالمسيح يقول : « الاقامة بدون يسوع هي جحيم شديدة ؛ والسكنى مع يسوع هي نعيم لذيذ »[٤] .

والمسيحي التقي الحقيقي لا يحزن ولا ييأس من نقائصه ،

---

(1) Maynard: *Vie et doctrine* (2) Mgr. d'Hulst: *Carême 1892.*

(٣) الجامعة ١ : ١ (٤) الاقتداء بالمسيح : س٢ ، ف ٨ ، ع٢ .

ولا من هفواته ، حتى ولا من ذنوبه ، لانها تكون له سبب تواضع وندامة وثقة اعظم براحم الله وحنانه .

« ماذا تظنون ؟ اذا كان احد له مئة خروف ، فضلَّ واحد منها ، افلا يترك التسعة والتسعين في الجبال ، ويمضي في طلب الضال ؟ فاذا وجده ، الحق اقول لكم ، انه يفرح به اكثر من التسعة والتسعين التي لم تضل . هكذا ليس من مشيئة ابي الذي في السماوات ان يهلك احد من هؤلاء الصغار »[١] .

« حينئذٍ دنا اليه بطرس وقال له : يا رب كم مرةً يخطأ إليَّ اخي فأغفر له ، أإلى سبع مرات ؟ فقال له يسوع : لا اقول لك الى سبع مرات ، بل الى سبعين مرة سبع مرات »[٢] .

« اقول لكم انه يكون في السماء فرح بخاطئ واحد يتوب اكثر مما يكون بتسعة وتسعين صدّيقاً لا يحتاجون الى التوبة »[٣] .

وفي هذا المعنى كتب القديس منصور دي بول يقول لرهبانه : « انكم تذكرون لي نقائصكم ؛ فهل يخلو يا ترى احد من النقائص في هذه الدنيا ؟ أما الشيء المهم فهو ان نعرفها وان نرضى بما تسببه لنا من الاذلال ، كما تصنعون انتم . انما علينا ان لا نقف امامها لنتأمل بها إلّا لنزداد ثقة بالله بسببها ، فنكون

(١) متى ١٨ : ١٢ – ١٤ (٢) متى ١٨ ، ٢١ و ٢٢ (٣) لوقا ١٥ : ٧

حينئذٍ قد بنينا على الصخر ، فلا نخاف من الزوابع »[1] .

اخيراً ان رجاءنا بالله وثقتنا براحمه تحملنا على الصلاة الحارة اليومية في طلب الميتة الصالحة : « يا قديسة مريم ، يا والدة الله ، صلي لاجلنا نحن الخطأة الآن وفي ساعة موتنا » . وكم مرة يطلب الكاهن كل يوم من اجله ومن اجل الشعب قائلاً : « نهاية حياتنا مسيحية سلامية بلا وجع وبغير خزي ، وجواباً حسناً لدى المنبر الرهيب من الرب نسأل » .

فالصلاة هي مجلبة النعم . ولا يمكن ان نبتهل بها الى الله ، ولاسيا بشفاعة ابنه الحبيب ووالدته الطاهرة وملائكته وقديسيه ، الا ويمنحنا بجود ومحبة ما نطلبه ، وعلى الاخص هذه النعمة العظيمة ، نعمة الخلاص الابدي والتمتع به في ملكوته على حسب ارادته ودعوته .

(1) Maynard; *Vie et doctrine*.

﴿ حوادث تاريخية ﴾

طوبيا البار [1]

ان سيرة طوبيا البار وابنه طوبيا الصغير لهي من اروع الحوادث التاريخية التي تحملنا على الثقة بالله وبرحمته وبصدق مواعيده .

لقد دعي طوبيا بالبار لصلاحه وتقواه وتمسكه بشريعة الرب الهه . كان من الجليل، من مملكة اسرائيل المعادية لمملكة اورشليم. ولما كان الكثيرون من مواطنيه يعبدون عجول الذهب التي اقامها ياربعام وخلفاؤه لهم منعاً لذهابهم الى هيكل سليمان، كان طوبيا يتخلف عنهم ويذهب يعبد الله في اورشليم.

ولما سبى الملك شلمناصر اعالي مملكة اسرائيل الى نينوى سنة ٧١٨ قبل المسيح جُلي ايضاً طوبيا مع امرأته وولده . الا انه حتى في بلاد الغربة وبين الشعوب الوثنية بقي ينزّه نفسه ليس عن النجاسات الشرعية فحسب ، بل عن كل ما تحرمه ايضاً شريعة الله من المآثم والمعاصي .

ومات شلمناصر وملك ابنه سنحاريب مكانه. فقام هذا يضطهد اليهود ويذلهم ويقتلهم ويمنع دفنهم لكي تأكل الوحوش اجسامهم . اما طوبيا فكان يطوف كل يوم على مواطنيه وابناء عشيرته يعزيهم ويؤاسي كل واحد منهم ويساعد الفقير من امواله على قدر وسعه . فيطعم الجياع ويكسو العراة ويدفن الموتى والقتلى مخاطراً بحياته في سبيل ايمانه .

ورغم هذا كله ، او لاجل هذا ، امتحنه الرب ببلوى شديدة . فافقده بصره . « وانما أَذِنَ الرب ان تعرض له هذه التجربة لتكون لمن بعده قدوة صبره كايوب الصديق . فإنه اذ كان لا ينفك عن تقوى الله

---

(١) راجع سفر طوبيا.

منذ صغره وحافظاً لوصاياه، لم يكن يتذمر على الله لما ناله من بلوى العمى . ولكنه ثبت في خوف الله شاكراً له طول ايام حياته . وكما كان القديس ايوب يعيّره الملوك كان انسباء هذا وذووه يسخرون من عيشته قائلين : اين رجاؤك الذي من اجله كنت تبذل الصدقات وتدفن الموتى . فيزجرهم طوبيا قائلاً : لا تتكلموا كذا فاننا نحن بنو القديسين ، واننا ننتظر تلك الحياة التي يهبها الله للذين لا يصرفون ايمانهم عنه ابداً » .

ولم يخزِ الله رجاء طوبيا ؛ فانه تعالى ارسل ملاكه فرافق ابنه الصغير في الطريق ، وسهّل له الزواج من سارة بنت رعوئيل واعاده الى والديه سالماً . وافاض الخيرات عليه وعلى ولده ، واعاد اليه بصره بعد ان بقي اعمى اربع سنوات ، ووهبه اثنتين واربعين سنة حياة من بعد تلك المحنة ، وأراه بني حفدته . « واذ بلغ من تقوى الله غاية حسنة انتقل بسلام »

ان الرجاء بالله لا يخيب .

رجاء القديسة تريزيا الطفل يسوع

تقول القديسة تريزيا الطفل يسوع في سيرة حياتها :

« لقد ترتفع نفسي الى الله بعاطفة الثقة والمحبة ، ليس لانها تنزهت عن الخطيئة المميتة . لأني اشعر في دواخلي باني ولو تراكمت فوق رأسي احمال ثقال من انواع الخطايا والمآثم ، لا افقد شيئاً من ثقتي بالله تعالى ورجائي . بل اقوم واذهب بقلب منكسر تائب وارتمي بين يدي يسوع المخلص . لأني

اعلم انه يحب الابن الشاطر. ولقد سمعت ما قاله المجدلية القديسة ، والمرأة الخاطئة ، والسامرية . كلا ثم كلا انه لا يمكن ان يخاف قلبي لاني اعلم علم اليقين ان هذه المعاصي كلها ، مهما تعددت، فانها تتلاشى كما تتبخر نقطة من الماء في اتون مضطرم ...

» آه يا امي الرئيسة لو ان النفوس الضعيفة الناقصة، كما هي نفسي، تشعر بما اشعر انا فاقد يستحيل عليها ان تستسلم للقنوط ، ولا يمكن ان تخاف من انه يعسر عليها الوصول الى قمة جبل الحب الالهي ، لعلمها بان يسوع لا يطالب اعمالاً فائقة ، بل مجرد الاتكال عليه والشكر لآلائه « [1] .

« ننال من الله بمقدار ما نرجو »

(من كلامها)

(١) سيرة حياتها فصل ١١

الفصل الثالث

في فضيلة المحبة

هي اسمى الفضائل كلها، واعظمهن مقاماً، واشرفهن عاطفة، واعذبهن غبطة. ويقول في ذلك بولس الرسول: «الذي يثبت الآن هو الايمان والرجاء والمحبة، هذه الثلاثة واعظمهن المحبة»[1]. ذلك لان «الله محبة»[2]، ولان «الحب هو اقوى من الموت»[3].

فالمحبة هي فضيلة إلهية تجعلنا نحب الله فوق كل شيء محبةً له تعالى لاجل جميل صفاته وكمالاته.

الحب هو اندفاع النفس نحو ما تراه خيراً لها وملائماً لأميالها. فهو اساس حياة الانسان في هذه الدنيا، كما انه محور الغبطة الالهية.

والحب في الانسان، أنواع منوعة. فهو حسّي اذا وجد الانسان هوىً في نفسه نحو شيء مادي محسوس من غير ان يكون له في هذا الهوى عمل ارادة او رضى. وهذا ما نراه كل يوم في الدنيا من حب الانسان للانسان لمجرد النظر اليه، او سماع

---

(١) ١ كور ١٣ : ١٣ (٢) ١ يوحنا ٤ : ١٦ (٣) نشيد ٨ : ٦

رنّة صوته ، من غير ان يكون للعقل او للارادة شأن في ميله او رغبته .

ويكون الحب عقلياً ادبياً اذا ما كان الاندفاع نحو الخير المرغوب فيه مؤسساً على العقل الذي يرى ويحكم بحسن هذا الشيء الذي يستحق ان نرغب فيه ونميل اليه . ولا شيء يحول دون ان يكون الحب حسياً وعقلياً معاً ، وذلك اذا اقترن الميل الطبيعي الفطري بالمنطق العقلي .

ويكون الحب روحياً سماوياً فائق الطبيعة عندما يكون الايمان المسيحي مسبّباً له وداعياً اليه . هكذا يكون شأن المسيحي الذي يحب الله لانه يعرف بالايمان انه كلي الكمال ، وانه احبنا ويحبنا على الدوام ، وانه اعطانا ابنه الوحيد لكي يخلصنا ، وانه اوصانا بمحبة قريبنا حباً له تعالى ؛ فهذا الحب الناشئ عن الايمان ، والمكيّف بالنعمة الالهية هو الحب المسيحي السماوي الفائق الطبيعة ، وهو الذي كُتبت له الاجور السماوية في الحياة الابدية .

فموضوع الحب المسيحي هو الله اولاً ، وهو القريب ايضاً لاجل الله ومحبةً لله . فنحبه تعالى لاجل كمالاته التي لا حد لها ؛ ومن هذه الكمالات محبته الفائقة لنا ، وعطفه علينا ، وجوده معنا . ونحب القريب ايضاً لا لاجل صفاته ومؤهلاته واموالـه ومحاسنه ، ولا لأجل قرابته لنا او مصلحتهِ معنا ، ولا لأجل ما

نجد فيه من منفعة ذاتية او من تحقيق منافع بشرية زمنية ، بل لاجل انه صنيعة الله وخليقته ، وابن العلي بالتبني ، واخو المسيح يسوع بالفداء ، وهيكل الروح القدس بالنعمة . فالحب المسيحي هو حقاً حبٌّ سماويٌ ، حبٌّ روحيٌ ، حبٌّ عقليٌ ، مجرَّدٌ عن المادة والحس والمنفعة والعاطفة .

وستتكلم عن كل من المحبة نحو الله ومن المحبة نحو القريب في البحثين التاليين .

البحث الاول

في محبة الله

١ بيانها . — ان موضوع المحبة المسيحية هو الله ، وهو الذي يجب علينا ان نحبه فوق كل شيء ، وان نفضله على كل شيء ، وان لا نرغب في شيء سواه الا بإذنه ولاجله .

ولكن لماذا يجب علينا ان نحب الله فوق كل شيء ؟ ما هو السبب المنطقي الحقيقي لذلك ؟ هل يا ترى لأنه هو امرنا بمحبته ؟ انه لو لم يأمرنا بها ، هل كان يسوغ لنا ان نحب شيئاً سواه اكثر منه ؟ هل كان يحقُّ لنا ان نفضِّل ذاتنا عليه ، او أن نحبَّ خيراً

او لذة او خليقة مهما كانت سامية اكثر منه ؟ ان السبب الاكبر الذي يحملنا على محبة الله، ويلزمنا بذلك الزاماً ، هو كمال الله وجمال الله وبهاء الله .

ان الكمال في كل شيء يسحر العقل ويثير الاعجاب . كمال النفس ، وكمال الجسد ، وكمال العقل ، وكمال الادب . فلما كان الله هو الكامل الاكبر ، « كونوا كاملين كما ان اباكم السماوي هو كامل »[1] : كامل في جماله ، كامل في قدرته ، كامل في حنانه ، كان لا بد له من ان يستهوي القلوب فتتعشقه . لان لا جمال يعادل جماله ، وليست صفاتُ وكمالاتُ كلِّ ما نراه ونسمع به في هذه الدنيا الا ظلًّا ضئيلًا لصفاته وكمالاته . لذلك وجب ان يكون هو الموضوع الاول لمحبتنا ولتفضيلنا اياه على كل ما سواه .

لاجل هذا قال الله : « أحبب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل قدرتك »[2] . اعني احبب ، ايها الانسان ، ربك والهك بكل قواك العقلية والجسدية ، ولا ترغب بخليقة سواه في حياتك وفي كل مطلب من مطالبك .

الا ان الحب الذي يطلب منا نحو الله ليس هو الحب العاطفي الحسي الذي نشعر احياناً بعذوبته ، وغالباً ما ينكرنا ويهجر

(١) متى ٥ : ٤٨ (٢) تثنية ٦ : ٥

قلوبنا ، ويتركنا في صحراء قاحلة لا ندى ينعشها ، ولا عاطفة تحلّيها . انما الحب الحقيقي هو الحب المنطقي ، الحب العملي ، الحب الصادر عن العقل والارادة ، الحب المؤسس على الايمان المسيحي ، الحب الذي يحملنا على خدمة الله وحفظ وصاياه مهما تقلّبت علينا ظروف الزمان والمكان ، ومهما انتابنا من عذوبة او يبوسة ، ومهما اصابنا في اعمالنا من نجاح او اخفاق .

ويشرح القديس فرنسيس السالسي هذا التعليم بقوله : « ان محبتنا لله يجب ان تسمو فينا على محبة كل ما هو سواه . ويجب ان تكيّف اميالنا . ان الله يريد منا ان يفوق حبنا له كل حب فينا لسواه . وان يكون هذا الحب مخلصاً عطوفاً ، وان يأخذ بمجامع قلبنا ، وان يمتلك علينا مشاعر نفسنا . يجب ان يكون هذا الحب عاماً فيشمل كل قوانا . وان يكون سامياً فيملأ عقلنا ، وان يكون كامل الثبات فيلزمنا للقيام به ان نبذل كل ما فينا من جهود وقوى » . ثم يختم القديس بهذه الصلاة البديعة : « انا لك يا الهي . ويجب عليَّ ان لا اكون الا لك وحدك . نفسي هي لك ويلزمها ان لا تحيا الّا لاجلك . ارادتي هي لك والواجب يقضي ان لا تحب شيئاً وان لا ترغب في شيء الّا لاجلك . ان حبي لنفسي هو ملك لك ويلزم ان لا يصبو الّا اليك . نعم انه لَفَرض عليَّ ان احبك لانك انت سبب وجودي ومنك خرجت .

واجب علي ان احبك لأنك انت غايتي وراحتي ، ومنك اتيت . واجب علي ان احبك اكثر من حبي لكياني ، لان كياني نفسه لا قوام له الّا بك . واجب عليَّ ان احبك اكثر من حبي لذاتي لان كل ما فيَّ هو ملك لك ، ولان حياتي هي منك » [1].

فموضوع المحبة اذاً هو الله ، الله فوق كل شيء ، وكل شيء لاجل الله . ولكن لما كان عقلنا ضعيفاً لفهم كمالاتهِ تعالى ، وقلبنا فاتراً ليشغف بجماله ، وحواسنا الجسدية تغالب قوانا العقلية فيعسر علينا مراراً ان نتذوق حلاوة بدائعهِ ، فإنَّ نَظَرَنا الى حنانهِ نحونا ، وتأمُّلنا باحسانهِ الينا يغذّي حبَّنا له ويُثبِّت تعلقنا بهِ . فنحبه لأجل احسانهِ ورحمتهِ وتعطفه وتنازله . الّا ان هذه الصفات الالهية التي نجد فيها منفعتنا يجب ان لا تكون الباعث الاكبر لنا على حبنا له وتفضيلنا اياه على ما سواه . بل علينا ان نملأ عقلنا من كمالاتهِ وقلبنا من بديع صفاتهِ لكي لا ننعم الا به ، ونزدري كل ما سواه لاجله . وليس في هذا شيء من الغرابة . أليس أنَّ القلب يعشق اصحاب العقول الفذة والقلوب الكبيرة . اليس انه يهوى من يجودون باموالهم او باتعابهم او باوقاتهم في سبيل المسكين والفقير والبائس واليتيم ، ولو لم ينلنا نحن من هؤلاء شيئاً لمنفعتنا ومصلحتنا ؟

(1) *Traité de l'amour de Dieu, L. X, ch. VI.*

ولكن هل يكون الشكر على الاحسان يا ترى محبة كاملة خالصة منزهة عن الغاية ؟ — نعم، ولا : فاذا كان شكرنا ناشئاً عن فرحنا بالاحسان تكون محبتنا ناقصة . اما اذا كان الشكر ثمرة الفرح بجود الله وحنانه ورحمتهِ وقدرتهِ فالشكر يكون حقاً محبة كاملة .

ان عاطفة الشكر تحمل عادة على المحبة الكاملة لانها عاطفة شريفة سامية ، ولا تنبت الّا في القلوب الكبيرة المؤسسة على التواضع وعلى العاطفة الصادقة المخلصة . لذلك نرى الكتاب المقدس والآباء القديسين لا يفتأون يذكّروننا بمراحم الله واحساناته نحونا ليُذكوا فينا عاطفة الشكر والمحبة نحو هذا المحسن الاكبر والجوّاد الاعظم . ولقد بلغت بعض النفوس التقية ذروة كمال المحبة بتأملها الدائم باحسانات الله نحو البشرية ونحوها ، وبكل ما فعله الرب يسوع في سبيلنا بتجسده وصليبهِ وقربانهِ وسائر الاسرار التي رسمها لاجل تقديسنا وتشريفنا واسعادنا .

وما ابدع ما جاء في كتاب الاقتداء بالمسيح [1] في موضوع تعلق النفس بالرب يسوع :

« يا نفسي استريحي دائماً في الرب فوق كل شيء وفي كل شيء لانه هو راحة القديسين الحقيقية . هبني يا يسوع المحبوب في

(١) السفر ٣ ، الفصل ٢١

الغاية ان استريح فيك فوق كل خليقة : فوق كل عاطفة وجمال ، فوق كل مجد و كرامة ، فوق كل جاه ومرتبة ، فوق كل علم وحذاقة ، فوق كل غنى وصناعة ، فوق كل فرح وبهجة ، فوق كل صيت ومديح ، فوق كل عذوبة وسلوان ، فوق كل رجاء وموعد ، فوق كل استحقاق وبغية ، فوق كل المواهب والعطايا التي تستطيع انت ان تمنحها وتفيضها ، فوق كل سرور وتهلّل يمكن ان يدركه العقل ويشعر بهِ . اخيراً فوق الملائكة ورؤساء الملائكة ، وفوق جميع جنود السماء . فوق كل ما يرى وما لا يرى . وفوق كل ما ليس هو اياك يا الهي » .

« لانك يا ربي والهي انت وحدك الصالح فوق كل شيء . انت وحدك العلي . انت وحدك القدير . انت وحدك الغني عن كل من سواك والواسع الجوّاد . انت وحدك الكلي العذوبة والسلوان . انت وحدك ذو الجمال والحب . انت وحدك المتعالي في الشرف والمتسامي في العزة والجلال . وفيك مجموع الخيرات وكمالها ، وهذا ما كان منذ الازل وسيكون الى الابد » .

٢ كيف تقدس فضيلة المحبة نفوسنا . — ان فضيلة المحبة هي اجمل الفضائل كلها واكثرها عملاً في تقديس نفوسنا . فبها الكمال المسيحي كله ، لأننا بها نمارس افعال الفضائل كلها . هذا ما اوضحه الرب في جوابهِ لأحد علماء الناموس لما قام مجرباً له قائلاً :

« يا معلم ماذا اعمل لأرث الحياة الابدية ؟ فقال له: ماذا كتب في الناموس و كيف تقرأ ؟ فاجاب وقال : احبب الرب الهك بكل قلبك و كل نفسك و كل قدرتك و كل ذهنك وقريبك كنفسك. فقال له بالصواب اجبت ؛ اعمل هذا فتحيا »[١] . ولقد جاء في انجيل متى ايضاً ان الناموس كله ، اعني الوصايا كلها تقوم في محبة الله ومحبة القريب : « فسأله واحد من علماء الناموس مجرباً له : يا معلم ما اعظم الوصايا في الناموس . قال له يسوع : احبب الرب الهك بكل قلبك وكل نفسك وكل ذهنك . هذه هي الوصية العظمى والاولى . والثانية التي تشبهها: احبب قريبك كنفسك . بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والانبياء »[٢] .

والقديس بولس يقول : « فانه من احب القريب فقد اتم الناموس . لان هذه الوصايا : لا تزنِ لا تقتل لا تسرق لا تشهد بالزور لا تشتهِ ، وما كان من الوصايا غير ذلك ، انما هي متضمنة في هذه الكلمة ان أحبب قريبك كنفسك . ان المحبة لا تصنع شرًا بالقريب فالمحبة اذاً هي الناموس بتمامهِ »[٣] .

وما ابدع ما كتب القديس يوحنا الحبيب ، رسول المحبة ، عن طبيعة ومفاعيل هذه الفضيلة الالهية السامية: « ايها الاحباء لنحب بعضنا بعضاً فان المحبة من الله . فكل من يحب فهو مولود

(١) لوقا ١٠: ٢٥ – ٢٨ (٢) متى ٢٢: ٣٥ – ٤٠ (٣) رومية ١٣: ٨ – ١٠

من الله وعارف به . ومن لا يحب فانه لا يعرف الله لان الله محبة . بهذا تتبين محبة الله لنا ان الله ارسل ابنه الوحيد الى العالم لنحيا به . وانما المحبة في هذا اننا لم نكن نحن احببنا الله بل هو احبنا فارسل ابنه كفارة عن خطايانا . ايها الاحباء ان كان الله قد أحبَّنا هكذا فعلينا نحن ايضاً أن نحب بعضنا بعضاً »[1] .

ثم يوضح الرسول معنى كلامهِ باجلى بيان فيقول : « فلنحبَّ الله نحن اذ قد احبنا هو اولاً . ان قال احد اني احب الله وهو مبغض لاخيه فهو كاذب، لان من لا يحب اخاه الذي يراه كيف يستطيع ان يحب الله الذي لا يراه »[2] . ثم ايضاً : « فبهذا نعلم أنا نحب ابناء الله بان نكون محبين لله وعاملين بوصاياه لان هذه هي محبة الله ان نحفظ وصاياه . ووصاياه ليست بثقيلة »[3] . وايضاً: « الله محبة . فمن ثبت في المحبة فقد ثبت في الله والله فيه »[4] .

فكلام الرسول يوحنا يدور كله حول كلام السيد المسيح الذي يعلم ان محبة الله تتم في حفظ الوصايا وفي محبة القريب . وبهذا يقوم الناموس كله ، كما يقول رب المجد ، وبهذا قيام الفضائل كلها ايضاً .

فالمحبة هي إمام الفضائل كلها وخلاصتها . فهي الاولى

---

(١) ١ يوحنا ٤ : ٧ — ١١ (٢) ١ يوحنا ٤ : ١٩

(٣) ١ يوحنا ٥ : ٢ — ٣ (٤) ١ يوحنا ٤ : ١٦

والاسمى والافعل في تقديس نفوسنا .

وليس الكتاب وحده يعلمنا ذلك ، بل المنطق العقلي ايضاً . اليس انه لا شيء افضل من الحب ؟ اليس ان الله نفسه هو محبة ؟ ومن شأن الحب ان يوحِّد العقول والقلوب بين المتحابّين . فتصبح افكارهم واحدة ، ورغائبهم واحدة ، ونزعاتهم واحدة ، وارادتهم واحدة . فمحبتنا لله تجعلنا ايضاً نتحد به فيصبح فكره فكرنا ، وارادته ارادتنا ، واحكامه نوراً لنفوسنا ، وانجيله وتعاليم كنيستهِ دستوراً لحياتنا وبهجة لقلوبنا وقوةً لأعمالنا : ليأتِ ملكوتك ، لتكن مشيئتك . فالمحبة هي اذن ملكة الفضائل كلها لانه ليس من فضيلة تجعل اتحادنا بالله كاملاً نظيرها .

ونعيد القول ثانية ان هذه المحبة ليست هي المحبة العاطفية الحسية ، تلك التي تحضر وتغيب ولا قرار لها في قلوبنا . بل هي المحبة القائمة بحفظ الوصايا بامانة وثبات وصبر وشجاعة .

وما محبة القريب الحقة سوى ثمرة محبتنا الصحيحة لله . لان محبتنا للقريب ، وخدمتنا له ، ومساعدتنا لضعفه ، واحترامنا لشخصه ولعائلته ولماله ، لا يكون لاجل صفاته او مؤهلاته او لأجل علاقته بنا ، او لما نجد فيه من منفعة لنا ؛ بل يكون ذلك لاجل الله ومحبة له تعالى وعملاً بأوامره . وهكذا تكون محبتنا للقريب مظهراً من مظاهر محبتنا لله . فتعلو وتسمو على سائر

الفضائل وتعمل اكثر منها على تقديس نفوسنا .

وهذا ما حمل بولس الرسول على كتابة ذلك الفصل الشائق في رسالتهِ الى اهل كورنتس ، وكله فلسفة وكله شعر فياض وعاطفة رائعة ، اذ يقول :

« لو كنت انطق بالسنة الناس والملائكة ولم تكن فيَّ المحبة ، فانما انا نحاس يطنّ او صنج يرنّ . ولو كانت لي النبوءة وكنت اعلم جميع الاسرار والعلم كله ، ولو كان لي الايمان كله حتى انقل الجبال ، ولم تكن فيَّ المحبة ، فلست بشيء . ولو بذلت جميع اموالي لإطعام المساكين واسلمت جسدي لأحرق ، ولم تكن فيَّ المحبة ، فلا انتفع شيئاً . المحبة تتأنى وترفق . المحبة لا تحسد ولا تتباهى ولا تنتفخ ولا تأتي قباحةً ولا تلتمس ما هو لها ولا تحتدّ ولا تظن السوء ولا تفرح بالظلم ، بل تفرح بالحق وتحتمل كل شيء وتصدق كل شيء وترجو كل شيء وتصبر على كل شيء . المحبة لا تسقط ابداً »[1] .

وان ما لفضيلة المحبة من نتائج رائعة يساعدنا كثيراً على زيادة النعمة والقداسة في نفوسنا .

فالمحبة لا توحِّد القلوب فقط ، بل تجعل بينها شعوراً متبادلاً من التفاهم والتقارب والارتباط ، بحيث ان الصديق يشعر

(١) ١ كورنتس ١٣ : ١ – ٨

شعوراً داخلياً بما يجول في قلب صديقه من عاطفة اوميل او رغبة. لذلك نرى في حياة القديسين بعضاً منهم كان يجهل العلوم البشرية ولكن يعرف الى احد بعيد اسرار العلوم الروحية وطريقة ارشاد النفوس اليها. هكذا كان كاهن قرية ارس القديس يوحنا ماري فياني، وهكذا كان الكثيرون من القديسين الرهبان والنساك. لان محبتهم لله، وتعلقهم به تعالى، واتحاد افكارهم بافكاره وعواطفهم بعواطفه قد علمتهم ما لا تستطيع الأساتذة والمدارس ان تفهمهم اياه. ان التأمل اليومي امام الصليب لهو من ارفع واسمى الدروس الدينية والاجتماعية. «شتان ما بين حكمة الرجل العابد المستنير وبين علم الاكليريكي الفقيه المكب على الدرس والمطالعة: فان العلم الصادر من فوق من لدن الفيض الالهي هو افضل من المكتسب بجهد العقل البشري»[١].

ثم ان المحبة اذ تتأصل في القلب تضاعف قواه، وتحمله على العظائم، وتجعله يستهين بالمصاعب. لان «الحب هو قوي كالموت»[٢].

ومن شأن الحب ايضاً ان يبعث في القلب نشوة غبطة وارتياح. فمحبتنا لله تنشئ فينا حتى ونحن على الارض شعور بهجة داخلية صادقة لا يشوبها كدر ارضي. نشعر بسلام

(١) الاقتداء بالمسيح: س ٣، فصل ٣١، ع ٢ (٢) نشيد ٨: ٦

وطمأنينة لا يضاهيها نعيم في هذه الدنيا . « انت تجعل القلب مطمئناً وتخوله سلاماً عظيماً وفرحاً جزيلاً »[١] .

وهكذا يكون اتحادنا بالله بالمحبة ، وما نجد فيه من قوة ونشاط وبهجة وارتياح وسلام وطمأنينة ، مدعاة لكي نتفانى في خدمته ، وفي تعلّقنا به . فتكون نتيجة ذلك تقدمنا في النعمة والقداسة .

٣ *كيف نمارس فضيلة المحبة .* — يجب قبل كل شيء ألا يغرب عن بالنا انه لا محبة على الارض بلا تضحية . لان المحبة الآمنة المطمئنة المتنعّمة التي كلها سرور وحبور من غير ان يخالطها الم او وجع لا توجد الا في السماء . اما على الارض فان طبيعتنا الفاسدة وما ينتابها من المطامع والاهواء ، وما يثور فيها من الرغائب والشهوات ، لا يمكنها من ان تكون لله ولخدمته ، ولا يحملها على ان توفي القريب حقه وما هو ايضاً فوق حقه ، الا بالتضحية وبذل الذات ونكران الشخصية . لذلك قال الرب : « من اراد ان يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني »[٢] . ومن بعده قال بطرس الرسول : « وان كنتم تتألمون وانتم فاعلو خير فصبرتم فهذا نعمة لدى الله . ولهذا دعيتم لان المسيح ايضاً تألم لاجلنا وابقى لكم قدوة لتقتفوا آثاره »[٣] .

---

(١) الاقتداء بالمسيح : س ٣ ، فصل ٣٤ ، ع ١ (٢) متى ١٦ : ٢٤
(٣) ١ بطرس ٢ : ٢٠ و ٢١

وفي معنى ما تقدم قال ايضاً بولس الرسول : « والذين للمسيح صلبوا اجسادهم مع الآلام والشهوات »[١].

والرسول يوحنا ايضاً يقول : « لا تحبوا العالم ولا ما في العالم . ان كان احد يحب العالم فليست فيه محبة الآب . لان كل ما في العالم هو شهوة الجسد وشهوة العين وفخر الحياة ، وليس ذلك من الآب بل من العالم »[٢].

فبعد ان اثبتنا بان التضحية يجب ان تكون اساس المحبة فلنبحث الآن في كيفية ممارسة هذه الفضيلة الالهية السامية .

اولاً – كيف نمارس فضيلة المحبة نحو الله ؟

ان المبتدئين بالحياة الروحية يقومون بواجب فضيلة محبة الله :

– ١ً – باجتنابهم انواع الخطايا وما اليها . فيجددون كل يوم وفي كل آن عواطف الندامة على ما فرط منهم من الذنوب ، مع القصد الصادق على عدم الرجوع اليها . وهكذا تتأصل المحبة في قلوبهم .

– ٢ً – بقبولهم ، بعاطفة الرضى والتسليم لأحكام الرب ، ما يمتحنهم به من انواع الشدائد والاحزان ، صابرين على المحنة ، مستسلمين لاحكام الله في انواع الشدة .

– ٣ً – بايقاد عاطفة الشكر في قلوبهم نحو الله المحسن اليهم .

---

(١) غلاطية ٥ : ٢٤ (٢) ١ يوحنا ٢ : ١٥ و ١٦

لانهم ينظرون الى مراحم العلي تفيض عليهم رغم مآثمهم ونقائصهم فتطفح قلوبهم بالشكر . ولما كان الشكر يذكي عاطفة المحبة نحو المحسن ، فبشكرهم تكثر محبتهم .

اما المتقدمون في الحياة الروحية فانهم فوق الافعال السابقة يمارسون فضيلة المحبة على انواع منوعة ايضاً . فتكون محبتهم لله محبة ارتياح وغبطة ، محبة شوقٍ ورغبة ، محبة وفاق واتحاد ، محبة صداقة ووفاء .

ان الظاهرة الاولى للحب الحقيقي هي ما يُتّع به المحب من الارتياح والغبطة بحصوله على موضوع حبه . فالنفس التي اعتادت ان تنصرف الى محبة الله تتلذذ بان يكون اللهُ اللهَ ، وبان يكون الكمالَ كله ، والحكمةَ السامية كلها ، والقدرةَ التي لا حدّ لها ، والحنانَ الذي ليس بعده حنان . وتفرح بهذه الكمالات الالهية اكثر من فرحها بما هو لها . وتذوب في عاطفة السجود والعبادة والتقدير والاعجاب والفرح الداخلي الصميمي . وبذلك يصبح الله كأنه الهها وحدها . فتتغذّى بكمالاته ، وتتغنى بحنانه ورحمته . لان غذاء القلب هو التلذذ بما احب . وتصرخ من اعماق وجودها مع القديس فرنسيس السالسي : «يكفيني ويكفي نعيمي ان يكون اللهُ اللهَ ، وان يكون حنانه لا حدّ له ، وان تكون كمالاته لا نهاية لها . واني إنْ حييت وان متُّ فسيان عندي

لان حبيبي الذي يهواه قلبي هو حي لا يموت وهو دوماً ظافر منصور »[1] .

وهذا الحب يصبح أسىً ولوعة اذ تنظر النفس المحبّة الى عذابات يسوع وآلامه فتذوب حزناً عليه . وربما أدّى هذا الحب بها الى ان ترتسم جراحات يسوع على جسمها واعضائها كما حصل للقديس فرنسيس الأسيزي ، والقديسة كاترينا السيانية ، والقديسة تريزيا الافيلية ، والراهبة الكرملية مريم يسوع المصلوب .

والظاهرة الثانية للحب هي الشوق الى ان يكون المحبوب مقدماً ومعظماً وممجداً . فالنفس التي تحب الله تتوق الى ان ترى الدنيا باسرها تمجده وتحبه وتعبده وتعترف بجوده وحنانه ورحمته:

« باركي الرب يا جميع اعمال الرب . سبحيه وارفعيه الى الدهور .

» باركوا الرب يا ملائكة الرب . سبحوه وارفعوه الى الدهور .

» باركي الرب ايتها السماوات . سبحيه وارفعيه الى الدهور .

» باركوا الرب يا بني البشر . سبحوا وارفعوه الى الدهور .

» باركوا الرب يا كهنة الرب ... باركوا الرب يا عبيد

---

(1) *Amour de Dieu, L. V. ch. III.*

الرب . . . باركوا الرب يا أرواح ونفوس الصديقين . . .

« باركوا الرب ايها القديسون والمتواضعو القلوب » [١] .

والظاهرة الثالثة للحب هي الوفاق والاتحاد بين المتحابين . الحب يوفّق بين القلوب ويوحِّد عواطفها فتصبح قلباً واحداً ، وعاطفة واحدة ، وشعوراً واحداً . فالنفس التي تحب الله تجعل ارادتها مع ارادته تعالى واحدة . فلا ترغب الا فيما يرغب هو تعالى فيه ، ولا تبغي الا ما يبغيه ، ولا ترضى الا بما يأمر به ، ولا يطيب لها امر في الدنيا الا ما كان موافقاً لإرادته واحكامه : « لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الارض . . . [٢] ليس كمشيئتي بل كمشيئتك » [٣] .

وهكذا تكون النفس دائمة التنبُّه لكي تُخضع ارادتها لارادة الله على الدوام . فتقوم بحفظ وصاياه ، لا بل بممارسة المشورات الانجيلية التي دعا اليها . وتصغي الى ارشادات النعمة ، وتكون طائعة لأحكامه في كل ما يواجهها من امور الدنيا من حلو ومر ، وسعة وضيق ، وصحة ومرض ، ونجاح وإخفاق ، وإقبال وإدبار ، وغمّ وسرور . ويصبح سيان عندها نوع الحياة التي سمح الرب بها لها طالما تجد في ذلك اتمام ارادته الالهية . وهكذا يتم لها

---

(١) دانيال ٣ : ٥٧ – ٨٧ (٢) متى ٦ : ١٠ (٣) متى ٢٦ : ٣٩

السلام الداخلي والطمأنينة القلبية . « لان الذين يحبون الله كل شيء يعاونهم للخير »[١] .

وفي ذلك يقول الخطيب الفرنسي الكبير بوسيه : « ان اتحاد ارادتنا مع ارادة الرب يجعلنا نرتاح في الالم ارتياحنا في السرور . فما يحسن في عين الرب يحسن في اعيننا ، لانه تعالى يعرف ما هو الحسن لنا . وهكذا نطلب ارتياحنا ليس في عمل ما يسرنا ، بل فيما يريده الرب منا . ونتوسل اليه تعالى لكي نكون دائماً موضوع سروره ورضاته ، ولكي يسيّرنا في الحياة كما يتراءى له بحسب طرقه واحكامه »[٢] .

والظاهرة الرابعة للحب هي الصداقة بين المتحابين وهبة نفوسهم لبعضهم . فمحبة الله تجعل هذه الصداقة حقاً قائمة بينه تعالى وبين النفس المغرمة به . فهو يمنحها ذاته مع كنوزه وخيراته ؛ وهي تتفانى في خدمته وفي بذل حياتها من اجله .

ان الله أحبّنا منذ الازل . « اني احببتك حباً ابدياً »[٣] . يقول الرب لأسباط بني اسرائيل . وحبه تعالى كان وما زال مجرداً . بحيث انه يحبنا ليس لأجله ، بل لأجلنا ولأجل سعادتنا ونعيمنا . وحبه حب كريم جواد يهب كإله بلا حساب ولا

---

(١) رومية ٨ : ٢٨

(٢) *Elévations, XIII*e *ser. 7*e *élévation.*

(٣) ارميا ٣١ : ٣

ميزان. وحبه حب مُبادِئ. فهو الذي بادأنا بالحب؛ وهو الذي تنازل ودعانا الى محبته: «يا بُنَيَّ أعطني قلبك»[١]. وايضاً: «نعيمي مع بني البشر»[٢].

لذلك فان النفس المحبة الصادقة في حبها، الصديقة لله، تحب الله حباً متواصلاً، بلا كلل ولا ملل ولا تذمر. ولا تهاب الضيقات، ولا تتوارى امام المشقات. بل تلبث ثابتة في حبها، راضية بسرور بكل ما يسمح تعالى ان يحلَّ بها في حياتها، أمينة على خدمته وعبادته وحفظ وصاياه ومُحبَّة قريبها لاجله. وهي تكثر من افعال المحبة وعواطف المحبة وصلوات المحبة. وتغذي عقلها بدوام الافتكار به تعالى، وقلبها بالشوق اليه. وتحبه محبة منزهة مجردة ليس لأجل خيراته واحساناته، بل لأجله تعالى، ولأجل كمالاته وجماله وقدرته وحنان قلبه. وهكذا تهبه ذاتها بكمالها كما يهبها هو ذاته لها.

وما احلى ما كتبته القديسة تريزيا الكبيرة الافيلية في هذا المعنى اذ قالت: «انني أرى ان الرب يسوع رغم سؤدده وسلطانه يسهّل عليَّ ان اعامله معاملة الصديق لصديقه. فهو ليس كأمراء الارض واسيادها الذين يجعلون عظمتهم في الفخفخة والظهور. نعم انه إله؛ ولكنه انسان ايضاً. لذلك فهو لا يعجب

---

(١) امثال ٢٣ : ٢٦ (٢) امثال ٨ : ٣١

لِما يراه من نقائصنا . وهو يعرف ان طبيعتنا المسكينة الضعيفة معرَّضة على الدوام للسقوط وللخطأ . وهو يسمح لنا ان نأتي اليه وان نقترب منه من غير ان نحتاج الى رئيس تشريفات يقدّمنا اليه » [١] .

البحث الثاني

في محبة القريب

١ بيانها : — محبة القريب معناها العطف عليه . وخدمته ومسامحة سيئاته وغضّ الطرف عن نقائصه لاجل الله ومحبة لله . وهكذا ترتبط محبة القريب بمحبة الله فتكون فضيلة المحبة .

اما اذا عطفنا على القريب وخدمناه وضحّينا من اوقاتنا ومن راحتنا ومن اموالنا ومن عاطفتنا في سبيله لمجرد ميلنا الطبيعي اليه لا لسبب آخر ، او طمعاً في كسب عطفه او ماله او نفوذه ، من غير ان يكون لله شأن في عملنا هذا ، فيكون ذلك منا عاطفة انسانية او أطماعاً زمنيّة بعيدة عن العوامل السماوية ، لا شأن لله فيها ، ولا حق لها في بركته تعالى ومكافأته . اما اذا

(1) *Histoire de Sainte Thérèse, t. I, p. 343.*

كان الدافع لخدمتنا للقريب ومحبتنا له كونه ابناً لله واخاً ليسوع المسيح، من غير ان نصغي الى ما نجد فينا من ميل عاطفي اليه، او من كراهية طبيعية نحوه، فمحبتنا له تكون اذ ذاك محبة الهية سماوية نستحق عليها نعم العلي في الدنيا والنعيم الابدي في الآخرة.

وقد اوضح ذلك المعلم الالهي بقوله: «الحق اقول لكم انكم كلما فعلتم ذلك بأحد اخوتي هؤلاء الصغار فبي فعلتموه»[1].

٢ كيفية ممارسة المحبة الاخوية. – ان المبتدئين في الحياة الروحية يمارسون المحبة الاخوية على نوعين: نوع سلبي ونوع ايجابي: فهم يتجنبون اولاً ما ينافيها من الرذائل، وثانياً يقومون بما تأمر به الوصايا من الفضائل.

فيتجنبون الدينونة الباطلة والنميمة والافتراء وما اليها من الرذائل التي تناقض ليس فضيلة المحبة فحسب، بل فضيلة العدل ايضاً.

ويقاومون ما يشعرون به من البغضاء والجفاء الطبيعي نحو هذا او ذاك، فلا يسمحون لإرادتهم بان تصادق على ميلهم هذا الطبيعي وشعورهم البديهي الداخلي.

ويترفعون عن الكلام الذي يجرح ويضرم نيران الخصام

(١) متى ٢٥ : ٤٠

والاحقاد .

ويلجمون لسانهم عن المزاح الذي كثيراً ما ينغِّص حياة القريب ويؤدي الى المنازعات وقطع الصلات .

ويحاذرون الاساءة الى القريب بشهادة الزور والاخبار الملفقة التي تكون مراراً سبب اضرار خطيرة يصعب فيما بعد تلافيها واصلاحها .

ويحرصون الحرص كلّه على ان لا يسبِّبوا شكوكاً للقريب ، فيتجنبون لا ما هو محرّم فحسب ، بل ايضاً ما يكون حلالاً ولكن يكون مثيراً للشكوك في نفس القريب الساذج الضعيف . فلا يتناولون اللحم مثلاً امام الاولاد في ايام الصيام ولو كان الزفر محلّلاً لهم ؛ ولا يستصحبون معهم غلمانهم وبناتهم الى محافل اللهو المريبة وان كانوا هم لا يتضررون منها ؛ ولا يقرأون امام السذّج كتباً ممنوعة عن هؤلاء وان سُمِحَ لهم بقراءتها . والقديس بولس يوصي قائلاً : « ان كان الطعام يشكك اخي فلا آكل اللحم الى الابد لئلا اشكك اخي »[1] .

اما الفضائل التي يتحلّى بها المبتدئون في الحياة الروحية فيما هو من محبة القريب فهي كثيرة جميلة :

فانهم يصبرون على نقائص القريب ولو كانت عديدة

(١) ١ كور ٨ : ١٣

وثقيلة، لانهم يعلمون ان لهم هم ايضاً نقائصهم، ويعلمون ان المرء ميال بفطرته الى تعظيم نقائص القريب ولاسيما من كان يستثقله ويتبرم منه. ويذكرون قول الرب: «ما بالك تنظر القذى الذي في عين اخيك ولا تفطن للخشبة التي في عينك»[١].

وهم يصفحون ايضاً عن الإهانات، ولا يضمرون الشر لاعدائهم، ويصالحون من عاداهم، لان السيد المسيح يأمر بذلك: «فاذا قدّمت قربانك الى المذبح وذكرت هناك ان لأخيك عليك شيئاً فدع قربانك هناك امام المذبح وامضِ اولاً فصالح اخاك وحينئذٍ ائتِ وقدِّم قربانك»[٢].

والقديس بولس يحرض المسيحيين على اطراح غضبهم ويقول: «لا تغرب الشمس على غضبكم»[٣].

ولقد اكَّد لنا رب المجد ان الله يغفر لنا بقدر ما نكون قد غفرنا لقريبنا: «واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن لمن اساء الينا... فانكم ان غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم ابوكم السماوي زلاتكم. وان لم تغفروا للناس فابوكم ايضاً لا يغفر لكم زلاتكم»[٤].

اما المتقدمون في الحياة الروحية فانهم ينسجون على مثال الرب يسوع في ممارسة فضيلة المحبة.

---

(١) متى ٧ : ٣ (٢) متى ٥ : ٢٣ و ٢٤

(٣) افس ٤ : ٢٦ (٤) متى ٦ : ١٢ – ١٥

فيذكرون اولاً ان وصية المحبة هي وصيته الخاصة به وشعاره الجديد : « اني اعطيكم وصية جديدة »[١] . بل جعل فضيلة المحبة العلامة الفارقة التي يمتاز بها تلاميذه عن سواهم . « بهذا يعرف الجميع انكم تلاميذي اذا كنتم تحبون بعضكم بعضاً »[٢] .

ولقد قال في ذلك الخطيب الفرنسي الكبير بوسيه : « ان هذه الوصية هي جديدة لان الرب يسوع يأمرنا بان نحب بعضنا بعضاً كما هو احبنا . فكيف هو احبنا . انه بادأنا بالحب لمّا كنا نحن بعد لا نفكِّر به . هو الذي اتى الينا اولاً . وفوق ذلك فانه دائماً يغضُّ الطرف عن خياناتنا وعن نكراننا لجميله ونسياننا لمكارمهِ . انه يحبنا لكي يقدّسنا ولكي يسعدنا . وما ذلك الا تكرماً منه وتفضلاً . لأنه لا مصلحة له بذلك اذ لا يحتاج الينا في شيء » . فالمحبة الاخوية هي العلامة الفارقة التي يجب ان يمتاز بها المسيحيون عن سواهم من الامم . هذه هي وصية الرب وارادته .

وكيف أحبنا المسيح ؟ لقد أحبنا محبة مُبادِئة، محبة عطوفاً، محبة جوادة .

ان الرب يسوع هو الذي بادأنا بالحب . « اما الله فيدل على

(١) يوحنا ١٣ : ٣٤ (٢) يوحنا ١٣ : ٣٥

محبته لنا بانه اذ كنا خطأة بعد ففي الأوان مات المسيح عنا»[١].

اليس انه هكذا فعل مع السامرية، ومع المرأة الخاطئة، ومع المخلع، ومع اللص؟ اليس هو الذي بدأ فقال لنا: «تعالوا الي يا جميع المتعبين...»[٢]. فعلينا نحن الذين نحب الرب يسوع ونرغب في ان نقتفي اثره ان نبادر قريبنا بالمحبة. هذا ما يفعله الذين يعودون المرضى، ويزورون الفقراء في بيوتهم، ويعزون الحزان والمصابين، ويذهبون الى السجون فيؤاسون المسجونين، ويبذلون المساعي الصادقة اللطيفة العاطفية في اعادة البعيدين عن الله الى واجباتهم، ويساعدون المدنفين على لقاء ربهم.

ان الرب يسوع احبنا محبة رأفة وشفقة وحنان. أشفق على الجماهير في البرية لما رآها جائعة متعبة بعيدة عن مآخذ الطعام فاشبعها. – تحنن على الشعوب فغذاها بتعاليم سامية الهية محيية تركت بعيداً وراءها تعاليم كل فلسفة وكل ديانة سواها. – جعل مَثَله في حنانهِ مَثَل الراعي الذي يترك قطيعه كله ليذهب في طلب الخروف الضال منه.

وكم مرة شفى امراض النفس قبل ان يهب الصحة للأجسام. ليعلمنا ليس الشفقة فحسب، بل ايضاً تنظيم افعال الرحمة والشفقة بان نهتم بنفس القريب قبل اهتمامنا بجسده، وان نتخذ الاحسان

(١) رومية ٥ : ٨ (٢) متى ١١ : ٢٨

الى جسده سبيلًا للوصول الى قلبه ونفسه .

فعلى مثال السيد المسيح نمارس الشفقة نحو القريب في اسقامه واثقاله وجهله وغباوته، فلا نبخل عليه بشيء من مالنا ومن وقتنا ومن قوانا ومن معارفنا ومن عاطفتنا .

ان الرب يسوع أحبنا محبة سخية جوادة . اليس انه لاجل حبنا رضي بان يتجسد ويتألم ويتعب ويشقى الى ان قضى نظير اللصوص على خشبة : « احبنا وبذل ذاته لاجلنا »[١] .

وعلى أثره سارت جماهير الرهبان والراهبات والمسيحيين والمسيحيات في مدارس التعليم ، وفي الملاجئ والمستشفيات وسائر محطات البر والرحمة في مختلف البلدان وفي كل زمان ومكان . فان الملايين من هؤلاء الرهبان والكهنة والراهبات والمسيحيين الاتقياء والمسيحيات الغيورات يكرسون في سبيل القريب والمريض والضعيف والجاهل والبائس والفقير والاعمى واليتيم واللقيط وسواهم من المساكين ، يكرسون قواهم واوقاتهم واموالهم وحياتهم ، مضحّين بكل شيء في سبيلهم محبة للمسيح الذي اوصى بهم، وتمثلًا به اذ انه مات لاجلهم . هذه هي الطريق الملكية التي سلكها الرب يسوع في حياته وسارت عليها جماهير أصفيائه من بعده .

---

(١) افسس ٥ : ٢

اما الكاملون من المسيحيين فانهم لا يحجمون عن بذل حياتهم عند الاقتضاء في سبيل قريبهم . « بهذا قد عرفنا المحبة ان ذاك قد بذل نفسه من اجلنا فيجب علينا ان نبذل نفوسنا من اجل الاخوة »(١) . هذا ما يفعله المرسلون في البلاد القاصية . هذا ما فعله الكاهن القديس بطرس داميانوس لمّا تخصص لخدمة البرص . هذا ما فعله القديس منصور دي پول لمّا استسلم للأسر لينقذ احد المأسورين . هذا ما فعله احد الاسرى الاشراف في سجون الثورة الفرنسية لمّا اتى رفيقاً له وقال: « يا اخي انت رب عائلة وانا اعزب . فاذا طلبوك قبلي ليعدموك فدعني اذهب بدلاً عنك فلربما عَفَوا عني فتخلص انت باسمي . لانهم لا يميّزون بين هذا وذاك . وهكذا تبقى انت لعائلتك واولادك ، وانا فلا بأس علي اذا الموت تعجّلني » .

وفضيلة المحبة هذه الكاملة حملت بعض الكهنة على ابراز « نذر العبودية » في سبيل خدمة النفوس . فانهم يقيمون ذواتهم عبيداً للنفوس التي يخدمونها ، فيتخصصون لها بكل ما في حالة العبد من التجرد عن ذاته وعن ارادته وميوله ومطالبه . وبذلك لا يعودون يملكون شيئاً مما لهم لا من علم ، ولا من ارادة ، ولا من مال ، ولا من وقت ، حتى لا من حقٍ على الحياة . لان

(١) ١ يوحنا ٣ : ١٦

العبد هو ملك اسياده . نعم ان محبة المسيح تصل بالنفوس الكبيرة الى مثل هذا الحد من التضحية .

ولكي ننهي هذا البحث نورد تعليقاً رائعاً للقديسة تريزيا الطفل يسوع في موضوع المحبة ؛ قالت في شرح هذه الآية : « اني اعطيكم وصية جديدة ان يحب بعضكم بعضاً كما احببتكم انا . . . »(١) .

» واخذت ابحث عن الكيفية التي بها احبَّ يسوع تلاميذه ، فرأيت انه لم يحبهم لاجل ما لهم من مزايا طبيعية ، فانهم كانوا جهلة ومسوقين بمطامعهم الارضية . ورغم ذلك فهو يدعوهم اصحابه واخوته ، ويرغب في ان يراهم معه في ملكوت ابيه . ولكي يفتح لهم هذا الملكوت يرضى بان يموت على الصليب ، ويقول : « ليس لاحد حب اعظم من هذا أن يبذل نفسه عن احبائه »(٢) .

» فلما تأملت في هذا الكلام رأيت كم هي ناقصة محبتي لأخواتي وكم هي بعيدة عن محبة يسوع لهن . انني الآن افهم ان المحبة الحقيقية تقوم باحتمال نقائص القريب كلها ، وبعدم العجب من ضعفه ، وبالاغتباط بفضائله .

---

(١) يوحنا ١٣ : ٣٤ (٢) يوحنا ١٥ : ١٣

« في العهد القديم ، لما امر الرب شعبه بان يحب المرء اخاه كما يحب ذاته ، لم يكن بعد قد تجسد ونزل على الارض . فلما كان يعلم مقدار محبة المرء لنفسه لم يكن يستطيع ان يطلب من شعبه اكثر من هذا . ولكن لما اعطى يسوع لرسله وصية جديدة ، وصيته الخاصة به ، لم يكتفِ حينئذٍ بان يطالب منّا ان نحبَّ قريبنا كما نحب نفسنا ، بل أمر بان تكون محبتنا لهذا القريب كما هو يحبنا وكما سوف يحبنا الى انقضاء الدهر » .

والقديسة تريزيا تتكلم بعد ذلك عن طريقة سهلة لممارسة فضيلة المحبة فتقول :

« عندما يأتي الشيطان ويضع امام عيني نقائص فلانة او فلانة من اخواتي الراهبات ، اسارع انا وابحث عن فضائلها وعن نياتها الحسنة واقول في نفسي : اذا كنت قد رأيتها سقطت مرة ، فلربما انها انتصرت مراراً على تجاربها ونزعاتها ، وهي تخفي ذلك تحت ستار التواضع . وربما ان ما اراه فيها زلة ، ليس هو سوى فضيلة حقة بسبب حسن نيتها وصلاح طويتها » [١] .

ويجدر بنا ان ننهي هذا الفصل ببعض ملاحظات ونصائح للكاتب الروحي الاب لوجون P. Lejeune في اعمال الحب قال :

---

(١) في كتاب حياتها ، الفصل التاسع

« ليس الحب العاطفي كالحب العملي . فالحب العاطفي هو سعير متأجج في القلب . اما الحب العملي فهو الحب الخارجي الذي يبدو للعيان باعماله .

» ففي الحب العاطفي ، عليك بمعاملة قلبك كما تعامل فرسك . فانك اذ تكون راكباً فرساً ، وتكون صاعداً اكمة ، تترك لها العنان ؛ اما اذا نزلت منحدراً تشد اليك عنانك . وهكذا في الحب : فاذا اندفعت في حب الله وهو حب سام ، فسِرْ ركضاً راخي العنان . . . ولكن حينما ينحدر قلبك الى اسفل ، الى حب الخليقة ، فعليك بالاحتراس . لانه يجب عليك ان لا تسمح لقلبك بان يخوض في لجج من المشاعر والعواطف الحسية . لان الحب الروحي يَنْسُد احياناً ، كما يقول القديس بونتورا ، فينقلب الى حب شهواني ، لاسيما مع الجنس الثاني .

» اما الحب العملي فان الله يريد منك ان تبدأ اولاً فتوجهه الى القريب ، وتخدم به قريبك اكثر من خدمتك لخالقك . لان الله يريد ان تترك احياناً خدمته لتخدم قريبك لأجله تعالى وخدمته . مثال ذلك انك لو كنت لا تقدر ان تحضر القداس يوم الاحد إلا اذا تركت مريضاً هو بحاجة اليك والى اسعافك ، فان الله يريد منك ان تترك القداس لاجل خدمة ذلك المريض :

« اني اريد رحمة لا ذبيحة » . لان الله بغنى عن عباداتنا ، ولا منفعة له بضحايانا . أمّا اعمال الرحمة والشفقة نحو القريب فهي كثيراً ما تكون نافعة له ، لا بل ضرورية ايضاً » .

﴿ حوادث تاريخية ﴾

الاب بطرس دميان رسول البُرص

ان بين جزر الساندويتش المنثورة في اواسط المحيط الهادي جزيرة تدعى مولوكاي جمعت فيها الحكومة البريطانية جماهير المرضى المصابين بداء البرص لكي تمنع بذلك من ان تسري عدوى هذا الداء الفتاك الوبيل في الجزر العديدة الكبيرة والصغيرة التي تملأ ذلك المحيط العظيم .

ففي جزيرة مولوكاي هذه تجد خليطاً من البشر من جميع الاجناس والاديان قد جمعتهم المصيبة ، وقربت بينهم البلوى . فتجاوروا على مضض، وباتوا يقضون حياتهم المرة في انتظار الموت الاليم بينما اطرافهم المبتورة تتساقط شيئاً فشيئاً .

وليس من تعزية لهذه الجماهير من المرضى سوى ما تغمرهم به الحكومة والمحسنون من اعمال الشفقة والرحمة . والمسيحيون منهم ، ولاسيما الكاثوليك ينسون همومهم وآلامهم في المساعدات والخدم الدينية التي يقدمها لهم المرسلون الاوربيون من رهبانية القلبين الاقدسين . لان الكهنة يأتونهم من حين الى حين حاملين اليهم مع كلام التعزية رب التعزية .

ورأى احد هؤلاء المرسلين الغيورين ، وهو الاب بطرس دميان ان تلك الزيارات، وان تعددت، لا تفي بالغرض المطلوب، وان اقامة وسكنى واحد او اكثر من المرسلين فيما بين أولئك المصابين تعود عليهم بالفائدة الكبرى ، دينية وادبية ومادية ؛ وانه قد يكون لها الاثر الكبير الطيب ليس في خدمة المسيحيين فحسب ، بل في ارتداد الكثيرين الى الايمان بالمسيح ايضاً .

ففكر هذا المرسل القديس ملياً في الامر ، ثم عزم على التضحية بصحته وحياته في سبيل اولئك المرضى المبتلين بذلك الداء الوخيم . وكان عالماً بانه باقدامه على ذلك العمل لا بد له من ان يصاب هو ايضاً بداء البرص الشنيع ويموت فيه . ولكن المحبة المسيحية انتصرت فيه على المخاوف البشرية ، فطلب من رؤسائه ان يسمحوا له بان يجعل مقامه الدائم في تلك الجزيرة لكي يقوم بخدمة مرضاها . فاجابوه الى طلبه . فذهب واقام هناك .

وكان اذ ذاك ممتلئاً صحة وشباباً واقداماً ونشاطاً . فاخذ يخدم اولئك البؤساء ويؤاسيهم ويعنى بامورهم . وتسلم ادارة المستشفى الكبير هناك ، فدبت الحياة في تلك الجزيرة . ودهش الوثنيون لتلك التضحية وتلك الفضيلة فآمن الكثيرون منهم بالمسيح . ان اعمال الرحمة المسيحية كانت ولا تزال افصح لسان واجلى بيان لشرح عقائد الايمان والدعوة الى الايمان .

وكان ما لا بد ان يكون . فابتلي الاب دميان ايضاً بداء البرص . فتشوه وجهه واخذت تتساقط اطرافه . ولكنه بقي مثابراً على عمله بلا كلل ولا ملل . فقضى السنين الطوال يخدم ويبشر ويؤاسي ويعزي ويشجع وينفق الاموال الطائلة في تخفيف الآلام عن تلك الفئة المسكينة من البشرية المتألمة الى ان مات بداء البرص شهيد المحبة والرحمة . فدعاه التاريخ رسول البرص . وكان ذلك سنة ١٨٨٩ .

« ان محبة المسيح تحثنا »

الصدقة انواع [1]

السيدة « سوريد » كانت مقعدة . وكانت تنتقل من مكان الى مكان وهي جالسة على كرسي ذي عجلات تدفعه بيديها . وكان هذا حالها منذ حداثتها حتى أربت على الخمسين . الا انها رغم هذه العاهة فقد كرست ايامها الطويلة لاجل تسلية الاطفال المرضى في المستشفيات . فكانت تسأل عنهم وعن اسمائهم واحوالهم ؛ ومن غير ان تعرفهم تراسلهم وتضمن رسائلها طائفة من الاخبار التي تلذ قراءتها لهم . وكان هؤلاء يترقبون رسائلها بفارغ صبر ويقرأونها بارتياح ، ويعيدون قراءتها ، وينسون ما هم به من ألم وسأم .

فكانت كل صباح تأتي على عربتها الصغيرة وهي تدفعها بيديها ، وتحمل الى مقر البريد رزمة من الرسائل المختلفة تبعث بها الى المستشفيات في مختلف انحاء البلاد .

وما اجمل ايضاً ما كانت تفعله تلك الابنة الصبية التي كانت تذهب كلما سنحت لها الفرصة ، الى محطة السكك الحديدية ، وهناك تبذل مساعدتها للسيدات المسافرات بملاحظة الاطفال والسهر على الحقائب وما شاكل ، خدمة لذكرى والدتها المتوفاة التي كانت في اسفارها تلاقي مشقة وعناء مع اولادها .

الصدقة انواع متنوعة ، وما احلاها !

---

(١) عن مجلة « المختار » .

العاطفة البنوية الصادقة (١)

دخلت حانوتاً لبيع الازهار فوجدت غلاماً ينتقي اجمل ما يجد من الورد الاحمر . فقالت له بائعة الزهور : ارجوك ان تكتب على هذه البطاقة الاسم والعنوان حتى نرسل اليك الورود حيثما تريد . فاجاب الغلام : شكراً ساحملها بنفسي . ثم اردف وقال للبائعة : بل ارجوك ان تكتبي لي على هذه البطاقة : عيد سعيد يا ماما .

وبعد برهة ركبت القطار وكان يسير بنا الهوينا في ضواحي المدينة . وبينما كنت اتطلع من النافذة واذا بي ارى الغلام يحمل باقة الورد ويدخل مقبرة صغيرة .

ما اجمل عاطفة هذا الغلام نحو والدته الراقدة في تلك المقبرة الصغيرة! فهو يذهب الى زيارتها في مرقدها يوم عيدها ليحيّي ويُحيي عظامها بعاطفته نحوها.

الصدقة انواع، وما الذ مذاقها !

(١) « جانيت جالو » في مجلة « المختار » عدد تشرين الاول ١٩٤٧ ص ٣٦

ملحق

في الصلاة

اولاً — بيانها وضرورتها — الصلاة هي مناجاة الخالق . هي رفع القلبَ الى الله بافعال العبادة . وتشمل هذه الافعال السجود لعزته الالهية ، والشكر له على نعمه العديدة ومواهبه السنية ، والاستغفار من حنانه ورحمته على الذنوب الظاهرة والخفية ، والطلب من فيض كنوزه مايلزم من النعم الروحية والزمنية .

فالصلاة هي صلة بين الله والانسان . فالله هو الخالق ، هو الرب والسيد ، وهو المنعم الاعظم المتفضل على مخلوقاته بضروب النعم . والانسان هو الخليقة الضعيفة المسكينة الخاطئة ، ولكن المحبوبة ، المحتاجة الى مراحم الله ومعونته ورحمته .

فالصلاة هي اذاً من ضروريات الحياة :

١ً — لان للخالق الحق المطلق على احترام وطاعة خليقته واكرامها له ما دامت في الوجود .

٢ً — لان هذه الخليقة هي بحسب طبيعتها في اشد الاحتياج الى النعم السماوية لكي تستطيع ان تعمل الاعمال الروحية التي تؤهلها للحياة الابدية السعيدة الالهية .

فلقد قال الرب : « انا الكرمة وانتم الاغصان . من يثبت فيَّ وانا فيه فهو يأتي بثمر كثير . لانكم بدوني لا تستطيعون ان تعملوا شيئاً »[١] .

وقال القديس بولس : « لا أنَّا فينا كفاءة لان نفتكر فكراً بانفسنا كأنه من انفسنا بل كفاءتنا من الله »[٢] . — وكتب ايضاً الى اهل فيلبي يقول : « فان الله هو الذي يعمل فيكم الارادة والعمل على حسب مرضاته »[٣] .

٣ً — الصلاة هي ايضاً ضرورية للانسان لكي يتقي التجارب ولاسيما السقوط في الخطايا . لذلك علمنا الرب يسوع في الصلاة الربية ان نبتهل الى الآب السماوي في صلاتنا كل يوم وكل ساعة ونقول له بثقة بنوية : « ولا تدخلنا في التجارب لكن نجنا من الشرير » .

٤ً — والصلاة هي ايضاً ضرورية للانسان لحسن القيام بضروريات وواجبات الحياة الزمنية . ان الكتاب المقدس يطفح بمواعيد الله لشعبه بافاضة الخيرات الارضية عليه ، إن هو حفظ وصاياه وتعبد له . وكم مرة حقق الله تلك المواعيد واستجاب صلاة وأنات الداعين اليه بكل قلوبهم في اوقات ضيقهم ومحنهم . فلقد استجاب لموسى في البرية ، وليهوديت

(١) يوحنا ١٥ : ٥ (٢) ٢ كورنثس ٣ : ٥ (٣) فيلبي ٢ : ١٣

وشعبها ضد اليفانا المتكبر وجيشه ، ولأيوب في محنته ، ولطوبيا في امواله واسفار ابنه ، ولأستير الملكة عندما كان هامان يهدد شعبها بالفناء .

وكم مرة منح الرب يسوع النعم الزمنية اجابة لصلاة ودعاء الطالبين رحمته ! شفى العميان والمقعدين والمجانين ، واقام من الاموات ابنة الرئيس والعازر اخا مريم ومرتا . بل ان توسلات الكنعانية ارغمته ارغاماً على شفاء ابنتها . وهكذا نازفة الدم ايضاً نظيرها .

ألم يقل هو جلّ اسمه ويعيد القول بالحاح : « اسألوا فتعطوا ، اطلبو فتجدوا ، اقرعوا فيفتح لكم »(١) . ولكي يوصل كلامه وارادته الى الاذهان باجلى بيان يستعير تشبيهاً رائعاً ويقول : « اي انسان منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً . او اذا سأله سمكة يعطيه حية . فاذا كنتم انتم الاشرار تعرفون ان تمنحوا العطايا الصالحة لأبنائكم فكم بالحري ابوكم الذي في السماوات يمنح الصالحات لمن يسأله »(٢) .

وان الصلاة المثلى التي علمنا الرب ان نصليها تطلب لنا مراحم الآب السماوي النعم السماوية والارضية معاً : « اعطنا خبزنا كفاف يومنا ، واغفر لنا خطايانا » .

---

(١) متى ٧ : ٧ (٢) متى ٧ : ٩ - ١١

فالصلاة هي ضرورية اذن لحياتنا الروحية والزمنية معاً ، ولا قوام لها الا بها . ويقول في ذلك القديس توما اللاهوتي : « ان كل ما لا يكون مؤسساً على الصلاة في آمالنا ورغائبنا تكون نتيجته الفشل . لانه لما كان لا واجب يلزم الله الزاماً ليمنحنا ما نحن بحاجة اليه من النعم ، ولما كانت النعمة من طبيعتها مجانية ، فهي لا تُنال الا بواسطة الصلاة .

» لا ريب في ان الله يعرف ما نحتاج اليه قبل ان نسأله . إلّا انه تعالى يرغب في ان نعرض ذلك عليه لكي يهبنا ما نحتاج اليه . وهكذا نذكر دائماً عطفه علينا ، واحسانه الينا ، وضعفنا ومذلتنا » (١) .

والمجمع التريدنتيني يقول في الكتاب الذي وضعه : « ان الصلاة اعطيت لنا كواسطة فعالة لننال من الله ما نريده منه . لان مواهب كثيرة لا يمكننا ان نحصل عليها الا بواسطة معونته » (٢) .

ثانياً — شروط الصلاة . — لكي تكون الصلاة حسنة ومقبولة لديه تعالى ومستجابة ، يجب ان تتوفر فيها شروط عدة رئيسية . وهي تعود الى قسمين : (ا) ماذا ينبغي لنا ان نطلب ، (ب) كيف نطلب .

---

(1) *Sum. Theol. IIa IIæ, Q. 83, a. 1, ad 3.*
(2) *Cat. Trid. p. IV, c 1 n° 3.*

(ا) ماذا ينبغي لنا ان نطلب — لكي تكون صلاتنا مقبولة يجب ان نجعل في رأس توسلاتنا وطلبنا ما يلزمنا من النعم الروحية التي توصلنا الى غايتنا القصوى السماوية . ثم يجب ان لا نطلب من النعم الزمنية الا ما يتفق ولا يتنافى مع هذه الغاية العليا الابدية التي اعدها الله لنا ودعانا اليها .

ان الخيرات الزمنية لا يمكنها ان تملأ قلبنا ، ولا هي تدوم لنا وليس لها ان تمنحنا من السعادة ما يكفينا ويريحنا ويسعدنا . الا ان بعضها هو قوام حياتنا الزمنية وليس باستطاعتنا ان نستغني عنها . لذلك يمكننا ان نجعلها هي ايضاً موضوع صلاتنا وطلبنا وتوسلاتنا . ولكن يجب ان لا ننسى ان الخيرات الزمنية يلزمها ان تبقى في المحل الثاني ، وان يبقى للخيرات الروحية المقام الاول . لان غاية هذه ابدية ، وغاية تلك زمنية وقتية . وشتان ما بين هذه وتلك . لذلك كثيراً ما تتنافى الخيرات الزمنية مع المواهب الروحية وتكون عائقاً كبيراً لنا في طريقنا الى غايتنا السماوية الدائمة . فيكون طلبنا لها ضرراً لنا . فالواجب يقضي ومنفعتنا ايضاً بان لا نرغب في الزمنيات الا بقدر ما تتناسب مع منفعتنا الروحية ، لكي لا تكون الخيرات الارضية سبباً لخسارتنا الخيرات السماوية السامية . اليس ان الكثيرين يهلكون بسبب غناهم ، او بسبب رتبهم ، او بسبب وظائفهم ، او بسبب

سكناهم في المدن الكبيرة بدل الارياف المتواضعة .

لذلك وجب على من يصلي ان يطلب اولاً ملكوت الله وبرّه [1]، وان يبقي ارادته خاضعة لارادة الله واحكام الله وتدبير الله ، وان يطلب منه تعالى ان لا يمنحه الا ما يؤول الى خلاصه الروحي ونجاحه الابدي .

اننا كثيراً ما نطلب من الله نعماً ارضية فينكرها تعالى علينا لعلمه بانها سوف تكون سبب خسارة روحية لنا . وينكرها احياناً ايضاً علينا لانه يعرف انها تكون سبب ضرر مادي لنا قد خفي علينا . لذلك يحسن بنا في صلاتنا ان نخضع دائماً ارادتنا لإرادة الله مولانا وابينا ومدبرنا ومرشد حياتنا . وهو اذا انكر علينا ما نطلب خدمة لنا ولمنفعتنا ، فانه لا يبخل علينا بما هو حقاً نافع لنفوسنا واجسادنا . فيعطينا نعمة نافعة نجهلها بدل منة نطلبها ونجهل ضررها . وهكذا لا يترك صلاتنا بلا فائدة نجنيها منها . اليس على هذا النحو تعامل الام ولدها . اوليس ايضاً شتان ما بين محبة الام لولدها ومحبة الله لبنيه وعباده !

(ب) كيف ينبغي لنا ان نطلب — ان صلاتنا ، لكي تكون مقبولة وذات فائدة ، يجب ان نقرنها بالتواضع الصحيح والثقة البنوية واليقظة الكافية .

---

(١) لوقا ١٢ : ٣١

اما التواضع فلقد طالما كان مزية الطالب المتوسل : لا يمكن ان ينال الطالب الوقح منالاً .

ولما كانت النعمة الالهية مجانية كان لا بد لنا من ان نطلبها بتصاغر وتذلّل . والله لا يرد صلاة من تواضع امامه : « القلب المتخشع المتواضع لا يرذله الله »[١] . هكذا استجاب الله صلاة العشار المتواضع ، ورذل خطاب الفريسي المتشامخ . اما قال الرب : « من وضع نفسه ارتفع »[٢] .

ويقول القديس يعقوب في رسالته بكل جلاء : « ان الله يقاوم المتكبرين ويعطي النعمة للمتواضعين »[٣] .

وهذا التعليم هو مبني على المنطق ، لان المتكبر لا يقرّ باحسان المحسن ، ولا يعرف للمنة فضلاً ولا قيمة . لذلك تحرم صلاته من الاستجابة ويعود صفر اليدين . لكن المتواضع يستجلب عطف المحسن فتقبل صلاته ويستجاب له .

والتواضع ينشىء الثقة ويحمل الانسان على الرجاء ، والرجاء لا يخزي كما يقول بولس الرسول ، لان اعتماده على رحمة الله وحنانه ، وعلى استحقاقات آلام المخلص الالهي . ان رحمة الله واسعة وتتسع اكثر للذي يعرف ذله وفقره وضعفه ، ويقرّ بذلك امام العزة الالهية .

---

(١) مزمور ٥٠ : ١٩ (٢) لوقا ١٨ : ١٠ (٣) يعقوب ٤ : ٦

والكتاب المقدس لا يفتأ يذكرنا بان الله يصغي الى صلاة من يتكل عليه . فصاحب المزامير يقول على لسان الرب : « انجّيه لانه تعلّق بي . ارقّيه لانه عرف اسمي . يدعوني فاستجيب له »[١] .

وكم يشدد علينا الرب يسوع في انجيله لكي نضع ثقتنا كاملة فيه : « من منكم يسأل اباه خبزاً فيعطيه حجراً ، او سمكة فيعطيه حية بدل السمكة ، او اذا سأل بيضة يعطيه عقرباً . فاذا كنتم انتم الاشرار تعرفون ان تمنحوا العطايا الصالحة لابنائكم فكم بالحري ابوكم من السماء يمنح الروح القدس لمن يسأله »[٢] .

وفي الليلة الاخيرة التي قضاها يسوع مع رسله اوصاهم مراراً لكي يضعوا فيه ثقتهم ويصلوا ويطلبوا واعداً اياهم باستجابة طلباتهم :

« فكل ما تسألون الآب باسمي فانا افعله ليتمجد الآب في الابن . وان سألتم شيئاً باسمي فاني افعله »[٣] .

« الحق الحق اقول لكم ان كل ما تسألون الآب باسمي يعطيكموه . الى الآن لم تسألوا باسمي شيئاً . اسألوا تعطوا ليكون فرحكم كاملاً »[٤] .

---

(١) مزمور ٩٠ : ١٦
(٢) لوقا ١٢ : ١١
(٣) يوحنا ١٤ : ١٣ و ١٤
(٤) يوحنا ١٦ : ٢٣

فلا يمكن الانسان اذن ان يقنط من رحمة الله . بل يصلي بتواضع ويرجو بثقة فينال ما يلزمه من مواهب ونعم .

واذا كان الله يتظاهر احياناً كمن يصمّ اذنيه عن صلاتنا وتوسلاتنا ، فما ذلك منه الا ليحملنا على الاستمرار في الصلاة ، وعلى دوام اتكالنا عليه ورجائنا براحمه ، وعلى الاستزادة من معرفة فقرنا واحتياجنا اليه . وهكذا نعرف للنعمة التي نطلبها قيمتها وقدرها . هكذا كانت صلاة المرأة الكنعانية :

« ثم خرج يسوع واتى الى تخوم صور وصيدا . واذا بامرأة كنعانية قد خرجت من تلك التخوم تصيح وتقول : ارحمني ايها الرب ابن داود فان ابنتي بها شيطان يعذبها جدًّا . فلم يجبها بكلمة . فدنا تلاميذه وسألوه قائلين : اصرفها فانها تصيح في اثرنا . فاجاب وقال لهم : لم ارسل الّا الى الخرفان الضالة من آل اسرائيل . فأتت وسجدت له قائلة : اغثني يا رب . فاجاب قائلاً : ليس حسناً ان يؤخذ خبز البنين ويلقى للكلاب . فقالت : نعم يا رب فان الكلاب تأكل من الفتات الذي يسقط من موائد اربابها . حينئذ اجاب يسوع وقال لها : يا امرأة عظيم ايمانك ، فليكن لك كما اردتِ . فشفيت ابنتها من تلك الساعة »[1] .

ومع التواضع والثقة يجب لحسن القيام بالصلاة ان يكون

(١) متى ١٥ : ٢١ – ٢٨

الانسان متنبه الذهن وعندما يصلي وعندما يقول للرب وعندما يطلب .

ان تشتُّت الفكر وقت الصلاة هو امر طبيعي . فاذا حدث عفواً وقت الصلاة ، من غير قصد ولا قبول ولا رضى ، فانه لا يعيق الصلاة ولا يقف حائلاً دون مفعولها، على شرط ان نكون قد احتطنا لأنفسنا لكي نبتعد عن اسباب الشتُّت وقت صلاتنا .

اما اذا رضينا بتشتيت الذهن فلا نخلو حينئذٍ من الخطإ ، لاسيما اذا كانت صلاتنا من الفروض المتوجبة علينا . ان الصلاة هي مخاطبة الله ومناجاته بافعال السجود والشكر والاستغفار والطلب . فكيف نسجد سجوداً حقيقياً ونحن لاهون ! وهل نشكر المنعم الاعظم على نعمه وآلائه ونحن غافلون عنه وعنها ! وهل نستغفر ممن اسأنا اليه ونحن مشرّدو الفكر ! وهل نطلب نعمه وهباته وما نحتاج اليه من أفضاله ونحن بعيدون عنه بفكرنا وعاطفتنا ! الا نستحق اذ ذاك ان نسمعه يوبخنا ويقول : « ان هذا الشعب يكرمني بشفتيه واما قلبه فبعيد مني »[1] .

فلكي تكون صلاتنا مقبولة ، وجب علينا ان ندفع عنا بارادة صادقة كل تشتيت لافكارنا وكل اسباب التشتت التي تعترضنا . وان افضل طريقة للوصول الى ذلك هي حصر انتباهنا

(١) متى ١٥ : ٨

او فيما نقول من الكلام ، او في معناه ، او في مناجاة الخالق او السيد المسيح بعواطف الايمان او الرجاء او المحبة البنوية ، كما يناجي الابن اباه في خلواته .

حادث تاريخي

القديس بناديكتوس واخته القديسة سكولستيكا

كان القديس بناديكتوس، منشئ الطريقة الرهبانية في بلاد الغرب، يقيم في ديره على رأس جبل كاسينو بالقرب من مدينة رومة . و كانت اخته سكولستيكا تقيم هي ايضاً في دير مع راهباتها في اسفل ذلك الجبل . وكان بناديكتوس ينزل كل سنة مرة اليها فيزورها ويقضي نهاره عندها ثم يودعها ويعود الى ديره ليأتيها في السنة التي بعدها .

فجاءها مرة و كانت هي الاخيرة في حياتها . فقضيا النهار يتحدثان عن نعيم السماء وهناء الابرار في ذلك النعيم الالهي الابدي . فما شعرا الا والشمس قد مالت الى المغيب . فقام بناديكتوس يريد ان يعود الى ديره . فتمسكت به اخته وجعلت تتوسل اليه لكي يطيل سكوته لديها ويتابع حديثه السحري الذي كان قد اخذ بمجامع قلبها . لكن بناديكتوس تمسَّك بواجبات القانون الرهباني ، فرفض طلبها وسار على بركة الله وتركها .

فجثت سكولستيكا القديسة على ركبتيها وجعلت رأسها بين يديها واخذت تبتهل الى الرب بدموع وحرارة وايمان لكي يعيد اليها اخاها . واذا بالسماء تمتلئ بالسحب ، ويكفهر الجو ، والرعد يقصف ، والامطار تهطل ،

وتثور زوبعة هوجاء هائلة فتقطع على الراهب السبل . فاضطر ان يعود من حيث اتى ، ويرجع الى اخته هرباً من الزوبعة .

فابتدرته اخته بالكلام وقالت : « توسلت اليك لتبقى معي ، فرفضت طلبي . فتوسلت الى الرب فسمع دعاء قلبي » . فقال بناديكتوس : « ليكن اسم الرب مباركاً » .

وقضيا الليل في حديث السماء . وكانت تلك الزيارة هي الاخيرة في حياة سكولستيكا لانها ما عتمت ان ذهبت تنعم بذلك النعيم الابدي الذي طالما بهرها في حياتها وسحرها .

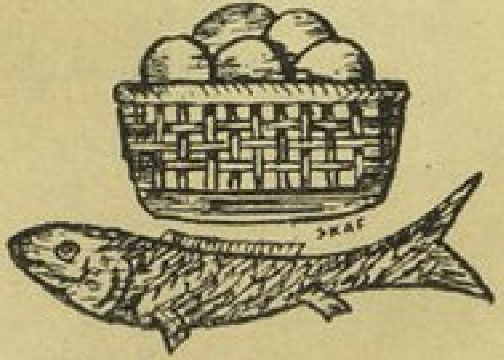

فهرس الكتاب

صفحة

توطئة ه

المصادر و

مقدمة ١

بحوث تمهيدية

البحث الاول : نظرة عامة في اصحاب الفضائل المسيحية ٦

البحث الثاني : في الفضائل المسيحية الموهوبة اي الفائقة الطبيعة ١٢

البحث الثالث : عمل المسيح في حياتنا الروحية ١٨

الباب الاول : في الفضائل المسيحية

الفصل الاول: في فضيلة الفطنة

البحث الاول : ماهية الفطنة وقوامها ٣١

البحث الثاني : ضرورة فضيلة الفطنة ٣٧

البحث الثالث : الوسائل التي من شأنها ان تزيد فضيلة الفطنة نموّاً وكمالاً ٤١

صلاة سليمان الملك : في طلب الحكمة ٥٧

الفصل الثاني : في فضيلة العدل

البحث الاول : في طبيعة فضيلة العدل وأحوالها ٥٨

البحث الثاني : فيما تأمر به وتنهى عنه فضيلة العدل ٦٢

صفحة

حوادث تاريخية : الرسولان بطرس وبولس امام محفل اليهود ٦٩
اونيا الكاهن الأعظم وهليودورس ٧١
فرنسكو روتي عنوان الأمانة ٧٣

الفصل الثالث : في فضيلة العبادة

البحث الاول : في طبيعة فضيلة العبادة ٧٨
البحث الثاني : في ضرورة فضيلة العبادة ٨٣
البحث الثالث : في كيفية القيام بعبادة الله ٨٨
حوادث تاريخية: الاسكافيان ٩٢
ستانسلاس ملك بولونيا ٩٣

الفصل الرابع : في فضيلة الطاعة

البحث الاول : في طبيعة فضيلة الطاعة ٩٤
البحث الثاني : في درجات الطاعة المسيحية ١٠١
البحث الثالث : في صفات الطاعة المسيحية ١٠٥
البحث الرابع : في فوائد فضيلة الطاعة ١١٠
حادث تاريخي : شجرة الطاعة ١١٧

الفصل الخامس : في فضيلة الشجاعة

البحث الاول : في ماهية فضيلة الشجاعة ١١٨
البحث الثاني : في درجات فضيلة الشجاعة ١٢٣
البحث الثالث : في كيفية الحصول على فضيلة الشجاعة ،
وفي طرق تقويتها ١٣٦
حوادث تاريخية : القديسة بربارة ١٣٩

صفحة

الفصل السادس : في فضيلة الشهامة ١٤٠
حادث تاريخي : كاسيلدا الكرملية الشريفة ١٤٢
الفصل السابع : في فضيلة السخاء ١٤٤
حوادث تاريخية : في السخاء المسيحي ١٤٧
الفصل الثامن : في فضيلة الصبر ١٤٩
البحث الاول : في ماهية فضيلة الصبر ١٥٣
حادث تاريخي : صبر أيوب ١٦١
الفصل التاسع : في فضيلة الثبات ١٦٣
حادث تاريخي : أغسطينوس ومونيكا ١٦٥
الفصل العاشر : في فضيلة القناعة ١٦٦
البحث الاول : القناعة في الأكل والشرب ١٦٧
البحث الثاني : في فضيلة العفاف ١٧٢
العفاف في الزواج ١٧٤
العفاف في العزوبة والبتولية ١٧٩
حوادث تاريخية : الشابة بوتامينا ١٩٦
مدام دي لاڤاليير ١٩٧
انوفريوس الناسك ١٩٧
الفصل الحادي عشر : في فضيلة التواضع
١ بيانها ١٩٩
٢ درجات فضيلة التواضع ٢٠٤

صفحة

٣ جمال التواضع وفوائده ٢٠٧

٤ التواضع في العمل ٢١٠

حادث تاريخي : تواضع القديس ارسانيوس ٢٢٧

الفصل الثاني عشر : في فضيلة الوداعة ٢٢٩

حادث تاريخي : وداعة القديس منصور دي پول ٢٣٥

الباب الثاني : في الفضائل الالهية

تمهيد ٢٣٦

الفصل الاول : في فضيلة الايمان

١ بيانها ٢٣٨

٢ منافع الايمان ٢٤٠

٣ كيف نمارس فضيلة الايمان ٢٤٨

حادث تاريخي : ايمان الاب دي راتسبون ٢٥٥

عظمة الخالق ٢٥٧

الفصل الثاني : في فضيلة الرجاء

١ بيانها ٢٦٠

٢ كيف تقدس فضيلة الرجاء نفوسنا ٢٦١

٣ كيف يمارس المسيحيون فضيلة الرجاء ٢٦٥

حوادث تاريخية : طوبيا البار ٢٧٤

رجاء القديسة تريزيا الطفل يسوع ٢٧٥

الفصل الثالث : في فضيلة المحبة ٢٧٧

	صفحة
البحث الاول : في محبة الله	٢٧٩
١ بيانها	٢٧٩
٢ كيف تقدس فضيلة المحبة نفوسنا	٢٨٤
٣ كيف نمارس فضيلة المحبة	٢٩٠
البحث الثاني : في محبة القريب	٢٩٧
١ بيانها	٢٩٧
٢ كيفية ممارسة المحبة الاخوية	٢٩٨
حوادث تاريخية : الاب بطرس دميان رسول البرص	٣٠٨
الصدقة انواع	٣١٠
العاطفة البنوية الصادقة	٣١١
ملحق في الصلاة	
١ بيانها وضرورتها	٣١٢
٢ شروطها	٣١٥
حادث تاريخي : القديس بناديكتوس واخته القديسة سكولستيكا	٣٢٢

American University of Beirut

179
A84aA

General Library